الأدب في صحافة العراق

ساعدت جامعة بغداد على نشره

الأدب في صحافة العراق

منذ بداية القرن العشرين

تأليف

الدكتور عناد اسماعيل الكبيسي

كلية الآداب جامعة بغداد

١٩٧٢ م ـ ١٣٩٢ هـ

مطابع النعمان ـ النجف الأشرف

المقـــدمة

هدا الكتاب في الاصل رساله علميه فرغت من بحث مراجعها قبل اكثر من ثلاث سنوات . ولا شك أن تغيرات قـد حدثت منذ ذلك التاريخ وحتى اليوم الذى ظهرت فيه هده الرسالة على شـكل كتاب يتداول بين الناس . والانسان بطبيعته ينزع الى الكمال في كل عمل يقوم به . وهدا بحد داته اعتراف ضمني بالنقص ، يعرّي المرء ويظهره مكشوفا أمام نفسه على أقل تقدير . ذلك اننا في كثير من الاحيان نعتقد رأيا معينا ثم يبدو لنا بعد فترة أخرى انه يحتاج الى تعـديل أو تحوير وربمـا الى تبديل او تغيير . فالمرونة في الاعمـال الفكـرية ضرورة تحتمها طبيعة هده الحركة ذاتها . ولو أنني راجعت هذا البحث أكثر من مرة لظهر انه يحتاج الى اكثر من تعديل والى تخفيف اكثر من حكم . ولهذا رأيت من غير المناسب أن أغير من طبيعةهذا البحثما دام قد أخذ شكله المعروف بعد مناقشة اللجنة واجازتي عليه .

ثم قدمت البحث الى جامعة بغداد طلبا للمساعدة في تعضيد نشره عله يسد بعض النقص البارز فيما يدعو اليه ، وأحالته جامعة بغـداد بدورها الى خبير تطلب منه إبداء رأيه فيما اذا كان هذا البحث يستحق المساعدة والتعضيد . وهذا يعني أن الخبير مطالب لان يقول رأيه فيه فاذا لم يجد شيئا يقوله ، فهو مطالب بشيء يقوله ، ولا شك فانـه

سيجد ما يقوله ، لان الاعمال الفكرية تقوم أساسا على الاجتهاد حينما نجد سببا يسوغ لنا هذا الاختلاف . وربما ـ وهذا احتمال وارد ـ يضطر الخبير تحت حكم الظروف الى البحث في الزوايا والخفايا عن الزلات والنواقص . أو عن جملة يراها ركيكة أو عن فاعل حولته الالة الى مفعول ، هو يهش لهذا دون ريب والا فقد ثقة الدراسات العليا . وما قد يترتب على هذه الثقة من أمور . هذا واقع تفرضه طبيعة العمليه ومع انني لم أعثر على مثل هذا الخبير ، الا انه شيء يمكن ان يقع . وبالمناسبة فانني اشكر الخبير على بعض ملاحظاته القيمة مع انني اخالفه في بعضها الآخر .

وعلى كل حال فقد تكون الجامعة مصيبة مع بحث آخر هو حصيلة جهد فردي ، ولكن الذي لا نعتقده صائبا أن تعرض البحوث الجامعية المجازة على خبير آخر مع انها ليست جهدا فرديا خالصا ، بل هي ثمرة تعاون الباحث والمشرف واللجنة التي أجازته .

أما عن البحث ذاته ، فلست أقف منه موقف الاطراء . والا صرت كمن يحكم على نفسه بالادعاء والغرور ، وبالتأكيد فلست أقف منه موقف النظر بمؤخرة العين لا لشيء الا لأنه جهد بذلته ، ولو انني كنت أقدر على شيء اكثر من هذا لما توانيت . فهو على ذلك ليس جهدا متواضعا ، ولا بعض جهد متواضع ، فأنا ما زلت انظر الى هذه العبارات وأمثالها على أنها من قبيل البهرجة والادعاء الفارغ ، والا فأي واحد منا يقدر على شيء ويدخره ، او يعرف النقص ولا يتلافاه .

كل ما أريد أن أقوله : ان البحث في الدوريات عمل مرهق وشاق يعرفه جيدا من هم أكثر التصاقا به . وزيادة في الايضاح : ان عمليــة حسابية بسيطة تريكم ـ عمليا ـ مدى العناء الذي يصادف الباحث وهو ينتقل بين هذه المجلدات الضخمة . فجريدة كالبلاد مثلا صدرت لاكثر من ثلاثين سنة بست صفحات أو ثمان مضروبة في عدد أيام السنة في عدد سنوات الصدور . ترينا حجم الجهد ، حتى لو اكتفى الباحث بتقليب هذه الصفحات . ذلك ان الاقتصار على أعداد معينة من صحيفة ما . او على عدة صحف تصــدر في فترة ما . فيه من المحاذير التي لايستطيع أن يأمنها الباحث ، فكم من فكرة أدبية او خاطرة طريفة كان من الممكن ان تضيع لو اننا اقتصرنا على شيء من ذلك .

وكانت الطريقة التي اتبعتها هي نقل اسماء هــذه الصحف من خزانات المكتبات في كراسة خاصة لأنتقل بعد ذلك الى الصحف مباشرة فلا ابدء بالثانية حتى اكون قد انهيت الاولى ، وربما قضيت في دراسة مجلة واحدة أكثر من اربعة شهور . وهكذا ، فكانت الحصيلة جهدا ووقتا وآلاف المسودات التي ما زلت احتفظ بها ، والذي يزيد المسألة تعقيدا ان هذه الدوريات لا تضمها مكتبة واحدة ولا مكان واحــد ، فيضطر الدارس ان يدور بين مكتبة واخرى وفي مناطق متعددة بغيــة الحصول على صحيفة مطمورة ربما يجد فيها ما قد يفيد .

أما نظرتنا الى الصحافة وموقفها من الادب فقد كنا ننظر اليهــا

على انها قامت في مراحلها الأولى على أكتاف الأدباء . في مجتمع يطغى عليه الخمول والجهل ، فتحملوا الكثير من الصعاب في نشر آرائهم ومبادئهم الجديدة ، فكانوا بحق جسرا الى النهضة الحديثة التي نقطف ثمارها اليوم ، ومع هذا كله فان كثيرا من جهودهم . بقيت حبيسة في ثنايا هذه الصحف ، وليس من المعقول أن تترك هذه الخواطر والأفكار في زوايا الاهمال . مع انها في كثير من الاحيان تشكل لبنة أو آساسا يعتمد عليه في دراسة النهضة وتطورها ، كما انها تسد ثغرة لا يمكن التقليل من أثرها في المجال الثقافي .

هناك الكثير من الظواهر الفكرية ، كانت تجد طريقها الى الصحافة . في وقت لم تكن وسائل الثقافة الاخرى منتشرة انتشارا كافيا بين الناس . والباحث الذي يريد أن يتعرف هذه الظواهر ، لا يستطيع أن يستغني عن الصحافة ، لأنها عامل مهم من عوامل النهضة الحديثة في جميع أقطارنا العربية . تفاعلت مع الأدب ، وامتزجت به امتزاجا غريبا ، فكان لها فضل ايجاد فنون ادبية جديدة ، وتطوير أخرى ، من هذه الزاوية كان انطلاقنا ، ونعني بها موقف الصحافة من الادب وأثرها في الفنون الادبية المختلفة ، ولهذا جاء البحث أبوابا ، يجمع الباب الواحد فصولاً يغلب عليها طابع الترابط ، ففي الباب الأول أعطينا صورة واضحة عن الظروف التي عاشت فيها الصحافة والصعوبة التي يلاقيها الباحث اثناء دراسته لهذه الدوريات ، بينما

تناول الفصل الثاني دراسة مصادر الثقافة العراقية قبل ظهور الصحافة. وقد ظهر لنا في هذا المجال خطل الرأى الدي يذهب الى انعزال العراق عن العالم الخارجي • وفي الفصل الثالث تناولنا دراسة الصحافة العراقية في أدوارها المختلفة مع التركيز على الصحف الرائدة •

وفي الباب الثاني درسنا أثر الصحافة في اللغــة وتطويرها لجعلها ملائمة مع العصر . والاهتمام بسجله لغة العرب لصاحبها الكرملي الذي وقع عليه العبء الاكبر في هذا المجال • في حين كان الفصل الثاني يتناول الأديب ونظرته الى الأدب والحياه . وكيف أن الجيل الأول منهم كانوا من الادباء . حتى اذا ظهر الجيل الاخير . لم يول الناحية الفنيــة بمــا تستحقه . وذلك لطغيان عامل السرعة وظهور المطبعة •

وفي الباب الثالث تناولنا بالبحث المقالة والقصة باعتبارهمــا من الفنون الأدبية في الصحافة ، ورأينا أن المقالة كانت تسير مع الاحداث فطغى عليها الجانب السياسي بفعل الظروف التي كان يمر بها العراق•

أما القصة فكانت ثمرة من ثمرات الصحافة بدأت مترجمة ، ولم تظهر القصة المؤلفة الا في بداية العقد الثالث من هذا القرن •

وقد أفردنا الباب الاخير للشعر . لاهتمام الصحافة العراقية به، وعرضنا للقصيدة العربية في صورتها الكلاسيكية ، ثم تناولنا بالبحث حركة الشعر الحر •

وقبل أن اختتم كلمتي هذه ، أبيح لنفسي الاعتراف بالجميــل ــ وهذا كل ما املكه ــ لأستاذي المحترم الدكتور لطفي عبد البديع

على ما أسداه لي من نصح وارشاد كان لهما أكبر الاثر في متابعة هذا البحث المرهق . فقد أعانني بتوجيهه ونصحه . وفتح لي قلبه . رغم ما كنت أسببه له من تعب . كان يقابله بكل رحابه صدر .

الباحث

الباب الاول

الصحافة العراقية وظروفها

الفصل الاول

مصادر البحث

لعل خير وسيلة يستطيع أن يعتمد عليها الباحث في دراسة الصحافة، باعتبارها حركة فكرية وأدبية رافقت نهضتنا الحديثة ، هي الصحافة ذاتها .

لقد كانت الصحافة منذ ظهورها ـ وما زالت ـ سجلا لكثير من مظاهر الحياة الفكرية التي تقع في حينها ، فما أثيرت ضجة أدبية أو مشكلة ذات مساس بالحياة العامة الا وانعكس صداها في الصحافة . لقد وجد فيها الكثيرون ممن يشتغلون بالقضايا الفكرية أو القضايا العامة أداة صالحة للتعبير عن آرائهم . ومن هنا تنوعت اتجاهاتها وموضوعاتها ، فصار من الصعوبة بمكان الالمام بكل هذه الجوانب.

يضاف الى هذا ان الصحافة العراقية وقعت تحت رحمة السياسة

وأهوائها طيلة فترات حياتها المختلفة . الأمر الذي ادى الى وجـود تناقض واضح في اتجاهاتها . عير ان الباحث المدقق يستطيع مع هذا أن يعطي صورة قريبة من الوضوح والدقة لتاريخ هده الصحافة حينمـا يطلع على هذه المجلدات الصحيفة التي حفظتها لنا المكتبات العامـة والخاصة .

ولعل أهم صعوبة يواجهها الباحث في هذا المجال هي مشـكلة الحصول على ثبت رسمي جامع لكل ما صدر في العراق من صحف ومجلات منذ ظهور جريدة الزوراء الرسمية سنة ١٨٦٩ وحتى الآن . مهما بذل من جهد وعناء . في دوائر الدوله وفي عير دوائر الدوله . فكل ما في وزارة الارشاد العراقيه كراسة صغيرة مخطوطه تحتوى على بعض أسماء الصحف دون ترتيب بدكر لا في تاريخ الصدور . ولا الفترة التي عاشت فيها هده الصحيفه او التاريخ الدى توقفت فيه . بل انها لا تذكر حتى اسم محررها . وكثيرا ما ادى دلك الى انقطاع التسلسل بين الاجيال . فكم من شعراء في الفترة المظلمه مثلا . ذهبت بهم الأيام وضاع انتاجهم في الزوايا المهملة فلم نعد نرى غير قصائـد موزعة هنا وهناك ضاع أكثرها وبقي القليـل الذى جمع في الايام الاخيرة . ونشر في الصحف ليطلع عليه القراء .

ولو أننا اطلعنا على أكثر ما قاله شـعراء تلك الفترة لكان من الممكن أن لا تكون أحكامنا قاسية وعامة بحيث نصف كل ما قاله شعراء هذه الفترة على انه شعر تقليدي لا يهتم الا بالقوالب الشكلية والصناعة

اللفظية « شعراء العراق في القرن الثامن عشر الميلادي كثيرون ، وأغلبهم من المكثرين . ومع توفر عددهم لاتكاد نرى لهم تراجم . وما ذلك الا لضعف همم رجال ذلك العهد . أو لاشتهار أولئك الشعراء في عهد معاصريهم . فمضوا ان شهرتهم تنقل خلفا عن سلف . وما خالوا أن مالا تدون في بطون الكتب والاسفار لا يصبر على نوائب الاعصار »[١].

وقد انتقلت هذه العدوى الى الصحف ذاتها فأصبح من العسير بمكان أن نحصل على كثير من هذه الصحف أو حتى على فهارس كاملة تسم ما طبع في البلاد من كتب وصحف ومجلات . يذكر المؤرخ العراقي المشهور الاستاذ عبد الرزاق الحسني أنه « لا شيء أصعب على الباحث في هذه البلاد من تصديه لوضع الفهارس الصحيحة لما صدر فيها من صحف أو كتب أو مجلات أو غيرها من المواعين الادبية كالنشرات والمقالات مثلا . وليس ثمة عمل أشق على المؤرخ من الحصول على الفهارس الكاملة لمطبوعات هذه الديار وعندنا أن اللوم في هذه الناحية لا يوجه الى فئة أو هيئة او حكومة وانما يرجع الى عدم ممارسة الشرق العربي مهمة التدوين المنظم وحفظ السجلات الكاملة ، وقد لا نكون مخطئين اذا قلنا انه لا يوجد بالعراق اليوم مطبعة تحتفظ بكافة مطبوعاتها ومنشوراتها ، ولا نغالي اذا قلنا أنه ليس لدى الحكومة نفسها قائمة بما

---

(١) مجلة لغة العرب عدد ٩ سنة ١٩١٢ ص ٣٢٩ .

صدر في العراق من كتب وصحف ومجلات » [٢] . وهذا ما لاحظناه ونحن نبحث عن هذه الفهارس في دوائر الدولة .

وأول كتاب ألف في هذا المجال هو كتاب الاستاذ عبد الرازق الحسني . وهو ليس كتابا بالمعنى المفهوم . بل هو أقرب الى المعاجم منه الى أي شيء آخر . ففيه يذكر جميع الصحف التي برزت في العراق منذ صدور أول صحيفه فيه حتى نهاية سنة ١٩٣٣ م وعندها يتوقف . وميزة هذا المعجم انه كان وعاءا احتفظ بجميع الصحف واسماء محرريها وتاريخ صدورها واحتجابها وقد اكتفى بذلك دون الاشارة الى أهمية هذه الصحيفة أو تلك من الناحية الفكرية والأدبية والسياسية بصوره عملية ، ودون أن يوقفنا على أسلوبها وكتابها والآثار التي تركتها هذه الصحف في حينها أو السبب الذي أغلقت من أجله . ولو فعل المؤرخ مثل هذا لكانت الفائدة أعم وأشمل ، وبخاصة وان كثيرا من الصحف التي ذكرها لا نعرف عنها سوى الاسم . فتنوير الافكار مثلا « مجلة سياسية أدبية دينية تصدر في بغداد مرة في كل شهر لصاحبها عبد الهادي الاعظمي ومديرها المسؤول نعمان الاعظمي . برز عددها الاول في العشرين من شعبان سنة ١٣٢٨ هـ بأربعين صفحة من القطع المتوسط فاستمرت تصدر سنة كاملة ثم احتجبت » [٣] .

وهكذا يسير المؤلف مع سائر المجلات والجرائد التي ذكرها في

---

(٢) عبد الرزاق الحسني . تاريخ الصحافة العراقية ص ٧ .

(٣) ن . ف ص ٢٦ .

معجمه والتي بلغت أربعا وثمانين صحيفه بين مجلة وجريدة ٠

ولعل خير ظاهره نستشفها من هذا المعجم وغيره ، هي سرعة اختفاء الصحيفه ، حتى ان الكثير من هذه الصحف لم يكن ليتعدى العدد الواحد ومن ثم يحتفي بعد ذلك مباشره ، فمجلة الرصافة مثلا « مجله شهريه دينية علميه أدبية تاريخية لصاحبها محمد صادق الاعرجي برز عددها الاول في ٩/٤/١٩١٣ ٠ ولم يصدر منها سوى عدد واحد »(٤)٠

وسوف نقف على أسباب هذه الظاهرة بصورة واضحة في فصل قادم ٠

واصدر المرحوم روفائيل بطي كتابا عن الصحافه العراقية هو مجموعة محاضرات ألقاها على طلبة معهد الدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية يشبه أن يكون مدخلا عاما الى الصحافة ذاتها ، والاستاذ بطي رائد من رواد النهضة الحديثة في العراق ، وصحافي معروف لمع اسمه منذ بداية العقد الثالث من هذا القرن ، يغلب الناحية التاريخية على ما سواها ويتسم كتابه هذا بالاختصار وقلة الامثلة مع انه كان قريبا من الصحف التي كانت تصدر حينذاك والتي لم نعرف عنها اليوم سوى الاسم ٠

وصدر حديثا كتابان لمؤلف واحد يحملان نفس العنوان تقريبا مع تغيير بسيط في اللفظ ، الاول تحت عنوان (الصحافة العراقية ميلادها وتطورها) وقد صدر في سنة ١٩٦١ ، والثاني تحت عنوان (صحافة العراق تاريخها وكفاح أجيالها) وقد صدر في سنة ١٩٦٩ وهما

(٤) مجلة الحرية عدد ٩ سنة ٩٢٥ ص ٥٤٢ ٠

صورتان لاصل واحد . والقارئ المدقق لكليهما لا يستطيع آن يجد فرقا بينهما الا في صيغ التعبير او في الاشكال الظاهرة فحسب ، بل انه يستطيع ان يستغني بأحدهما عن الآخر ، والظاهر ان الاستاذ فائق بطي انبرى للتأليف في موضوع يبدو انه لم يلم باطرافه فراح يجمع الآراء . من هنا وهناك دون الاشارة الى مصدرها ولولا خشية الأطالة لعرفنا كثيرا من هذه النواقص . نكتفي بايراد بعضها دفعا لما قد يوجه الينا من تحامل .

ولعل أول نقطة نلاحظها هي تكراره للمقتبسات في كلا الكتابين دون زيادة أو نقصان ودون الاشارة الى مصادرها ، ففي الصفحة الثامنة من كتابه الاول مثلا يأخذ من كتاب سلامة موسى (الصحافة حرفة ورسالة) النص التالي « الصحيفة مصنع يجب أن لا يقفل .. » ومن ثم يعيد هذا الكلام في الصفحة السابعة من كتابه الثاني ، لا ضير في ذلك لو أنه ذكر اسم المرجع وصاحبه والصفحة التي أخذ عنها ، ولا أعرف أن كتابا علميا يخلو من هوامش المراجع كخلو هذين الكتابين .

وفي الصفحة الثالثة عشرة ينقل المؤلف الخبر التالي عن مجلة النجم « ان المعلومات التي جاء بها الرحالة الاجانب ... » ومن ثم يعيد نفس هذا الكلام في كتابه الثاني وفي نفس الصفحة بالتمام . هذا الخبر لم ينقله من جريدة النجم مباشرة كما قد يبدو للقاريء وانما نقله من كتاب الاستاذ روفائيل بطي الذي كان معاصرا للصحيفة ، ولكنه لم يشر الى ذلك .

اما ما ذكره عن الزوراء وغيرها من الصحف الاخرى فمنقول

بعضه عن كتاب الاستاد الحسني او كتاب الاستـــاد بطي • وكان من الممكن أن يتحاشى هذا كله لو انه كان يملك الصبر واطلع على الصحف بنفسه . فلجريدة الزوراء وغيرها اعداد لا بأس بها يستطيع الأستفادة منها لو انه كلف نفسه مراجعتها •

واكثر من هذا انه حينما يتعرض لذكر العوامل التي ساعدت على تطور الصحافة العراقية فانه يكررها في كلا الكتابين . ففي الصفحة الثالثه والعشرين مثلا من كتابه الاول يذكر الاستقلال والثوره العراقيه وظهور الأحزاب كعوامل مساعده ومن ثم يعيد هذا الكلام في كتابـــه الثاني وذلك في الصفحة الخامسة والثلاثين وما بعدهـــا دون تغيير يذكر في المضمون مع اختلاف بسيط في الالفاظ • كل هـــذا ما كان ليكون لو انه اعتمد على الصحف مباشرة . ولما جاء بحثه مكررا متشابها رغم انه وفي مجموعه لا يعطي صورة دقيقه عن تطور الصحافة في العراق •

وما دمنا بصدد التعليق على هذه الكتب فلا بد من التعرف على كتاب صدر حديثا تحت عنوان (الصحافة العراقية واتجاهاتها السياسية والاجتماعية والثقافية من سنة ١٨٦٩ الى سنة ١٩٢١) للاستاذ منـــير بكـــر التكريتي . ومع اننا لا نؤيد الحصر في مثل هذه الموضوعات لتداخلها واعتماد بعضها على الآخر فانه كان مسبوقا بهذه التجزئة ولم يزد عليها الا بكثرة النصوص والامثلة التي تغلب على سائر الكتاب ، فهو مثلا يدرس في الفصول الاولى حالة العراق من النواحي السياسية والاجتماعية والثقافية وهي دراسة تقليدية أشبعها المؤرخون بحثـــا

تجد الكثير منها في كتب المذكرات فضلا عن الكتب التاريخية التي لم تترك صغيرة ولا كبيرة إلا وأحصتها . من أمثال الثورة العراقيـة للحسني، والثورة العراقية الكبرى للفياض وتاريخ القضية العراقية للبصير وأربعة قرون من تاريخ العراق الذي ترجمه الاستاذ جعفر خياط وغير هذا الكثير . وان جل مؤلفي هذه الكتب كانوا من اولئـك الذين عاصروا الاحـداث أو كانوا قريبين منهـا . وكم يكون جميـلا لو انــه درس هــذه الاحـوال العـامة من خـلال اطلاعه على الصحف التي كانت تصدر في تلك الفترة . لا ان يخضع الصحافة نفسها لهذه الدراسة .

وهذه نقطة شائعة في كثير من الدراسات الأدبية حينما يجعلون الأدب تابعا لهذه الاحوال فينصب اهتمامهم عليها لا على الادب ذاته . اذ ليس هنالك اكثر من الادب والصحافة التصاقا بالعصر وعرضا لكثير من الظواهر الفكرية والسياسية التي تحـدث في حينها . والظاهر أن الاستاذ منير بطريقته هذه يكون قد سد على نفسه الطريق لأنه يعود في فصول اخرى ليكرر ما بدأ به حينما يدرس المقـال في الاتجاهات الثلاث التي ذكرها . وفي هذا كله تكرار لامبرر له. تتغلب فيه الناحية التاريخية على ما سواها .

والاستاذ منير فوق هذا كلـه يفصـل الصحيفة عن محررها فهو يدرس الصحيفة في فصل خاص ثم يعود في فصل آخر لدراسة محررها اننا لا نستطيع أن نفهم الاديب مثلا بمعزل عن ادبه ولا الصحفي بمعزل

عن صحيفته . وهل يعرف الاديب الا بأدبه والصحفي الا بصحيفته •

ان دراسة تاريخ حياة انسان ما شيء مجرد في حد ذاته . وتبقى هده الدراسه عديمه الجدوى اذا نحن لم ندرس هــذه الشخصيه من خلال الافكار والآراء التي يقدمها في فترة معينه لاصقة بالعصره وبعبارة أوضح ان دارسة الاستاد داود صليوه [٥] تكون عديمة الجدوى اذا لم تقترن هذه الدراسه بجريدة صدى بابل التي اصدرها في نهايه العقد الاول من هذا القرن . لأن هذه الجريدة تعكس الى حــد ما ثقافتــه واتجاهه ورأيه • وعلى كل حال فالكمال امر بعيــد المنال وبخاصه في الدراسات الانسانية التي تعتمد على الاختلاف في وجهات النظر . الأمر الذي يساعد على نمو الفكر والثقافة في حياتنا العلمية . والا فالكتاب بمجموعه دراسة علمية جادة لها اهميتها في هذا الموضوع البكر الذي نحن بأشد الحاجة اليه والى أمثاله •

وبناء على هذا كله جعلنا الاهتمام ينصب على الصحافة مباشرة باعتبارها ضرورة تقتضيها طبيعة البحث أولا ولأن كل ما قيل حــول الصحافة تغلب عليه الناحية التاريخية الامر الذي يقلل من أهمية هــده البحوث بالنسبة لموضوعنا الذى نحن بصدده • ولكن مع هذا فاننــا ما زلنا حيث بدأنا ، فاللا مبالاة هي هي لم تتبدل ، والمكتبات العــامة التي تخضع لسلطة الدولة ما زالت تفرق بين هذه الصحف ، تشترك في بعضها وتترك البعض الآخر . كل ذلك لاعتبارات سياسية أو خاصــة،

٥) سيأتي ذكره فيما بعــد .

الامر الذي يؤدي الى اهمال كثير من الصحف او ضياعها . بينما المفروض بهذه المكتبات ان تكون الوعاء الطبيعي لجميع وسائل الثقافة بما فيها الصحف . فتحتفظ بالدوريات المختلفه التي تصدر في فترات متعاقبة بغية تقديمها الى الاجيال اللاحقه . وبهذا تكون قد أدت الخدمه التي وجدت لها اصلا .

ان جريده كالهاتف مثلا صدرت اكثر من عشرين سنه عبر أن المكتبة العراقية لم تحتفظ الا بأعداد أربع عشره سنه . وكان عليها ان تبحث عن الاعداد الباقية لتضمها الى الأولى بأية طريقة كانت . لما لهذه الجريدة من سجل رائع في تطور أدبنا العراقي . ان شيئا من هذا لم يحدث . وبهذا خلت المكتبة العراقية من مصدر فكري وثقافي هام في دراسة النهضة الأدبية في البلاد [٦] .

وعلى هذا يجد الباحث نفسه مضطرا لأن يرتاد المكتبات الخاصة بحثا عن هذه الصحيفة أو تلك رغم العناء الذي يلاقيه في تجواله هذا وفي مناطق مختلفة من العراق . حينما لا يجد في المكتبات العامة كثيرا من الصحف التي يعتمد عليها أو التي تساعده في الوصول الى حقيقة علميــة .

---

(٦) ذكر لي الاستاذ جعفر الخليلي صاحب جريدة الهاتف ان موفدا من مكتبة جامعة كلفورنيا الامريكية اشترى اعداد جريدة الهاتف لعشرين سنة وهكذا حرم العراق من هذا المصدر الفكري .

الفصل الثاني

مصادر ثقافة العراق

فى القرن التاسع عشر

دهب كثير من مؤرخي الأدب والساسه في العراق الحديث الى انه كان منعزلا عن العالم العربي والعالم الخارجي طيلة القرن الماضي وحتى الحرب العالمية الاولى . وانه في خلال هذا كله كان يعيش منطويا على نفسه لا يعبأ بما كان يجرى حوله •

لقد اسقط هؤلاء المؤرخون من حسابهم الصحافة باعتبارهاوسيلة هامةمن وسائل الثقافة الحديثةولو كلفوا انفسهم عناءالبحث والتحري في صحافتنا العربية التي كانت تصدر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لغيروا كثيرا من احكامهم تلك •

وقبل أن نناقش هذه المسألة او نرد عليها ، نحب ان نتعرف آراءهم أولا ومن ثم نورد الامثلة العملية التي تؤيد ما ذهبنا اليه ، ومن هؤلاء المؤرخين الدكتور يوسف عز الدين الذي كرر هذا الرأي في كثير من كتبه . وألحق السنوات التي سبقت نهاية الحرب العالمية الاولى بالعصر المظلم قال : « هذه الثماني عشرة سنة من حكم الاتراك

لم تكن الا استمرارا لحالة العراق في القرن التاسع عشر وتكاد تكون جزءا لا يمكن بتره عنه » [١] قد يكون هــذا صحيحا اذا نظرنا الى وضع العراق السياسي . أما من الناحية الثقافية فالمسأله مغايرة تماما لهذا الرأي وهدا ما سنثبته بعد قليل. وقد ذهب الى هذا الرأي آخرون نذكر منهم الاستاذ ابراهيم الوائلي حيث قال « غير ان العراق بقي بحكم موقعه الجغرافي بعيدا عن التيارات الحديثة فقد حال النفــوذ التركي فيه دون كل شيء يسمى ثقافة حديثة فلا صحافة تكتب وترشد ... ولا مدارس تثقيف . لهذا ظل العراق في مادته يعتمد على التراث القــديم » [٢] والى مثل ذلك ايضــا ذهب الاستاد حبيب الراوي في مقالاته التي كتبها في مجلة المعلم الجديد عن التجديد في الشعر العربي المعاصر قبل اعلان الدستور العثماني ومما جاء فيها « ثم ران الظــلام على أدبنا العربي حينما اكتسحت البلاد جموع التتر والمغول فدمرت معالم الحضارة فيها وجعلت كتبها طعما للنيران. فانطوت النفوس وفترت العزائم وقعدت الهمم عن طلب العلم وأخذ الناس يتلهون بالتوافه من الامور حتى ذوت الحياة العلمية وتقلص ظلها . استمر ذلك مدى العهد العثماني حتى كانت بداية القرن العشرين حينما انبثق الوعي القــومي في الشرق والغرب » [٣] .

---

(١) الدكتور يوسف عز الدين ـ الشعر العراقي الحديث ـ ص ٩.

(٢) مجلة كلية الآداب عدد ٨ سنة ١٩٦٥ ص ١٢٩ .

(٣) مجلة المعلم الجديد عدد ٦ سنة ١٩٥٦ ص ١٥ .

وهذا ما ذهب اليه الشيخ محمد رضـــا الشبيبي فيما نشره في جريدة الزمان (٤) . اما الاستاذ بير روس مدير المعهد الثقافي الفرنسي سابقا ، فكان يذهب الى أبعد من هذا وهو يقارن بين التطور الثقافي في العراق وبين تطوره في بعض الاقطار العربية « واذا كان لهذه النهضة بعض التخلف عن مصر وسوريا فمرد ذلك الى أسباب جغرافية فرضت على العراق من انزواء وانطواء ، ان هذا البلد ولد بعـــــد الحرب الاولى » (٥) ، وهكذا كان رأي بعض مؤرخي السياسة الذين ذهبوا الى ان العراق لم تتصل بالبلاد العربية الاخرى الا في بداية هـــــذا القرن (٦) .

وقبل أن نناقش هذه الآراء نحب ان ننبه الى نقطة مهمة وهي ان عملية الانتقال الثقافي ليست عملية نقل سلعة معينة من قطر تكثر فيه الى آخر تقل فيه بحيث يعرف الناس كل هذه السلعة بهذه السرعة والسهولة ، ان عملية الانتقال الثقافي عملية دقيقة يشعر بها من هم على صلة بها فحسب وتزداد المسألة صعوبة حينما يكون الجهل متفشيا بين الاغلبية العظمى التي لا تولي هذه الناحية ما يمكن ان تستحقه .

فالعملية الثقافية لا تعدو أن تكون مجرد بصيص لا يشع بنـــوره الا اذا تعهد بالرعاية والعناية المستمرة التي تغذيه بروافد مستمرة لكي

(٤) انظر جريدة الزمان عدد ٣٨١٤ سنة ١٩٤٩ .

(٥) جريدة البلاد عدد ٥٢٣٣ سنة ١٩٥٨ .

(٦) انظر عبد الله الفياض الثورة العراقية الكبرى ص ٢٦ .

يستطيع الاستمرار على بث هذا الشعاع . ان كثيرا من الاشعاعات الفكرية التي تظهر بين حين وآخر لا يمكن ان تموت بهذه السرعة التي يظنها البعض . دون ان تترك أثرا في حياة الناس مهما كانت قوة ذلك الاثر .

فالصحافة العربية التي كانت تصدر في الاستانة أو في بعض البلاد العربية التي سبقت العراق الى الاتصال بالعالم الخارجي كانت من المصادر المهمة التي لا يمكن اغفال أثرها على الناحية الثقافية في العراق.

ومن هذه الصحف جريدة الجوائب التي كانت تصدر في الاستانة لصاحبها أحمد فارس الشدياق . وكان علما من أعلام النهضة العربية الحديثة . أدى للعربية خدمات لا تنسى في الجوائب وفي مؤلفاته الكثيرة واليه ينسب وضع اصطلاحات كثيرة في اللغة العربية وبخاصة في ميادين العلوم والفنون ذكرها الاستاذ جرجي زيدان في كثير من كتبه . وقد ساعده على هذا كله اتقانه لبعض اللغات الاجنبية وخبرته الطويلة في العمل الصحفي . حرر في جريدة الوقائع أيام محمد علي باشا وفي جريدة الرائد التونسية حينما استدعاه باي تونس . حتى امتدت شهرته الى آفاق بعيدة فاستدعاه السلطان الى الاستانة وأصدر الجوائب سنة ١٨٦٠ . فكانت بحق شعلة وهاجة في خدمة لغة الضاد وآدابها . والذي زاد في أهمية الجوائب أنها كانت تصل الى كثير من مدن العالم العربي . وكانت جرائد باريس ولندن « تأتي بذكرها وذكر محررها في الكلام عن سياسة الشرق مستشهدة بأقواله وكانت تلقبه بالسياسي الشهير

والاخباري الطائر الصيت » [٧] .

أما فيما يختص بالعراق فقد جاء في اعدادها الاولى ذكر الموصل كمدينه توزع فيها هذه الجريدة . ولها وكيل يشرف على تنظيم هـذا التوزيع [٨] . وتضاف مدينه بغداد الى قائمه المدن التي تصلها الجريدة في العدد التالي مباشره وهو العدد ١٦٢ والمؤرخ في ١٨٦٥ ، ووكيلها في بغداد هو (فتح الله عبود وأولاده) . وهـــذا يعني ان لجريدة الجوائب قراء في مدينه بغـداد بصرف النظر عن عدد هؤلاء القراء . بل اننا لنلاحظ ظفرة أخرى في الاعداد التاليه وهي أن المرحوم أحمـد فارس الشدياق كان على صله بكثير من أعلام العراق المشهورين في حينهم وبخاصة حينما كانوا يزورون الاستانه « قدم حضرة العـلامة والتحرير الفهامة عبد الباقي افندي ابن افضل المتأخرين وخاتمـــة المفسرين السيد محمود افندي شهاب الدين قدم من الزوراء وهو معدن العلماء والفضلاء ومعه اخوه الحسيب وهو من بيت مجد في العراق ، وقد تشرفنا بالاجتماع بحضرة الأفندي المومى اليه مرارا فوجـــدناه فاضلا لوذعيا . وتكرم علينا من تآليفه المفيدة وآثاره الحميدة بكتاب في مناسك الحج وياله من كتاب فريد ... » [٩] وهذا يعني ان الصلات الثقافية بين العراق والاستانة كانت قائمة فعلا . وان كثـيرا من أدباء

---

٧) جرجي زيدان — تراجم مشاهير الشرق — ج٢ ص ٧٨ .

٨) انظر الجوائب عدد ١٦١ سنة ١٢٨١ هـ .

٩) الجوائب عدد ٢٠٣ سنة ١٨٦٥ .

العراق وأعيانه كانوا يقومون بهذه الزيارات في فترات مختلفة وانهم كانوا يقدرون أهمية الصحافة كوسيلة ثقافية مهمة . فينشرون فيها ما يحلو لهم أن ينشروه . وأن هناك كتبا تؤلف وتهدى . الأمر الذي يدل على وجود حركة ثقافية لا يمكن نكرانها . كالذي يذكره المرحوم الشدياق عندما قدم كتابه سر الليال في القلب والابدال لحضرة العلامة عبد الباقي افندي الآلوسي ليكتب له كلمة بمناسبة صدوره [١٠] .

ليس هذا فحسب بل ان كثيرا من أدباء العراق كانوا يرسلون ما تجود به قرائحهم الى هذه الجريدة « قد وردت الينا من الزوراء مسبع الافاضل والعلماء قصيدة فريدة يأبى الله أن تثنى في حقائب الاحقاب العديدة ، نظمها العالم العلامة والنحرير الفهامة نابغة زمانه ذو الفضل الجليل عبد الحميد أفندي الآلوسي » [١١] وهذه قصيدة أخرى أرسلها عراقي آخر « هذه القصيدة للشاب الذكي والأديب اللوذعي السيد احمد شاكر زين مجد الدين افندي البغدادي » [١٢] وهناك شعراء كانوا على صلة بالجريدة يبعثون اليها بقصائدهم في فترات مختلفة ، منهم عبد الباقي افندي زاده والشاعر العراقي المشهور عبد الغفار الأخرس الذي قالت فيه جريدة الجوائب « رضي زمانه وبحتري عصره

---

(١٠) انظر الجوائب عدد ٢٠٤ سنة ١٨٦٥ .

(١١) الجوائب عدد ٢٠٤ سنة ١٨٦٥ .

(١٢) ن . ن . عدد ٢١٢ سنة ١٨٦٥ .

واوانه الجوهر الانفس السيد عبد الغفار الاخرس يرثي معن عصره عبد الغني أفندي :

سأبــكي واستبكي عليــك المعاليــــا

وأسكب من عيني الدموع الجواريا [١٣]

كما كانت الجريدة تهتم باخبار العراق وتنشر عنه النوادر والطرف من ذلك « مما أطرب مسامعنا من أخبار الموصل هذه المرة غاية الاطراب وحملنا على الاستغراب والاستعجاب هو أن الاديب البليغ العــالم الفاضل السيد شهاب له عدة اولاد نجباء . وعلى الخصوص واحــد منهم فقد نبغ في صناعة الشعر وله من العمر عشر سنين » [١٤]

ولم تكن جريدة الجوائب وحدها هي التي تصل الى العراق بعد منتصف القرن الماضي بل كانت هناك مجلة أخرى لا تقل عنهــا شهرة وأهمية تلك هي مجلة الجنان التي كانت تصدر في بيروت سنة ١٨٧٠ فكانت سجلا رائعا المنهضة العلمية والادبية في البلاد السورية «والمؤرخ الصحفي ينظر اليها على انها أول مجلة ظهرت في الشرق العربي وكانت سجلا للنهضة الفكرية في البلاد السورية وكانت ميدانا فسيحا تتبارى فيه أقلام الكتاب في الأدب والعلم والسياسة والطب والتاريخ والقانون والفكاهة والملح ... وهي في نظر المؤرخ أم المجلات في جهات شتى

(١٣) الجوائب عدد ٢١٤ سنة ١٨٦٥ .

(١٤) ن . ف عدد ٢٨٣ سنة ١٨٦٧ .

من أقطار العالم العربي » [١٥] .

أما مؤسسها بطرس البستاني فكان من أعلام اللغة البارزين وهو مؤلف قاموس محيط المحيط « أخذه عن أشهر متون اللغة ولا سيما الفيروز آبادي وصحاح الجوهري . ومما يمتاز به أنه جمع كثيرا من الالفاظ العاميه وفسرها بالالفاظ الفصحى . وأوضح كثيرا من أصول الألفاظ الاعجميه كان أصلها مجهولا أو مهملا . وادخل فيه كثيرا من المصطلحات التي حدثت في اللغة بحدوث العلوم الحديثة المنقولـة عن اللغات الأعجميه » [١٦] . وقد راجت هـذه المجلة في العالم العربي ووجدت لها صدى في العراق منذ السنه الاولى لظهورها . حتى اننا لنجد من يوليها عناية تليق بها في بغداد . يدل على ذلك تلك الرسالة التي نشرتها المجلة في سنتها الاولى تحت عنوان بغداد وقد جاء فيها :

« ورد الينا من بغداد من جناب فتح الله أفندي خياط . تحرير لطيف . وطيه رسالة واردة اليه من سيادة علي رضا أفنـدي فاروقي ، جوابا على تحرير كان قد ارسله الى جناب المومى اليه مع نسخة من الجنان . واذا كانت تلك الرسالة لطيفـه المباني رفيعة المعـاني ، وكنـا نرغب تنشيط أسباب المواصلات بين الشام ودار السلام التي اشتهر أهلهـا في سالف الأزمان بالمعارف . واجابة لطلب الافندي المومى اليه نوردها في الجنان وهي الآتية : جناب الخليل والرفيق المحب . كيف يمكن أن

(١٥) الدكتور عبد اللطيف حمزه — أدب المقالة — ج١ ص٢٠٧

(١٦) جرجي زيدان — بناة النهضه — ص ١١٦ .

اصف ما حل بي من السرور لما وقع نظري على نسخة الجنان التي تكرمت بارسالها الي . فأخذتها بعد التكرم وشممت منها عرف النسيم واردت ان ادخل بابها بإذن رضوانها . كيف لا أعظمها وقد نسجت برادها أنامل الادباء وحاكت مطارفها كف الفصحاء ... لقد سال ماء حياة الفصاحة في نواحيها . وهب نسيم البلاغة في أرجاء ناديها ، فطفقت أقتطف يد الفكر من ثمارها التي هي للفضل جامعة ...وشكرت الباري حيث انها قد أعلت شرف لغتنا العربية الشريفة . انها تهب الأدباء الأمن والأماني ... والتمس من لدنك أن تقيد اسمي في جريدة هؤلاء الاخوان . وتسطر رسمي في سجل أولئك الأخدان . وان كنت لا أستحق الانتظام لسلكهم والدخول لملكهم . الا ان الأدباء محبو الوطن يقبلون بفضلهم من غبي منهم ومن فطن وسوف يتحفونني بما طبع منها وما لم يطبع لاعود ساحبا ذيل السرور » [١٧] .

ولم يكتف كاتب الرسالة بالسطور الرقيقة التي كتبها بل اتبعها بشعر كله اطراء بها وبصاحبها ويطلب منه أن يسجل اسمه في قائمة المشتركين .

ومما يدحض القول بانعدام الصلات الثقافية ، بين العراق وبعض الاقطار العربية قبيل الحرب العالمية الاولى ما ذكره قارىء آخر في رسالة له بتاريخ ١٨٧٠/٦/٢٧ يقول فيها « وقد طلب الي أهل العلم

١٧) الجنان عدد ١٢ سنة ١٨٧٠ ص ١٣٦٨ .

والادب من اسلام [١٨] هـــذه المدينه وحتوني ان انظم لها تاريخـــا في بيروت وجنانها ... ارجوكم ان ندرجوه في الجنان عن لساننا . والمراد من نشره في الجنان هو ان يتحقق عند الخاص والعام ان العــــلائق الأدبيه العلميه هي جاريه بين بغداد وبيروت كمـــا كانت قديماً فان اهل العراق لكثرة ميلهم الى العربية والاشعار ونحو ذلك يصبون جدا الى مطالعه الصحف المحتوية على ما تطيب به النفس وترتاح اليـــــه الشنشنة العربية :

غـــدت بيروت هـــــذا الزمان نس على البلاد بلا امتنـــان [١٩]
بفعــــل افاضل جادت علينــــا قرائحهم بتجديـــد المعـــــاني
وجـــدنا في الجنـــان له كلاما طبعناه ولكن في الجنـــــان
وتلك صحيفـــــة غنت واغنت فما فضل الأغاني والغواني [٢٠]

ويبدو ان صيتها قد عرف بين النـــاس كمجلة لهـــا وزنها العلمي والادبي حتى صرنا نجد لها مشتركـــين في العراق ، وقد كان البريد منتظما بين هذه البلاد والبلاد السورية رغم ما كانت تشكو منه المجلة حيث جاء فيها « انه في السنة الأولى من نشر جرائدنا كانت ترد الينا تشكيات كثيرة من وكلائنا ومشتركينا في ولايات سوريا وحلب وأدنه وبغداد والبصرة وجدة . بسبب عـــــدم وصول الجرائد للمشتركين

(١٨) كذا في الاصل والمقصود هنا ، مسلمي) هذه المدينة .
(١٩) البيت مختل الوزن ويستقيم بوضع (في) قبل كلمة هـــذا .
(٢٠) انظر عدد (١٤) سنة ١٨٧٠ .

وصولا منظما . مع اننا كنا نبذل كل الجهد في ضبط تقديرها من الادارة وبعد الفحص المدقق . والملاحظة هنا وفي الجهات وجدنا أن السبب هو عدم ضبط مستخدمي البريد الذين كثيرا ما كانوا يسلمون الجرائد الى غير أصحابها أو يبيعونها أو يرسلونها الى غير مكانها » (٢١) .

وقد استطاعت المجلة — على ما يبدو — تفادي ذلك في اعدادها اللاحقة فكانت تطلب الى قرائها في الديار المصرية أو الأوربية مخاطبتها ليتسنى ارسال الجرائد اليهم رأسا من غير واسطة (٢٢) .

أما اتصال العراق بالصحافة المصرية فقد جاء متأخرا بالنسبة للصحف اللبنانية وجريدة الجوائب وربما كان السبب في ذلك هو عدم وجود حدود مشتركة بين القطرين الشقيقين . ولكن مع هذا فقد كان لمجلة المقتطف قراء في العراق قبل نهاية القرن التاسع عشر فقد جاء في عددها الصادر بتاريخ ١/٤/١٨٩١ وتحت حقل مسائل وأجوبتها ما يلي « بغداد داود أفندي فتو الصيدلاني : بعض الأدوية تأتي من أوربا حبوبا ملبسة بمادة بيضاء نقية صلبة وقد جربنا تلبيسها بطرق عديدة ولم نفز بالمطلوب فكيف يتم ذلك ؟ » (٢٣) . ومن المحتمل جدا أن تكون المجلة قد وصلت قبل هذا التاريخ بدليل ان هذا السائل كان يعرف فضل المجلة في النواحي العلمية فكان منه هذا السؤال ،

(٢١) الجنان عدد ١٣ سنة ١٨٧٢ ص ٤٣٣ .

(٢٢) انظر الجنان عدد ٢٤ سنة ١٨٧٢ ص ٨٢٩ .

(٢٣) مجلة المقتطف عدد ٧ سنة ١٨٩١ ص ٤٨٦ .

واستمرت أسئلته في الاعداد التالية حول موضوعات لا تخص مهنته . ومن ثم تتعدد الأسئلة بتعدد أصحابها . لتتحول الصحافة المصريه في بدايه هذا القرن الى أهم مصدر ثقافي للعراقيين . وصرنا نرى مظاهر الاحتجاج حينما تمنع صحيفه مصريه من دخول العراق . كالذي نشرته جريدة الرقيب حيث قالت : « قد ورد الامر للولاية من نظارة الداخليه عطفا على قرار شورى الدوله بمنع ادخال جريدتي الصاعقة والقاعدة المصريتين للولايات العثمانيه ولا ندري كيف سكت مجلس الامـــه عن هـــذه الاهانه التي هي أول أعمـــال الاستبداد والضغط على الافكار » [٢٤] . ويذكر الدكتور البصير ما للصحافة المصرية من أثر في ايقـاظ العراقيين وقيـــام ثورة العشرين في قولـه « منـــذ أن شبت نيران الثورة في القطر المصــري سنة ١٩١٩ وصلت جرائده طافحة بأخبار قطع السكك الحديدية واطـلاق العيارات النارية على الانكليز وتذكر الصحف كيف يهاجم الجنود الانكليز ، فانطبعت على السنتنا هـذه الكلمة : ان ابنـاء مصر يهاجمون المـدافع بقلوب من الفولاذ » [٢٥] .

وتتقدم وسائل المواصلات وينتظم البريد فتصل الصحف كل اسبوع ويطلع عليها الناس بسهولة ويسر فهذه جريدة الرقيب تقول . « وافانا بريد الشام هذا الاسبوع حاملا أول عدد من جريدة المقتبس

---

(٢٤) الرقيب عدد ١٦ سنة ١٣٢٥ هـ .

(٢٥) البصير — تاريخ القضية العراقية — ص ٧٦ .

الغراء التي طالما اشتاق القراء الى مطالعتها ... » [٢٦] .

وتتبادل مجلة العلم النجفية التي صدرت في نهاية العقد الأول من هذا القرن . أعدادها مع صحف كثيرة في شتى بقاع العالم . قالت : « كانت الصحف في كل اسبوع تنهال على ادارة العلم من كل فج عميق بين مجلة وجريدة ولايحة باللغات العربية والفارسية والتركية والهندية وقليل من الفرنسية والانكليزية بعدد يتراوح بين الخمسين والمائة . وكانت الادارة توزعها بين المكتبات العمومية ودور القراء وبين الفضلاء » [٢٧] . وتذكر المجلة في عدد آخر من اعدادها اسماء الصحف التي ترد اليها والبلاد التي تصدر فيها « ذكر الصحف المشهورة من الامصار المتمدنة التي وصلت الينا . وهي من الاستانة الحضارة والعدل ... ومن بيروت الاتحاد العثماني اليومي والرأي العام والاقبال والبشير والبرق ... ومن حلب التقدم ومن طرابلس الوجدان والاجيال ... ومن دمشق المقتبس ... ومن قاهرة مصر المؤيد اليومي والمنار والشمس ... ومن ايران أكثر جرائدها . ومن الهند الاخبار اليومية والحبل المتين ، ومن أمريكا الزمان ومن اليابان الاتحاد الاسلامي ، ومن فرنسا نهضة العرب . ومن ايطاليا السياسة المصورة ومن سنغافورة الوطن والاصلاح . ومن تونس مرشد الامة ومن

(٢٦) الرقيب عدد ٩٩ سنة ١٣٢٨ هـ .

(٢٧) مجلة العلم عدد ٢ سنة ١٩١٠ ص ٦ .

الجزائر كوكب افريقيا » [٣٨] .

وعلى هذا فاننا لا يمكن ان ننسى دور الصحافة كوسيلة ثقافية هامة في عصرنا الحديث . كما ان الصحافة العراقية لم تخلق من العدم بل وجدت أمامها مثالا يحتذى تأثرت به شكلا ومضمونا واخراجا . وهذا ما نلاحظه على الصحف الرائدة التي استفادت من الصحافة العربية أولا والصحافة العالمية بعد ذلك . لان هذا الاطلاع يؤدي الى مجال فكري أوسع وتبادل ثقافي يساعد على نمو الحركات العلمية .

وحينما كان بعض أدباء العراق يجدون صعوبة في نشر أدبهم في الصحافة العراقية كانوا يلجؤون الى الصحف العربية . فالرصافي كان كلما ضاقت به الصحافة العراقية أرسل انتاجه الى صحافة مصر ، ذكرت مجلة الوادي أن الرصافي « كان في العهد الاستبدادي الحميدي يشتاق الى حرية الصحافة ليصرح بما يعتقد ويقول ما يراه حقا . لذلك كان يرسل قصائده الى القاهرة فتنشر في المؤيد والمقتبس » [٢٩]. وكان المرحوم يوسف غنيمة يكاتب المجلات الشهيرة في مختلف الاقطار العربية وقد شرع بالكتابة الى المشرق سنة ١٩٠٤ ثم الى المقتطف بعد الحرب الاولى [٣٠] . وحينما كان العراق يضيق ببعض أدبائه بفعل الظروف السياسية فانهم كانوا يذهبون الى البلاد العربية الاخرى

(٢٨) مجلة العلم عدد ١ سنة ١٩١٠ .

(٢٩) مجلة الوادي عدد ١٥ سنة ١٩٥٩ .

(٣٠) انظر جريدة الزمان عدد ٣٩٣٢ سنة ١٩٥٠ .

ويصدرون صحفهم هناك . فجريدة العقاب مثــلا « صحيفة انشأها احرار العراق في سوريا ... وترسل منها كميات كبيرة الى العراق »[٣١]. وأصدر المرحوم ابراهيم حلمي العمر جريدة لسان العرب في سوريا ابان حكم الامير فيصل . وحينما تبدلت أحــوال العراق نقلهــا الى بغداد وجعل عددها متسلسلا مع الاعداد الاولى . وفي بعض الاحيان كان يستدعى بعض الصحفيين العرب للعمل في صحافة العراق . فجريدة الشرق العراقية « نهض لتحريرها رجل فلسطيني ممن تزودوا بالثقافة من الجامعة الامريكية في بيروت ... »[٣٢] .

وقد تولى بعض افراد عائلة البستاني الشهيرة في مجال الصحافة والادب العمل في بعض الصحف العراقية نذكر منهم سليمان البستاني فبعد أن اشتهر صيته « امتدت شهرته الى العراق . دعاه وجهاء البصرة لنشر جريدة فيها »[٣٣] . وهــــذا كله يدل على مدى ما للصحافة العربية من تأثير ثقافي في العراق فكانت بحق المصدر الاساسي والهام الى ثقافة العراق الحديث . وتطلعه الى مجالات أوسع .

يضاف الى هــذا ظهور بعض الحركات الاصلاحية التي كانت تظهر في فترات متباعدة في القرن التاسع عشر ، منهــا ما ذكره بعض

(٣١) بطي ـ الصحافة في العراق ـ ص ٥٦ .

(٣٢) ن . ف ص ٥٣ .

(٣٣) فؤاد طرزي ـ تاريخ الصحافة العربية ـ ج٢ ص ١٥٩ .

المؤرخين عن داود باشا الذي حكم العراق في الربع الاول من هـذا القرن . فقد كان هذا الوالي مصلحا ومثقفا ثقافة عاليةفي عصره . قام بأعمال اصلاحية لم يعهدها العراق من قبل فقد أحب العلم والادب وقرب الشعراء وأوجد حركة فكرية مهما تكن قوتها الا انها ذات تأثير لا ينكر في حد ذاته يضفي عليه الحسول « بعد تفرغ للعلم بعد ان نشأ نشأة علمية .. تثقف على أيدي العلماء الكبار ومنهم صبغة اللهالحيدري الذي أجازه في الاصول وتفسير البيضاوي وقرأ على شيخ القراء محمد آمين الموصلي . والنحو والصرف على المـلا حسين . ودرس التصوف والرياضيات . كما أجاز بعض التلاميذ وأهتم بالمدارس والمعاهـد والجوامع . وكثرت المدارس في عهده حتى بلغت ثمانية وعشرين معهدا كبيرا للتدريس ... » [٣٤] . وفي هذا ابرز دليل على من يذهب الى القول بخلو العراق من العلماء والادباء طيلة القرن الماضي وفي مختلف فروع المعرفة بل وكان هذا الوالي سببا في ظهور كتاب (دوحة الوزراء في تاريخ الزوراء) فقد ذكر مؤلفه رسول الكركوكلي : « آمرني من لا يرد له آمر بتأليف هذا الكتاب » والمقصود هنا هو الوالي داود باشا ويشرح المؤلف في مواضع مختلفة من هذا الكتاب الأعمال التي قام بها هذا الوالي . حيث ضرب بيد من حديد على المشاغبين وهدأت الفتن وتقدمت البلاد وعمها الرخاء والامن ... حتى انطلقت آلسن الشعراء

---

(٣٤) مجلة كلية الآداب عدد ٢ سنة ١٩٦٠ ص ٢٦٦ .

بمدحه والثناء عليه [٣٥] . وبعض المؤرخين ينسب اليه انشاء صحيفة ومطبعة كما سنلاحظ ذلك في فصل قادم . وقد تركت اعماله وما قام به من اصلاحات أثرها في عصره والعصور التالية اه .

وكذلك ظهر علم آخر له تاريخ حافل في الاصلاح ونعني به مدحت باشا الذي كان يكنى بابي الاحرار . فما كاد هذا الوالي يصل الى العراق «حتى أعلن عزمه على الاصلاح . ورغم فشله في كثير من خططه فقد جاء بالعجائب ووضع الحجر الاساسي لنهضة العراق في كثير من ابوابها فأكمل وزاد على الابنيه . واصدر جريده . واسس مصانع عسكريه ومستشفى ومأوى للأيتام . وبعض البلديات والمجالس الاداريه . وبنى المدارس فقد كانت نسبة المتعلمين من ابناء المدن نصف بالمائة فأصبحت بهمة المجدد الكبير من خمسه الى عشره بالمائة . ومن خططه انه اسس مدرسة ابتدائيـة مجانيه في كل قضاء . عدا المدارس الحربية . واسس أول مدرسة ثانوية للأولاد سنه ١٨٧٠ ... » [٣٦] وهي نهضة لا يمكن ان ينكرها أحد، أقل ما يمكن أن يقال فيها انها هيـأت النفوس للاصلاح ولو سـار الولاة الذين جاؤا بعده على خطته لتغير وجه العراق .

فاذا أضفنا الى هذا العامل الداخلي عاملا آخر لا يقل عنه أهمية وهو تجاور العراق وتركيا ، وسهولة انتقال العراقيين الى هذه البـلاد

(٣٥) انظر رسول الكركوكلي — دوحة الوزراء فى تاريخ الزوراء ص ٢٧١ .

(٣٦) جريده البلاد عدد ٩٧ سنة ١٩٣٠ .

باعتبارهم من رعايا هذه الدولة استطعنا أن نتوقع ما يمكن أن يكون لهذا من أثر ثقافي على العراق ذلك أن الدولة العثمانية وعاصمتها الاستانة كانت أكثر اتصالا بالعالم الخارجي من العراق وأكثر اتصالا بالثقافات الاجنبية والتي لا شك أنها انتقلت الى العراق كما انتقلت الى غيره . ثم ان كثيرا من العراقيين الذين كان لهم دور يذكر في النهضة كانوا يعرفون التركية وينقلون عنها الكثير من القصص والمقالات . بل ان المدارس العراقية كانت تدرس اللغه التركية كلغة رسمية . بالاضافة الى العربيـة يشهد بذلك ما ذكرته مجلة لغـة العرب حيث قالت : « وجدت في العراق بعد منتصف القرن الماضي ... ثقـافة رسمية . عليها صبغة الاساليب الغربية وللغة التركية فيها المقام الاول... ويحوي منهاجها شيئا من مبادىء العلوم الحديثة . مع علوم الدين ودروسا عربية ضئيلة تلك هي المدارس الاميرية العثمانية » [٣٧] .

ومثل هذا ينطبق على ايران . وذلك أمر طبيعي تفرضه طبيعـة وجود العتبات المقدسة في العراق بالاضافة الى عامل التجاور ، مما ادى الى الاتصال الثقافي والفـكري . بل إن كثـيراً من الايرانيين كانوا يتركون بلادهم ليعيشوا قرب العتبات المقدسة ؛ ويذكر بعض المؤرخين ان السيد كامل التبريزي وهو ايراني « أنشأ مطبعة حجرية جلبهـا من ايران سنة ١٨٦١ . وقبلها كانت مطبعة حجرية أخرى جلبت من ايران سنة ١٨٥٦ في عهد مشير العراق والحجاز محمد رشيد باشـا

(٣٧) لغة العرب عدد ١ سنة ١٩٢٦ ص ٢٠ .

الذي عرف بحبه للعلم والادب وفيها طبعت رحلات الآلوسي الكبير ابي الثناء » [٣٨] .

هاتان المطبعتان لا يمكن الا ان تكونا ذات شأن يذكر في تحريك الاجواء عن طريق ما تقومان بطبعه . وقد أبدى احد الكتاب مخاوفه مما سماه الاحتكاك الفارسي قال : « ولكني أظن ان الاحتكاك الفارسي وان نبه الشعور العربي الا ان يد الاستعمار استعملته لقضاء أغراضها ... انا لا نبخس حق الاحتكاك الفارسي ولا نرفض القول بأنه أحد المنبهات التي دعت العرب النجفيين يفكرون في مستقبل أمرهم » [٣٩] وهذا على ما فيه . اعتراف صريح بأهمية الاحتكاك بين الفرس والعرب منذ القرن الماضي وأثره على الثقافة في العراق .

وهناك مصدر ثقافي آخر حديث يتمثل في المدارس التي كانت تقيمها الجمعيات التبشيرية المسيحية في العراق على النمط الحديث ، وللغات الأجنبية فيها دور كبير مع اهتمام واضح باللغة العربية ، وقد تخرج من هذه المدارس كثير من رواد الصحف والأدب في العراق ، منذ بداية هذا القرن . نذكر منهم الأب الكرملي صاحب لغة العرب اذ لما بلغ الثامنة من عمره دخل مدرسة الاباء الكرمليين وبقي فيها الى الحادية عشرة حيث أدخل مدرسة الاتقان الكاثوليكي وبقى فيها مدة

(٣٨) مجلة الاثير عدد ٦ . ٧ سنة ١٩٤٥ ص ٣ .

(٣٩) مجلة النجف عدد ٤٣ ص ٣ .

درس الصرف على الشماس يوسف خيـاط • ثم عاد الى مدرسـة اللاتين الكرمليين وهنا تلقى مبادىء الفرنسية [٤٠] • ومن خريجي هذه المدارس المعلم داود صليوه صاحب جريدة صدى بابل التي ظهرت في العقد الاول من هذا القرن والاستاذ السمعاني صاحب جريدة الزمـان المشهوره ويوسف عبسه صاحب جريده السياسه الذي « اغترف من خير ثقافة عصرية هيأتها عاصمة الرافدين حينـذاك . فألم بالفرنسيه والانكليزية حتى آخذ يكاتب المجلات الشهيرة في مختلف الاقطـار العربية . فشرع بالكتابة الى المشرق سنه ١٩٠٤ وكان أول بحثـه مترجما عن الانكليزية يتعلق بمولد براهما الهنود » [٤١] • كل هـذا يدل على ان هذه المدارس كانت تؤدي خدمة كبيرة منذ النصف الثاني من القرن الماضي •

ويذكر الاستاذ انور شاؤل صاحب مجلة الحاصد البغدادية أن للجالية اليهودية في بغداد مدارسها الخاصة بها . يتولى التدريس فيها اجانب جيىء بهم من فرنسا تحت اشراف جمعيات يهودية مهمتها تثقيف الجاليات اليهودية في كل قطر يكثر فيه اليهود [٤٢] •

---

(٤٠) انظر مجله لغه العرب عدد ١ مجلد ٧ سنة ١٩٢٩ ص ٦١.

(٤١) مجلة الجزيرة عدد ١٢ سنة ١٩٤٧ ص ١٣ .

(٤٢) لقد اعتمدنا على الصحافة فى اهميـة المدارس الدينيـة التبشيرية . وهناك تفصيلات اخرى فى كتاب الاستاذ ابراهيم الوائلى

5-12-2006

تلك هي مصادر العراق الثقافيه في القرن التاسع عشر ، وهي مصادر حديثه . يرافق هذا كله مصدر آخر يبدو أنه كان بعيد الأثر يتمثل في الدراسات التقليديه التي كانت تقام في الجوامع والمعاهد الملحقة بها . تخرج منه عدد كبير من الشعراء والادباء. ومنهم شخصيات لامعه في الأدب العراقي الحديث . نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر الشيخ علي الشرقي الشاعر العراقي المشهور الذي تلقى علومه في تلك الحلقات قال . « بدايه حياتي الأدبيه تلمذه على نوادي شيوخ الادب وعرافه وقادته . كانت هذه النوادي ملأى بشيوخ لهم وزنهم الأدبي وقيمهم الأدبيه . عليهم تلمذنا . ويؤسفني ان هذه النوادي قد خلت الآن من هذه الصفوه . وللنجف في ذلك العهد أثر عظيم على الشعر فهي بيئة للأدب . ليس هناك اسناد بعينه نلقيه عنه . وانما هناك محافل وأندية . منها انديه تكاد تكون دائمة . وهي الحلقات التي كانت تنعقد في بيوت بعض قادة النهضة الادبية في النجف ... ففي هذه الحلقات كان الشباب يشارك ويتعلم » [٤٣] . والشيخ الشرقي يتحسر على تلك الحلقات لما تمتاز به من جدية وسرعة في تخرج الأدباء .

ويذكر الاستاذ الدجيلي الذي كان يحرر في مجلة لغة العرب أن ادب القرن الماضي كان اقوى من ادبنا الحاضر لان الادباء كانوا

(الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر) فمن اراد المزيد فعليه بقراءه هذا الكتاب .

(٤٣) جريده البلاد عدد ٥١٥٧ سنة ١٩٥٧ .

يولون الأدب كل حياتهم حيث يقول : « انني لأتذكــر أوائل ايامي حينما كنت أجالس بين الفينة والأخرى بعض كبار العلماء والادباء في صحون مراقد الأئمة في النجف وكربلاء والكاظميه فأنال العلم الغزير من مجالسهم في وقت قصير . وكذلك كان لترددي في بغداد على مدرسة العلامة السيد محمود شكري الآلوسي . ومجلس عبد الرحمن النقيب ودير الاب الكرملي » [٤٤] ومن هذه الزمرة الاستاذ فهمي المــدرس الذي عمل في الصحافة والتعليم فترة طويلة وقل مثل هذا في الشيخ رضا الشبيبي والشيخ باقر الشبيبي وغيرهم . ولم يكن هذا فحسب بل ان هذه الدراسات كانت منتشرة في اكثر المدن العراقية . وهنــاك بعض الزعماء الذين يهتمون بالادب ويولونه عنايتهم . يذكر الشيخ محمد رضا الشبيبي « ان ســلطة الاتراك كانت محدودة على الاكثر بحدود الحواضر العراقية الكبرى كبغداد والموصل . وأما السلطة الفعلية في الارياف الداخلية فكانت بين أمراء القبائل وزعماء المــدن أما القرى الصغيرة فــلم تتأثر سجاياهم بما كان لحكامهم من عادات وثقافات ولهذا بقيت لغة التعليم فيما بقي من معاهد الدراسات القديمة في بعض حواضر المدن كبغداد والنجف والحلة . وهي معاهد أهليــة بحتة كانت معنية بدراسة العربية لغة وثقافة .. » [٤٥] .

---

(٤٤) البلاد عدد ٤٣٢٩ سنة ١٩٥٥ .

(٤٥) الزمان عدد ٣٨١٤ سنة ١٩٥٠ .

ومن ثم يبدأ الشيخ الشبيبي بذكر اهم الاعلام الذين عاشوا في القرن الماضي ، الامر الذي يدل دلالة قاطعة على ان العراق لم يكن يعيش في دور سبات ثقافي في القرن الماضي كما ذهب الى ذلك بعض المؤرخين في الأدب أو السياسة .

الفصل الثالث

تاريخ الصحافة العراقية

تاريخ الصحافة العراقية تاريخ ممتع يغري المرء بمطالعته لما فيه من جوانب تعكس الى حد بعيد طفولتها الاولى قبل أن تصبح فنا له أصوله وكيانه . وعلى الرغم من تسلط السياسة وجبروتها وخضوع الصحافة لهذا السلطان الا أنها كانت مع ذلك تجد فترات متقطعة تستطيع أن تظهر بها على حقيقتها لتؤدي دورها الحقيقي في التعبير عن الصالح العام . ومشكلة تسلط السياسة هذه مأساة لا ينفرد بها العراق فحسب بل هي ظاهرة عامة نجدها في كثير من بلادنا العربية، وقد تركت آثرها على الانتاج الفكري والادبي وخنقت الكثير من الافكار والآراء التي يشتم منها رائحة المخالفة للنظام القائم . وحرمت الصحافة والأدب من الجو الصالح الذي لا يمكن ان يكون بغير الحرية يذكر طه حسين في مقالة له تحت عنوان « محنة الأدب في ظل الاحكام العرفية » يتعرض فيها لهذه النقطة بالذات ويبين أسباب الركود الادبي في مصر بقوله « ان أول هذه الأسباب يأتي من ظروف السياسة ... بحيث نستطيع أن نقول غير مسرفين اننا حرمنا الحرية اكثر من

خمس عمره سنه في أقل من ربع قرن . والحرية قوام الحركة الادبية ، فاذا ذهبت ذهب الأدب وعقم المفكر مافي ذلك من شك . وقد قال نابليون ذات يوم : ليس لنا أدب جيد وبعه ذلك على وزير الداخلية .... فالأديب يكتب لكي يقود الناس ... وهذا لا ينشر حين يتحكم في نشره الرقيب فهو يحضر على الناس مالا تحبه الحكومة » [1] .

وقد ذهب الدكتور حمزة الى أن العيب الذى يوجه الى الصحافة ناجم عن كونها تعبر عن رأى الحكـومات أكثر من تعبيرها عن راي الشعوب [2] .

وفي هـــذا كله نعمم لأنـــه تحصر الأدب في دائرة ضيقة هي دائرة السياسة ومفهوم الحرية يختلف باخـــتلاف الأفراد والجماعات ، وبخاصة في بلاد لا تزال في طور النمو تحتاج الى حياة موجهة ، وسوف نلم بهذه النقطة في فصول قادمة .

وتاريخ الصحافة العراقية ينقسم الى أدوار طبقا للظروف السياسية التي مرت بها البلاد . دور الحكم التركي ، ثم الاحتلال ، ودور الحكم الاهلي . ليأتي بعد ذلك دور الحكم الجمهوري ، غير ان هذه الادوار متداخلة ، كل دور منها يفضي الى الآخر ، ولا مجال للطفرة رغم تغير الظروف السياسية . فكثير من الصحفيين الذين عملوا في هذا الحقـــل عاشوا في أكثر من عهد واحد . والتطور الذي أصاب الصحافة بعـــد

(١) جريده الاهالي عدد ٦ سنة ١٩٥٢ .

(٢) انظر مستقبل الصحافة ج ١ ص ٢١ .

هذا تطور طبيعي بفعل انفتاح العراق على العالم الخارجي وتطلعه على مصادر ثقافية مختلفة .

والمعروف تأريخيا آن العثمانيين حكموا العراق بعد انحسار موجة المغول التي اكتسحت العراق منذ النصف الثاني من القرن السابع الهجري بعدأن قضت على الخلافةالعباسية في بغداد . وبهذا أصبح العراق تحت سيطرة حكم همجي لا يقيم وزنا للثقافة والعلوم . غير ان هؤلاء المغول — على ما تذكر المراجع التاريخية — لم يستمروا في وحدتهم إذ سرعان ما دب اليهم الضعف وانقسموا الى دويلات صغيرة نجم عنها في النهاية « دولتان حلتا محل المغول وهما دولة بني عثمان في الشمال والدولة الصفوية في بلاد فارس فكان العراق مرة لهؤلاء ومرة لاولئك حتى استخلصها العثمانيون بعد انحلال الدولة الصفوية وظل كذلك الى الحرب الكونية الاولى » [٣] .

وفي هذه الفترة دمرت معالم الحضارة وانطوت النفوس وفترت العزائم واخذ الناس يتلهون بالتوافه من الأمور فذوت الحياة العلمية وتقلص ظلها واستمر كذلك حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر حيث بدت أولى بوادر النهضة لا كما ادعى بعض المؤرخين من أن العراق كان منعزلا عن العالم الخارجي حتى نهاية الحرب العالمية الاولى وقد وقفنا على ذلك في الفصل السابق .

ففي نهاية العقد السابع من القرن التاسع عشر ظهرت بوادر حركة

(٣) جريدة الزمان عدد ٣٨١٤ سنة ١٩٤٩ .

اصلاحية لكنها لم تستمر طويلا . وذلك حينما عين مدحت باشا واليا على العراق . فقد قام هذا الوالي باصلاحات لم تعهدها البلاد من قبل نذكر منها قيامه « بتأسيس مدرسة للصناعة . ومد خط ترام بغداد الكاظمية ومعمل لسد حاجات الجيش وحوض لاصلاح السفن التجارية والمستشفى الملكي وبعض المدارس الاعدادية » (٤) .

فكانت هذه الاصلاحات بادرة جديدة غير انها لم تستمر طويلا فقد خفت صوتها بعد نقل هذا الوالي المصلح . وأهم من هذا كله ما قام به في ميدان الصحافة والطباعة . ذلك ان هذا الوالي كان أول من أصدر صحيفة في العراق سنة ١٨٦٩ في السنة الأولى التي عين فيها . فقد كان متشبعا بروح الثورة الفرنسية وحركة الاصلاح . قضى في باريس فترة وهو يعمل كسفير لبلاده . وحينما نقل الى بغداد أخذ « يتهيأ ويدرس واصطحب معه جماعة من رجال العلم لتشغيل جهاز حكومته الجديدة وقد وجدنا بينهم مدير مطبعة ورئيس تحرير وآليا للمطابع ، وبعد ايام من وصوله أسس مطبعة الولاية وهي أول مطبعة آلية في العراق جلبها من باريس وكانت راقية تدار بالبخار » (٥) .

لقد كان ظهور هذا الوالي في هذه الفترة بالذات بشير خير للبلاد غير أن الاوضاع العامه داخل العراق وفي الدولة العثمانية

---

(٤) جريدة البلاد عدد ٤٧٢ سنة ١٩٣٥ .

(٥) مجلة منير الاثير عدد ٦ - ٧ سنة ١٩٤٥ .

ذاتها لم تكن مستعدة لأمثال هذه الاصلاحات . فكانت الأوضاع السياسية في الدوله والفتن الخارجية عقبات تحول دون استمرار هذه الاعمال ؛ يذكر الاستاذ أحمد أمين أن مدحت باشا كان من زعماء الاصلاح الحديث ولكنه « جاء والدنيا مدبرة عن الدولة العثمانية والمملكة تنتقص من أطرافها ويدب الفساد داخلها ... في هذه الاجواء عاش مدحت باشا »[٦] .

ذلك هو المعروف بين اكثر المؤرخين أن مدحت باشا هو أول من أنشأ مطبعة وجريدة في العراق . غير ان الاستاذ روفائيل بطي ينقل عن مجلة المؤرخ لصاحبها رزوق عيسى أن هذا الاخير يستشف من كتب بعض الرحالة الافرنج ان داود باشا الكرجي وزير العراق المعروف قد أسس عندما تقلد الحكم في مدينة السلام سنة ١٨١٦ صحيفة باسم (جورنال العراق) كانت تطبع بمطبعة حجرية باللغتين العربية والتركية وتذاع فيها وقائع القبائل وأنباء القطر العراقي وأخبار السلطة العثمانية وقوانين البلاد وأوامر الوالي وكانت توزع على قواد الجيش وأعيان المدينة وتعلق منها نسخة على جدران دار الامارة ليطلع عليها الجمهور[٧] . ونحن وان كنا لم نجد أثرا لهذا الخبر في مصدر آخر فالمعروف عن هذا الوالي انه كان اول مصلح في تاريخ العراق خلال القرن التاسع عشر وقد وقفنا على بعض أعماله ونحن

(٦) احمد امين . زعماء الاصلاح في العصر الحديث — ص ٢٦ .

(٧) انظر مجلة منير الاثير عدد ٣ سنة ١٩٤٥ ص ٣ .

ندرس مصادر ثقافة العراق ولا يبعد أن يكون أول من أسس جريدة في العراق وان كنا لم نعثر على نسخة من هذه الجريدة غير أن هـذا في حد ذاته لا يشكل سندا يسكن معـه نفي صدورها لاننا لم نعثر على كثير من الصحف التي صدرت حديثا . فكيف يكون الامر مع جريده صدرت في الربع الاول من القرن التاسع عشر .

ولجريدة الزوراء — وهي أول جريدة صدرت في العراق — قصه طريفة وممتعة وذلك من حيث الفترة التي وجدت فيها . والاسلوب الذى كانت تعبر به والعصر المديد الذي عاشته . فقد صدرت سنة ١٨٦٩ في بغداد واستمرت في الصدور مدة تسع واربعين سنة الى ان احتل الجيش الانكليزي مدينة بغـداد سنة ١٩١٧ حيث توارت عن الانظار وبلغ مجموع ما صدر منها ٢٠٤٩ عددا . ذلك هو ما اتفق عليه أغلب المؤرخين . ودل عليه العدد الاول الذي استطاعت وزارة الارشاد العراقية الحصول عليه في نهاية السنة الماضية وأعادت طبعـه جريدة الجمهورية البغدادية بمناسبة العيد المئوي للصحافة العراقية فهو يحمـل تاريخ الخامس من ربيع الاول سنة ١٢٨٦ هـ الموافق ٣ حزيران (يونيو) سنة ١٢٨٥ غربي ، وهـذان التاريخان يقابلهما سنة ١٨٦٩ بالميـلادي .

ولم نحصل على مجموعة كاملة من هذه الجريدة فقد عبثت بها يد الاقدار ، ويبدو أنه كان منها عدد لا باس به ولكنـه فقـد بمرور الزمن ، وقد ذكر الاستاذ رزوق عيسى في مجـلة الحرية « ان في

خزانة الكتب في دير اللاتين خمس مجلدات لعشرة أعوام من الزوراء وفيها من النبذ التاريخية النفيسة ما لا توجد في مصحف من مصاحف التاريخ العراقي . . . وان القيود القديمـــة لهذه الجريدة كانت قد احترقت » [٨] . وتحتفظ مكتبة الآثار العراقية بأكثر من مائة عدد وهي الاعداد الأولى من هذه الجريدة .

وقد كانت جريدة الزوراء منذ صدورها تنشر باللغتين العربية والتركية واستمرت على هـــذا المنوال حتى اعلان الدستور العثماني فغيرت خطتها بسبب ظهور النزعة العنصرية لدى الاتراك فأصبحت تصـــدر بالتركية فقط . الامر الذي أثار حفيظة أهالي بغداد فعـــادت الى سيرتها الاولى كما ذكرت مجلة لغة العرب [٩] .

وقد جاء في صدر كل عدد من أعدادها مايلي « هـــذه الجريدة تطبع في الاسبوع مرتين يوم السبت والثلاثاء وهي حاوية لكل نوع من الاخبار والحوادث الداخلية والخارجية » وفي العدد الاول منها صورة الفرمان العالي بتولية مدحت باشا ولاية بغداد نقتبس منـــــه بعض الجمل لنقف على اسلوبها « دستور مكرم مشير مفخم نظـــام العالم مدبر امور الجمهور بالفكر الثاقب . متمم مهام الانام بالرأي الصائب . ممهد بنيان الدولة والاقبال. مشيد أركان السعادة والاجلال المحفوف بصنوف عواطف الملك الاعلى من أفاخم وكـــلاء دولتي

---

(٨) مجلة الحرية عدد ٦ - ٧ سنة ١٩٢٤ .

(٩) انظر مجلة لغة العرب عدد ٣ مجلد سنة ١٩١٣ .

العليـــة ... » [١٠] .

وعلى هذا النمط يستمر الفرمان . وكله ألفاظ فضفاضة وسجع متكلف يضيف هالة قدسية على هذا الفرمان العالي وعلى من أصدره ، يلي ذلك خطبه الوالي نفسه ومنها « هذا الفرمان الجليـــل العنوان الصادر من لدن حضرة مولانا السلطان . حكمه العالي فهمه من يعـــلم اللغة التركية ، فيلزم على من علم ، أن يفهم من لم يفهم ، نخبةمقاصد ولي نعمتنا وسلطاننا الجليلة ان جميع من هو تحت ظل رايته وعدالته من الملل المسلمة وغير المسلمة ذكور وإناث [١١] . فرداً وجمعاً متفرقاً ومجتمعا استكمال رفاهيتهم ومحافظة راحتهم وازدياد ثروتهم هــــو المقصود بالذات ومأمورين الدولة العلية أول دين هو في ذمتهم خدمة هذه الوظيفة ... » .

ولا حاجة للتعليق على الركاكة الظاهرة في هذه الجريدة وصعوبة فهم المراد منها ولهذا مجال آخر .

ومن خلال الاعداد التي بين ايدينا والتي احتفظت لنا بها مكتبة الآثار نلاحظ أن اهتمامها الاول كان ينصب على الأخبار الداخلية التي تخص ولاية العراق وذلك تحت حقل (مواد خصوصية) ويشمل هذا الحقل اعمال الوالي واصلاحاته وتنقلاته واخبار اللصوص وقطاع الطرق الذين أولتهم عناية خاصة لكثرتهم حينذاك « حسبما استبان من الأخبار

(١٠) جريدة الزوراء عدد ١ سنة ١٢٨٦ هـ .

(١١) هكذا فى الاصل والاخطاء كثيرة لن نشير اليها فى المستقبل .

الرسمية أن مقدار حسين نفر من آشقياء ايران الـذين هم من طرف المحمرة احدى الممالك الايرانية الواقعة في مقابلة البصرة قد عبروا شط العرب ليلاً وداسوا آدان سومات (ابو الخصيب) وجرحوا مأموريها وأخذوا الاموال الرسومية وهربوا أما الأشقياء الموجودين في المحمره المذكورة فانهم قبل هذا في أثناء تشريف الشاهي الى هذا الطرف كانوا قد فعلوا هكذا تجاوزات ووقوعـات وهجموا على ادارة رسومات الدواسر وجرحوا بعض المأمورين وأخذوا الاموال الرسومية ومضوا حتى دالك الوقت كانت التبليغات اللازمه في خصوص تأديبهم قد تبدت للحكام الايرانية لكن ما رأى دلك من ثمره » (١٢) •

وهنا تختلط العامية بالفصحى فتتداخل تداخلا غريبا حتى ليتعذر على البعض فهم ما يريد آن يقوله هذا الكاتب • اننا لنحس في هـذه الأساليب قلقاً فكرياً هو الذي يمنع صاحبه من الابانة والوضوح •

وقد كان للزوراء مراسلون في بعض مناطق العراق المهمة فقـد جاء في احد اعدادها هدا الاعتذار من مخبرهم المخصوص كما تقـول الجريدة « هـذا المكتوب الوارد من مخبرنا المخصوص في البصرة : منذ مدة ما حررت لكم مكتوب حيث أن الحوادث مفقودة ، فأنا اعرف نفسي أنكم تعـذروني وآنا أفتخر باشـعار الحـوادث التي اسمعها وأراها » (١٣) • يعتذر من قلة الاخبار ، كأن الحياة تخلوا من الحوادث

(١٢) الزوراء عدد ٢٤٧ سنة ١٢٨٨ هـ •

(١٣) الزوراء عدد ١٧٧ سنه ١٢٨٨ هـ •

والمشاكل . جذب فكري او قلق نفسي ينأى بالانسان عن خلق صور حية ناطقة حتى ولو كانت الاخبار معدومة كما يقول .

كما كانت الزوراء تفتح صدرها لرسائل المواطنين وتعرض مشاكلهم الأمر الذي يدل على انتشارها بين مثقفي ذلك العصر . وانها في كثير من الاحيان كانت تحدث صدى بين قرائها نتيجة فكرة عابرة أو خبر مؤثر « هذه الورقة الواردة لمطبعتنا باسم التاجر الحاجي عبد الحميد جلبي : بناء على أن محبكم متوغل في قراءة جريدة الزوراء، بينما كنت اطلع على العدد ١٤٣ من نسختها اذ لاح لنظري فيها بحثان فحصل لي من قراءتهما مزيد المسنونية ومزيد السرور فأما البحث الاول منهما فانما هو مادة سوق العساكر المنصورة السلطانية الى منطقة نجد ، وأما البحث الثاني فانما هو ضبط قطعة العسير مع كمال اليسر والاتيان بها الى قبضة الشيخ وذلك من همة العساكر السلطانية التي لا زلنا نرى بسالتها الغظنفرية بعيون الافتخار . فلما طالعت هاتين الفقرتين سنح لخاطري العاجز مادتين (كذا) وحسب محبتي الكلية للوطن والملة ، فقد صرت مجبورا على تحريرها وارسالها الى مطبعتكم ودرجها فى جريدتكم المعتبرة حتى توضح لدى أنظار أولي الأمر » [١٤] أسلوب لا بأس به يندر أن نعثر على امثاله في جريدة الزوراء ، فهو يكاد يخلو من الأخطاء النحوية يفهم بسهولة ويسر وان كان الاطناب هو الميزة الظاهرة عليه لأنه من الممكن ان تعرض هذه الفكرة بسطرين أو ثلاثة .

(١٤) الزوراء عدد ١٥١ سنة ١٢٢٨ هـ .

لقد تناولت الزوراء موضوعات هامة وعالجت مشاكل ملحة يبدو أنها كانت تشغل بال الكثيرين ممن يحسون بوطأة الجهل وتفشي الامية في الولاية كقول احد كتابها « سبحان الله العظيم لا زلت أرى واسمع واطالع من صحائف الزوراء بحثا تكرره وتلهج به من فقدان المعارف في بلادنا وتدني العلوم فيها وعدم الرغبة من كل أحد . وان المكاتب الابتدائية قد بقيت معطلة مذبذبة في ايدي الجهلة من الذين ليسوا بأهل سوء الجهل . الناصبين حبائل الرزق على ابواب دكاكينهم المشغولين في تحرير العرضحالات والذين قد انزووا في زوايا المساجد، الذين كل مسهم جاهل بسيط . ومن التأسف على بقاء أولادنا في يد العمى والغباوة الى غير ذلك من الطرق التي لا زالت الزوراء تظهرها حتى أن الأهالي يظنون معنى المثل المشهور وهو : الجنون فنون ، ان الذي يعرف الفنون فهو مجنون . فترى المدارس دوارس والدرس مدروس والعلم مفقود وطريق التعليم درب مسدود ، وأما الفنون فانها مثل الفقاعة اسم من دون جسم . لاعين لها ولا أثر ولا رسم ، فماذا بكت الزوراء على بغداد وناحت عليها ووعظت أهلها ونصحتهم فلا لوم عليها بحسب الغيرة الوطنية والمحبة الملية » (١٥) .

وبالاضافة الى حقل مواد خصوصية ، هناك حقل آخر تحت عنوان (مواد عمومية) وتعني بذلك الاخبار المتعلقة بالدولة العثمانية ، وتعتمد فيه على الصحف التركية التي تصل الى بغداد في الاستانة

(١٥) الزوراء عدد ٢٢٢ سنة ١٢٨٨ هـ .

لتترجم عنها وبخاصة صحف دار السعادة ، وتغلب على هذه الترجمــة الركاكة المقوتة التي تفوق ما وقفنا عليه حتى الآن كقولها « الآتي هو مترجم من الجريدة المسماة (تايمس) التي هي ترجمـــان افكار دولة انكلترا . وقد شاهدناه ورأيناه في جريدة دار السعادة ، ولما كان هذا البند لايقا للدقة والمطالعة فقد درجناه عينـــا ! من يوم جلوس المانوس من ذات الحضرة الشاهانة أن ترقي افكار العامة في التركستان هي معلومة لدى ارباب الدقه حتى ان عهد قامة في أثناء انعقادهـــا وان كان كل أحد في أوربا قد شاهد الشروط التي وضعت عـــلى الروسية لكن هذه المعاهدة المذكورة دا جلبت دقة أحد في انها هي نافعة للتركستان فقط ان الاجابيني [١٦] الذين في التركستان كانوا يرون معاونة الدولة الغربية لكنما عظمة ملتهم حالا لما كانت تخدش خواطرهم . فقيام أوربا بحماية التركستان كأنما كان قد أتى عليهم ثقيلا وان روسيا حال كونها كانت مغلوبة فقـــد استوجب زيادة أسفهم » [١٧] .

لا يستطيع أحد أن يفهم معنى هذا مهما أوتي من الدقة والصبر اللهم إلا اذا قابله بالنص التركي .

أما اهتمامها بالشعر فيبدو انه كان ثانويا بدليل ندرة ما فيهـــا من هذا الشعر وربما يعود السبب الى قلة احتفال الشعراء بالصحافة

---

(١٦) هكذا في الاصل .

(١٧) الزوراء عدد ١٢٧ سنة ١٢٨٧ هـ .

أو لانهم كانوا ينظرون اليها نظرة ازدراء . كل ما في هـذا الشعر قصائد قيلت في مدح الوالي أو ازجاء التهاني في مناسبة من المناسبات من ذلك ما جاء في أحد أعدادها وفيه المقدمة التالية « هذا التاريخ في فتح نجد الذي جاد به طبع صاحب السعادة السيد أحمد أفنـدي رشدى زاده من مخبري علماء الجعفرية ومن كبار المجتهدين :

بـدا نور ظـل الله يشـرق كالصبـ
ح فطبق وجه الارض بالعـدل والنجح
مليك على العـرش استوى ولعـزه
جميع ملوك الارض تعلن بالمـدح
ارادتـه العظمى نافـذ حكمـه
لقـد صدرت كي يـدل الغي بالصلح
الى مدحت المولى الوزير الذي غـدا
لسيده ما اختـار شيئا سـوى النصح
من افتض بكـر الفكر في طلب العـلى
فجـاءته سعى غـير طاوية الكشح
وزير عـلى متن الوزارة قـد رقى
أحاط بهـا خير من احتاج للشرح (١٨)

وهناك قصائد أخرى منبثة في ثنايا بعض أعدادها لا تعدو هـذا العرض وكله شعر تغلب عليه الركاكة والعجمة .

(١٨) الزوراء عدد ١٥٨ سنة ١٢٨٨ هـ .

هذه هي جريدة الزوراء الرسمية وهي الجريدة البكر في العراق وقفنا على نماذج مختلفة مما كتب فيها ، وهي تعكس لنا المرحلة التي كانت تعيشها البلاد حينذاك ، وكيف ان الجهل كان يخيم على أكثرية الناس حتى وصل بهم الحال الى درجة كانوا يجدون معها صعوبة في ايجاد كاتب يستطيع أن يحرر في جريدة عامة تنشر في البلاد ، ولقد كان اسلوبها هذا مثار انتقاد شديد من بعض الصحف العربية ، فقد ذكر صاحب المقتبس الدمشقية عن جرائد الولايات العثمانية — والزوراء منها — كلمة يشير الى الهوة التي انحطت اليها هذه الصحف « كل شيء آخذ بالنمو والنشوء في هذه الديار إلا جرائد الولايات العربية الرسمية فانها كلما طال عليها الزمن تنحط مكانتها لانها كانت ولا تزال تقدس اعمال الولاة وتزكيهم إلا قليلاً ، وجرائد هذه حالها كيف يرضيك خبرها ومخبرها . للحكومة العثمانية اثنتا عشرة ولاية عربية تصدر فيها أحدى عشرة جريدة رسمية هي طرابلس وبيروت ودمشق وبغداد والموصل تنشر باللغتين الأولى لغة الحكومة ، والثانية لغة البلاد ، والعربية منقولة عن التركية بالحرف . ولكنه نقل لا نقدر أن نقول عنه عربيا ولا مولدا وأحر به أن يكون لغة خاصة يكاد لا يفهمها الا قليل ممن ألفوها أو ممن يفهمون التركية ، فاذا عسر عليهم فهم عبارة قلبوا الوجه التركي من الجريدة فقرؤا الاصل لينحل معهم الاشكال ... ولو كانت منتشرة بين القوم انتشار الجرائد العربية لافسدت (كذا) من

ملكة الأدب العربي فساداً لا يشبهه فساد ولكن من حسن الحظ أن قراءها محصورون أو يكادون يعدون على الاصابع » [٣٠] ولم يكن صاحب المقتبس هو الوحيد الذي انتقد هذه الصحف فقد نقل عن الاب الكرملي قوله « وأما مواضيع الزوراء فلا تستحق الذكر ، وا أسفاه على مدينة بغداد ان تكون جريدتها الرسمية بهذه الصورة الدنيئة» [٣١] .

وهناك جريدتان رسميتان آخريان بالاضافة الى الزوراء ، صدرت احداهما في الموصل سنه ١٨٨٥ . والاخرى في البصرة وصدرت سنة ١٨٩٥ واستمرتا في الصدور حتى الاحتلال الانكليزي لهاتين المدينتين . ولم يذكر عنهما أحد شيئا ويبدو أنهما لم تكونا ذات بال في الحياة الصحفية .

تلك هي الصحف الرسمية التي كانت تصدر في مراكز الولايات الثلاث : بغداد والموصل والبصرة . واستمرت في الصدور حتى الحرب العالمية الاولى وكان الى جانبها ثلاثة صحف أخرى غير رسمية صدرت قبل اعلان الدستور العثماني وهي اكليل الورد « دينية شهرية أصدرها الآباء الدومنيكان في الموصل الحدباء ، بقيت نحو ستة أعوام وتوقفت بعد اعلان الدستور . عالجت الموضوعات العلمية والبحوث الدينية والطائفية التي انشئت من أجلها » [٣٢] . ومثل هذا كانت صحيفتا

(٣٠) مجلة المقتبس عدد ٣ سنة ١٩١٠ .

(٣١) روفائيل بطي — الصحافة في العراق ص ١٧ .

(٣٢) الحسني — تاريخ الصحافة العراقية — ص ٢٥ .

زهيرة بغداد والايمان والعمل والتي كانت تصدرها المنظمات التبشيرية في العراق لغرض ديني ولم نعثر على شيء من هذه الصحف .

وتقفز الصحافة العراقية قفزة كبيرة لم تتهيأ لها وذلك بعـد اعلان الدستور العثماني . فقد هيأ هذا الدستور الحرية للمواطنين لا في داخل الدولة العثمانية فحسب بل في الاقاليم التابعة لها كذلك ، فتنسم الناس الحرية وأقبلوا بشغف كبير على اصدار الصحف يعبرون فيها عن آرائهم وافكارهم ، وانطلقت الاقلام تعالج المتطلبات الملحة التي تقتضيها طبيعة الفترة . فظهر على أثر ذلك فيض غزير من الصحف لم تعهده البلاد من قبل . ويذكر الاستاذ خير الدين العمري « أن بعض الصحف العراقية في العهد العثماني حاولت أن تنهض بشيء من العمل النافع فلم تفلح لان القراء كانوا أميين فلم تنجح الصحافة في العهد العثماني أي نجاح »(٢٣) قد يكون هذا الاطلاق صحيحا قبل اعلان الدستور العثماني اما بعـد اعلان الدستور فانه تعميم لا يؤيده الواقع . ذلك ان صحفا معينـة سنقف عليها بعد قليل استطاعت أن تثبت وجودها فتؤدي خدمة أدبية وعلمية للبلاد لا يمكن ان ينكرها أحد ، نعم لقد صدرت صحف عديدة في العراق بلغ عددها في أقل من سنة واحدة نيفا وخمسين صحيفة في مختلف الموضوعات (٢٤) ، لكن مات أكثرها ولم يبق منها الا القليـل والصحفيون الذين استمروا في اصدار صحفهم — على قلتهم — داهمتهم

---

(٢٣) بطي — تاريخ الصحافة في العراق — ص ٣٧ .

(٢٤) انظر الثورة العراقية الكبرى — الفياض — ص ٥٨ .

الحرب العالمية الاولى فانقطعوا عن العمل • والظاهر ان هذه الحريـة التي هيأها الدستور العثماني الجديد سهلت لاشباه العوام فرصـة اصدار هذه الصحف فكانوا مثلا سيئا ترك أثره في النظرة الى الصحافة ذاتها . ويذكر الاستاذ روفائيل بطي ان كثيرا من اصحاب هذه الصحف كانوا يتطاولون الى مقامات العلماء وتسلق مقاعد الكتاب والادباء وانهم جعلوها واسطة تعيش وارتزاق (٢٥) •

غير ان تلك الصحف لم تلبث ان ماتت . وخلفتها صحف كتب لها البقاء نذكر منها جريدة الرقيب لصاحبها عبد اللطيف اثنيان ؛ وجريدة صـــــدى بابل لصاحبها المعلم داود صليوه . ومن المجلات مجلة العلم لهبة الدين الشهرستاني ومجلة لغة العرب لصاحبها الأب انستاس ماري الكرملي وسنقف عليها عند الكلام على اللغة والصحافة •

أما جريدة الرقيب فكانت مثـال الصحيفة التي وضعت لنفسها خطة لم تحد عنها . تذكر المسيء وتقبح فعله مهما كان شريفا عالما غنيا وتذكر المحسن وتقدر احسانه . واتخذت من الصراحة وسيلة الى كثير من كتاباتها . ولا تنشر الا ما يلائم خطتها وتعتذر عن نشر كل مايخالف ذلك • وقد جاء في الاسباب الموجبة لاصدارها انها « جريدة عربية تركية خادمة لترقي الوطن لكمال الحرية تصـــدر مرة في الاسبوع مؤقتا » بدأت عملها بصفحتين في العددين الأولين ثم بأربع صفحات في الأعداد التي تلي ذلك . وانصب اهتمامها على القسم العربي وتضاءل

(٢٥) انظر بطي — تاريخ الصحافة في العراق — ص ٣٦ .

القسم التركي حتى انه لم يتجاور في بعض اعدادها العمود الواحــــد في أغلب الاحيان . ولقد عالجت جريدة الرقيب القضايا التي كانت تشغل بال الرأي العام حينداك باسلوب تغلب عليه الفصاحة والوضوح ، ومن حسناتها حرصها على سهولة العبارة والبعد عن التكلف . ومن المواضيع المهمة التي عالجتها الجريدة مشكلة استعمال اللغة العربية في المدارس والمعاملات الرسمية . وكانت تتوسل الى دلك بطرق مختلفة يغلب عليها طابع الحث والتأثير . الأمر الذي عرض صاحبها لأشد الاخطار وبخاصة بعد ظهور النزعــة التركية . وحسبنا للتدليــل على ذلك تلك الدعوة الصريحة التي ثبتتها حيث تقول :

« ان أهم ما يجب على الجرائد خصوصا ، وعلى الامة عموما ، توالي الابحاث في التعليم والتربية وتحسين الأخلاق ، فان البحث في هذه الامور مهما طال لا يمل ومهما سعى في تعقيبها الانسان لا ينبغي أن يكل ، لأنها روح المدنية ... وبسبب قلة وجود المكاتب الابتدائيه في ولايتنا نرى أن من يعرف القراءة والكتابة ان راجعنا عــدد الأهالي لا يكون الا بنسبة واحد بالمائة على جهة المبالغة والا فانه بنسبة عــدد العشائر لا يكون الا واحد في الالف ... ولــو كان التعليم بصورة مناسبة حسب القوانين لم نكن نسمع من الاولاد بل والرجــال حتى ممن هو معدود من المتعلمين تلك الألفاظ الشائنة للأدب المغايرة لشعائر الانسانية حتى ان السب بأقبح الألفاظ والشتم بأبشع أنواعه وبعض ما يؤول الى الكفر والعياذ بالله من الالفاظ فاش شائع على أغلب الناس

... ليس لنا من طريق سوى ان نباشر بتكثير المدارس الابتدائية المذكور وأن لا نغفل عن مدارس الاناث اذ ربما يكون الزم وآسس تأثيراً واللوم في هذا على المعارف . فالولاية عموما بنوابعهـا تحتاج لمائتي مكتب ولعلها لا تكفي . أما لغة التعليم فيجب ان تكون عربية في ولايتنـا وكذلك في عموم العراق وسوريا والحجـاز واليمن ؛ ففي المـكاتب الابتدائية يعنى باللغة العربية المحضة وأما التعليم في المكاتب الرشدية، فمن الواجب أن يكـون باللغة التركية ويضاف اليها درس باللغـة العربية المحضة » [٢٦] .

لقد ابتدعت الجريدة حقولا لم نجدها في كثير من الصحف التي سبقتها او تلك التي تلتها بفترة غير قليلة . من ذلك ما نسميه اليـوم بالكتاب المفتوح . توجه فيه أنظار أعضاء مجلس المبعوثين الذين ينتخبون ليمثلوا العراق في الآستانة الى واجباتهم نحو الامة ، وتذكرهم بمهمة النائب وواجباته تجاه ناخبيه [٢٧] . كل هذا في سبيل الحث على العمل المثمر للصالح العام . كما تناولت نواحي الحياة الاجتماعية باسلوب لم تسبق اليه فعالجت مشاكل اللصوص والرشوة . وعندها أن الأديب الحق هو الذي يدافع عن امته ووطنه فيجعل أدبه في سبيل خـدمة المجموع ويوقظ فيهم مشاعر تحرك الهمم والعزائم «لا ، لا سبقت ايها القلم لا تسمي المقذع كاتبا ، ولا تسم المتشدق منتشئا ؛ لا تسم المهذار خطيبا

(٢٦) الرقيب عدد ٧ سنة ١٣٢٧ .

(٢٧) انظر الرقيب عدد ٨٢ سنة ١٣٢٨ هـ .

تعرف من هو الكاتب يا قلمي المثقف . هو ذلك الذي يلتهب قلبه حنانا على قومه ، يلتهب شفقة على أمته ، هو ذلك الذي يندفع ظهيراً للحق نصيرا للواقع ، ذلك الذي يحرك العزائم ويبعث في شعبه روحا جديدة يوقظه من النوم والكسل • من هو الكاتب ؟ انه فتى يسيل رقة فتى يقطر ، لطفاً ، يذوب لينا أمام أصفيائه . الكاتب يكفيه من (أخاه)[٢٨] الفاضل أنه ابن البشرية يكفيه أنه ربيب الانسانية »[٢٩] •

والذي لا شك فيه ان جريدة الرقيب سبقت عصرها بزمن غير قليل ، فكثير من الصحف التي صدرت بعد الربع الاول من هذا القرن لم تصل الى ما وصلت اليه الرقيب من حيث الاسلوب والخطة والمواضيع التي عالجتها حتى ان صاحبها تعرض للمضايقه من قبل الوالي العثماني ناظم باشا فاضطر أن يهرب الى الحجاز نجاة بنفسه •

أما جريده صدى بابل التي كانت تعاصر جريدة الرقيب فهي « صحيفة سياسية تجارية أدبية اخبارية لترقي الوطن تصدر في الاسبوع مرة مؤقتا » صدر العدد الاول منها في ١٣ / ٨ / ١٩٠٩ لصاحبها المعلم داود صليوه ، غير انها كانت اقل أثراً من جريدة الرقيب ، فلم تكن صريحة في عرض كثير من المشكلات التي كانت تواجه البلاد ، وكان صاحبها متحفظا الى حد بعيد لا يملك الجرأة على التصريح بما ينبغي أن يقال في وقت كانت البلاد بحاجة ماسة لمن يدافع عنها • لقد

(٢٨) هكذا فى الاصل والصحيح اخيه .

(٢٩) الرقيب عدد ٨٦ سنة ١٣٢٨ هـ .

انحدرت هذه الجريدة بالعمل الصحفي وتحولت الى مجرد بوق لا هم له الا الدعاية لهذا الوالي أو ذاك . همها ان تكيل المدح وترحب بالقادم قبل ان تعرفه حتى انها اصدرت حين عين ناظم باشا واليا على بغداد ملحقا خاصا بالمناسبة قبل قدومه . وفيه قصيدة عصماء كما تقول الجريدة في مدحه فيها من المبالغة مالا يمكن ان تتقبله النفس الابية[٣٠].

في حين لم يكن نصيب الصحافة منه الا البطش بها ، فقد كان اول عمل قام به هو اغلاق دور الصحف وتقديم اصحابها الى المحاكمة والغاء القسم العربي من جريدة الزوراء كما قدمنا .

ومن أهم المجلات التي صدرت أيضا في هذه الفترة مجلة العلم ومجلة لغة العرب . التي نرجيء الحديث عنها الى موضعه في باب اللغة والصحافة . أما مجلة العلم فمجلة يغلب عليها الطابع الديني وقد صدرت في مدينة النجف الأشرف . وهي مدينة محافظة الى حد بعيد ينظر أهلها الى الصحافة نظرة عربية فيها كثير من الازدراء ، حتى ان صاحبها الشيخ هبة الدين الشهرستاني يقول في ذلك « ان من مضار المجلة لشخص منشئها سقوطه عن انظار العوام وأكثر المثقفين وجملة من رجال الدين سيما المستبدين »[٣١] . ومن أجل ذلك كان شعارها بعض الآيات القرآنية والاحاديث النبوية كقوله عليه الصلاة والسلام « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » تكرر ذلك في كل عدد

(٣٠) انظر صدى بابل عدد ٣٧ سنة ١٩١٠ .

(٣١) مجلة العلم عدد ١ مجلد ٢ سنة ١٣٢٨ هـ .

من أعدادها . وكان رائدها التعريف بالدين الاســلامي دون ان تغفل أبوابا تتصل بالعلم والمخترعات مما كانت تنقله عن المجلات العربيــة وبخاصة المقتطف ، كما شجعت الأدباء ونشرت ادبهم . ولعلها أول مجلة رصدت الجوائز فيما يشبه المسابقات الأدبية .

تلك هي أهم الصحف التي صدرت في العهد العثماني . وبعد ذلك يبدأ عهد جديد هو عهد الاحتلال الانكليزي للعراق الذي بدأ باحتلال الانكليز لمدينة البصرة في ٢٢/٤/١٩١٤ وكان أول عمل قام به المحتلون هو أنهم استولوا على مطبعة الولاية واشتروا جميع المطابع التي كانت هناك لتأمين الدعاية لهم . ثم بدأوا باصدار نشرة بالعربية والانكليزية لنقل اخبار انتصاراتهم في جبهات القتال المختلفة ، تحولت بعد ذلك الى جريدة يومية سياسية باسم الأوقات البصرية . وكانت تصدر بأربع لغات هي العربية والانكليزية والفارسية والتركية .

والمتصفح لهذه الجريدة يلاحظ أهتمامهــا بنقطتين اساسيتين : اولاهما الحط من قيمة الاتراك والتعرض لهم بلهجة قاسية بغية اساءة سمعتهم لدى أولئك الذين ما زالوا يعطفون عليهم لعامل ديني كقولها: « ان السياسة التي جرت عليها الحكومة الاتحادية لافناء المسيحيين واليهود في سوريا وفلسطين هي من أفظع النكبات في هذه الحرب ، ولا ننسى ما نزل بالمسلمين من الفظائع التي تقشعر لها الأبدان ، ولو زرنا سجون عالية وشاهدنا ما يجري فيها من فظائع الاتحاديين ومايحل بأشراف المسلمين من التعذيب لتحركت العاطفة الانسانية . ان تركيــا

ما دخلت الحرب الا للقضاء على الحياة الجديدة التي دبت في العناصر وعلى رأسها النهضة العربية قضاء لامرد له » (٣٢) .

وقصدها من هذا اثارة شعور العداء نحو الاتراك والحط من قيمتهم ؛ وقد كانت هذه اللهجة محور كثير من الصحف التي كانت تصدر في غير البصرة . والنقطة الثانية هي اهتمامها بأخبار المعارك والدعاية للحلفاء وما يقال عن مدى تشبعهم بالروح الانسانية وانهم جاءوا لتحرير الشعوب لا لاستعبادها . وهم في سبيل هذا كله راحوا يحثون الناس الى العلم والتشجيع عليه باعتباره وسيلة هامة الى الترقي والتقدم. غير أن الطابع السياسي والدعائي هو الغالب على هذه الصحيفة فكانت تملأ صفحاتها بالترجمة عن الصحف الانكليزية المهتمة بالمنطقة العربية قبل كل شيء .

واحتل الانكليز مدينة بغداد في ١١ /٣ / ١٩١٧ بقيادة الجنرال مود ، الذي اصدر بيانا طويلا لا زالت عبارته المشهورة وهي قوله « جئنا محررين لا فاتحين » ترن في آذان العراقيين لتدل بالتالي على روح الغدر الذي كان يضمره المحتلون لهذه البلاد ، ويبدو ان العراقيين صدقوا هذه الوعود لأنهم كانوا في وضع غير طبيعي تحت حكم الاتراك . غير ان هؤلاء المحتلين الجدد سرعان ما قلبوا للعراق ظهر المجن وظهرت نياتهم الخبيثة ، وتبين انهم ليسوا بصدد تحرير العرب من ظلم الاتراك وانما هم بصدد تجزئة البلاد العربية الى مناطق نفوذ .

---

(٣٢) الاوقات البصرية عدد ٤ سنة ١٩١٧ .

وعلى كل حال فقد ارتبط مصير العراق ببريطانيا وادى الى ربط القضية العراقية بالسلطات الانكليزية مباشرة فأخذت تتصرف في أمور البلاد على طريقتها الخاصة وعينت الموظفين من ضباط الحملة البريطانية ، وكانت تصرفاتها مثار استنكار شديد من قبل ابناء الشعب بعد ان ظهر زيف ادعاء الانجليز . وقد حفلت المصادر التي اهتمت بدراسة هذه الفترة بالكثير من تصرفات المحتلين كأخذهم الاطعمة بأثمان زهيدة واستيلائهم على البيوت بأجور زهيدة ، كما فرقوا بين ابناء الشعب العراقي وقووا النزعة الطائفية وبثوا الجواسيس في كل مكان حتى كان يخيل للمرء أن الاحجار والاشخاص اصبحت في زمرة الجواسيس كما يقول الاستاذ العمري .

ولم ينس المحتلون أهمية الصحافة في خدمة اغراضهم ، فمنذ آن وطئت أقدامهم مدينة بغداد فكروا في اصدار جريد باسم الاوقات البغدادية على غرار الأوقات البصرية « غير ان الاب الكرملي يذكر انه استشار في هذه التسمية محمود شكري الالوسي فاقترح عليه أن تدعى العرب فاستحسن السر برسي كوكس هذه التسمية فكانت جريدة العرب » (٣٣) .

وقد جاء في العدد الأول منها انها « جريدة سياسية اخبارية تاريخية أدبية عمرانية عربية المبدأ والغرض يصدرها في بغداد عرب للعرب » وقد صدرت في ١٩١٧/٧/٤ ، وهي لا تختلف عن جريدة

(٣٣) بطي — الصحافة في العراق — ص ٤٤ .

الاوقات البصرية من حيث المبدأ . فقد جعلها الانجليز وسيلة دعاية لهم تطعن بالاتراك وتتعرض لهم بقارص الكلم ... حرر فيها نخبة من أدباء العاصمة نذكر منهم الكرملي وكاظم الدجيلي والبصير والزهاوي وغيرهم . وكان أكثرهم لا يذكرون اسماءهم صراحة الأمر الذي يجعلنا نعتقد أنهم كانوا يتوقعون تغيرا في سياسة المحتمل .

أما أسلوبها فأسلوب صحيفة حديثة ، لا تختلف في شيء عن جرائدنا العصرية ولا تهتم بقيود الصناعة اللفظية . وفتحت صدرها للشعر الذي يتضمن الطعن على الاتراك ويطري سياسة المحتلين كقول شاعر بتوقيع (ابن السلبقة) في مدح الملك جورج الخامس :

دعائي وحمدي ومدحي اتصل
لسلطاننا وعميد الدول
هو الملك المرتقى فى علاه
مراقي ينحط عنها زحل
لقد نشر العدل فى العالمين
وهل عادل مثله قد عدل (٣٤)

وفي الموصل ، وهي آخر مدينة عراقية احتلها الانكليز ، لتغدو فيما بعد مشكلة مهمة ساومت بريطانيا عليها للحصول على مزيد من المكاسب ، أصدروا جريدة الموصل ، وواجهتهم مشكلة الحصول على صحفي أو أديب يستطيع أن يدير دفة الجريدة والتحرير فيها فاستعانوا

(٣٤) جريدة العرب عدد ٤٥ سنة ١٩١٧ .

باثنين من أساتذة التعليم حتى تسنى لهم استقدام اديب صحفي من لبنان هو أنيس صيداوي (٣٥) . ولعل أهم الموضوعات التي عالجتها هذه الجريدة ، تلك التي تتعرض المثورة الشيوعية التي تصادف قيامها في هذه الفترة . لقد امتلأت أعمدة هذه الصحيفة بالعديد من المقالات التي تحط من قدر هذه الثورة ورجالها واصفة اياهم بأبشع الاوصاف كقولها تحت عنوان (البولشفيكية) « طرقت مسامعنا هذه الكلمة الغريبة مرارا عديدة وتناقلتها الصحف العالمية بكل ما في معانيها من الهول والفوضى والاباحية . حتى خيل لنا عند ذكر البواشفيكية ظهور شبح القوى الروسي وعظم قلبه الجلمود وكراهته لذوي التيجان والأشراف وأصحاب الأملاك . الذلك فقد استاء الرأي العام ذو الوجدان الحي والضمير العادل لدى علمه بمآثم الحكومة السوفيتية وفظائع السلطة البولشفيكية التي أباحت النهب وزرعت بذور الفوضى وسفكت دماء الاحرار وانتهكت المقدسات ورمت بملايين الابرياء بين مخالب الجوع والتعاسة والفقر » (٣٦) وقد استمرت هذه الجريدة حتى بعد ظهور الحكم الاهلي وهي تحمل نفس السياسة رغم تبدل ظروف الحكم . في حين اغلقت جريدة العرب وحلت محلها جريدة العراق لصاحبها رزوق غنام .

ولم يكن بوسع العراقيين أن يسكتوا على هذه الأوضاع الشاذة ، فقاموا بتقديم الاحتجاجات على هذه التصرفات

(٣٥) انظر بطي تاريخ الصحافة في العراق — ص ٤٤ .

(٣٦) جريدة الموصل عدد ٥٨٢ سنة ١٩٢٢ .

الشاذة وطالبوا بابداء حرية الرأي والسماح لهم باصـــدار الصحف الوطنية التي منعتها السلطات عنهم ، وحينما لم تجد هذه المطالب العادلة صدى في نفوس المحتلين قامت الثورة المسلحة سنة ١٩٢٠ في النجف الأشرف والمناطق الجنوبية من البلاد . والتف حول هذه الثورة الكثير من شيوخ القبائل ومثقفي المدن ورجال الاحزاب .

لقد استطاعت هذه الثورة أن تثبت وجودها في باديء الامر واستولت على مناطق كثيرة من العراق وكلفت بريطانيـــا الكثير من الأموال والرجال . فقد ذكر المستر تشرشل ناظر الحربية البريطانيـــة حينذاك في مجلس العموم « ان نفقات جنود الحاميـــة البريطانية في العراق للستة الأشهر الاولى المنتهية في ٣٠/٩/١٩٢٠ تقـــدر بثلاثة عشر مليون ليرة » [٣٧] بالاضافة الى عـــدد كبير من الجنـــود « ان خسائر البريطانيين في حروب العراق قـــد بلغت على ما ادعى المستر لويد جورج في احدى المؤتمرات التي عقدت بعد انتهاء الحرب مائة ألف جندي بين قتيل وجريح » [٣٨] ويبدو أن هذه الثورة كانت منظمة حتى ان الثوار انشأوا حكومة من بينهم واصدروا صحفا خاصة بهم تنشر أخبار الثورة وتحث الناس على الجهاد [٣٩] . ومن هذه الصحف جريدة الفرات : اصدرها الشيخ الاديب محمد باقر الشبيبي فكان

٣٧) جريدة العراق عدد ١٣١ سنة ١٩٢٠ .

٣٨) البزاز ــ العراق من الاحتلال الى الاستقلال ــ ١٥ .

٣٩) انظر الثورة العراقية الكبرى الفياض ص ٢١٠ .

لها دوي كبير حينذاك صدر منها خمسة اعداد فقط ومن ثم اختفت باختفاء الثورة . وقد حاولنا العثور على عدد من اعداد هذه الجريدة فلم تفلح . حفظ لنا المرحوم روفائيل بطي مقالا من مقالاتها نأخذ منه ما يلي « ... هون عليك يا ممثل الدولة الانكليزية ، ان الامة التي ناصبتها العداء وحكمت فيها السيف فأرقت دماءها وأزهقت أرواحها عداء محضا وتحكما صرفا بلا خوف من الحق ولا وجل من العدل . ستقف واياك أمام محكمة التاريخ ليعلم من هو المجرم الذي أتلف النفوس وجنى على البشرية بلا رحمة ولا عطف . فالويل لمن صبغ الارض بدماء الابرياء . يا ممثل الدولة الانكليزية ماذا صنعت أمة العراق المظلومة حتى تستحق من ضباط الاحتلال هذا الفتك الذريع والتمثيل الشنيع والهتك الفظيع . أفعال تخجل منها العصور الاولى وتشمئز من فجائعها قرون الظلمة والظلم ، ويل لكم يا ضباط الاحتلال من ظلامة أمة كان جواب مطالبها الشرعية حز الرؤوس وتوصيل الاعضاء وحرق الجثث والتمثيل بالنفوس المحترمة ليت الذين رفعوا مقامكم في العراق انفرسوا محبتهم في القلوب يشهدون ماذا انتم عاملون ومقترفون . ليت الذين بعثوكم للحرية والمساواة يشهدون فصلا واحدا من المأساة التي قمتم بها ... ويل لمن اقامك تمثالا للقسوة والغلظة ، اما الرحمة ، واينها منكم يا قساة الرحمة ، ففضيلة تنحت من قلوبكم وابتعدت عن ضمائركم » (٤٠)

(٤٠) بطي — الصحافة في العراق — ص ٦٢ .

اسلوب له أهميته في التأثير بالقراء لما فيه من تجسيم أعمال المحتل واظهارها بمظهر الهمجية والوحشية لكي يوغر صدور الناس على المحتلين . ويقول الذين عاصروا هذه الثورة ان هذه الصحيفة كانت تنتشر انتشار النار في الهشيم ، وانها كانت ترسل الى خارج العراق لتبلغ مقام الملك حسين في الحجاز وبلاط فيصل في الشام . وهناك جريدة أخرى للثورة هي جريدة الاستقلال لم يصدر منها غير ثمانية اعداد وماتت بموت الثورة كذلك . ورغم ان بريطانيا قضت على هذه الثورة عسكريا الا انها لم تستطع أن تخمد جذوتها في النفوس فرأت أنه لا مناص من استبدال الاحتلال العسكري بصيغ أخرى على أن لا تتعارض هذه الصيغ مع سيادتها ومصالحها ، وهنا يبدأ العهد الملكي في البلاد . ولا نميل الى جعله فترة قائمة بذاتها وان كانت ظواهر الامور تشير الى شيء من ذلك . لان الحوادث المتتابعة أظهرت ان المحتلين ما زالوا يسيرون امور البلاد في الداخل والخارج ، فهم الذين هيئوا الحكم لأمير عربي ليس له من السلطة الفعلية شيء،يذكر الاستاذ البزاز أنه « بينما كان الجانب الوطني يريد ان يكون البناء الجديد في وجهه ومادته وفي ظاهره وباطنه عربيا كان الجانب البريطاني يريد ان يبقي البناء بريطانيا في باطنه وجوهره عربيا في ظاهره » (٤١) وحينما طرد الامير فيصل من سوريا جيء به الى العراق عن طريق الانكليز أنفسهم . وبهذا يكون مدينا لهم بهذا المنصب الخطير الذي

(٤١) البزاز — العراق من الاحتلال الى الاستقلال — ص ٦١ .

ظهر بعد مؤتمر القاهرة « وأسفر عن تقرير السياسة البريطانيــة في العراق بانشاء دولة عراقية عربية يرأسها أمير من البيت الهاشمي»[٤٢] ومؤتمر القاهرة هذا عقده الساسة الانكليز سنة ١٩٢٠ حيث « اجرى ونستون تشرشل مع الامير فيصل محادثات . توصل الفريقان خلالها الى نوع من التفاهم حول القضايا التي تهم الطرفين وقــد تمخضت هذه المحادثات عن ترشيح الامــير فيصل على عرش العــراق على أن يتعهد الاخير بتوقيع معاهدة تحالف مع الحكومة البريطانية ، وقــد برت بريطانية بوعدها للامير فيصل فرشحته لعرش العراق في مؤتمر القاهرة ســنة ١٩٢١ » [٤٣] وقام الانكليز بدورهم في تهيئة الجــو للأمير فيصل . فكانوا يدعون الناس للموافقة على مضابط أعــدت سلفا لكي يعطوا الانتخاب صفة شرعيه . في وقت لم يكن النــاس يعرفون معنى الانتخابات . ومع هذا فان بعض المناطق كانت تعلن صراحة عن عدم رضاها عن النظام الملكي ويظهر « ان جماعات كبيرة من العراقيين لم يرضوا عن التدابير التي اتخذتها بريطانيا لانها لم تكــن مطمئنة لامال العراقيين . وكانت جماعه توفيق الخالـــدي من بين الجماعات التي تؤيد الحكم الجمهوري في العراق والتي إستمرت في معارضتها للوضع الجديد » [٤٤] .

(٤٢) روفائيل بطي — الصحافة في العراق — ص ٨٠ .

(٤٣) عبد الله الفياض — الثورة العراقية الكبرى — ص ٣٢٩ .

(٤٤) ن . ف ص ٣٣٠ .

وكانت بعض الصحف تتهم بميلها للحكم الجمهوري كهـــذا الذي حصل مع الاستاذ داود السعدي صاحب جريدة دجـلة ، فقد استغل البعض جرأته وصراحتــه في الشروط التي يجب ان تتوفر في الملك الذي يحكم البلاد فراح يوقع بينه وبين الملك ، في حين لم يكن هذا الصحفي اللامع غير واحد من المواطنين الذين يحسون بثقـــل المسؤولية التي عليهم أن يتحملوها في هذه الظروف الدقيقة التي عليها يتقرر مصير البلاد ، كما يظهر في قوله : « ... لا يهمنا اسم الملك بقدر ما تهمنا قدرته على القيام بواجبات البـلاد . وفي نظرنا أن الادارة الجديدة الصادرة عن اخلاص هي في مقدمة الصفات المطلوبة للذي يريد القبض على زمام العرش حتى لا يكون العوبة بيـد اصحاب المطامع ... ويجب أن لا ننسى صداقة الملك للبلاد التي توج عليهـا لا البلاد التي ولد فيها . ويجب على الملك اذا كان غريبا أن يتناسى ماضيه وان يتجرد عن الشعور الذي كان يحمله نحو مسقط رأسه والا فاننا نرفض كل ملك يسع عن الامة حريتها » (٤٥) .

وقد مرت ظروف عديدة بالبلاد كان الملك لا يملك رأيا خاصا فيها . بل ان كثيرا من الحوادث أثبتت از الملك لم يكن سوى خيال واه امام الانكليز ، فحينما « عقدت اتفاقية بين السعودية والعـراق سنة ١٩٢٥ وقع فيها من الجانب السعودي الملك عبد العزيز بختمـه ووقع فيها من الجانب العراقي (كلبرت كلاين) بختم ملك العراق فيصل

(٤٥) جريده دجلة عدد ٤٣ سنة ١٩٢١ .

الاول » (٤٦) . ولا يمكن ان نجد مبررا لهذا التفويض في دولة مستقلة . ولما ألفت أول وزارة في العراق بعد التتويج « قدم الملك فيصل قائمة وزارته وقدم المندوب السامي قائمة وزارته فاذا بها تختلف عن قائمة الملك وبعد أخذ ورد طويلين عين النقيب للوزارة الجديدة وفقا لرغبة المندوب السامي » (٤٧) . وفي عهده كان أكثر الموظفين من الانكليز . وكان لكل وزارة مستشار هو الذي يسير الامور . وقد استمر هذا كله الى الحرب العالمية الثانية .

أما قيود الانتداب والمعاهدات المختلفة التي تلت ذلك فأمرها قد يطول لما فيها من اجحاف بحق البلاد . وقد اثارت كثيرا من القلق الفكري والنفسي حينذاك . انعكس صداه على الادب والصحافة وجعلتهما يدوران في هذه الحلقة ولا يكادان يبتعدان عنها . لقد اصبحت الصحافة في حرب سجال بينها وبين السلطة الحاكمة ، مما اضطر هذه الاخيرة الى سن قوانين صارمة تحد من حريتها فقد ذكر كثير من المطلعين أن الظروف التي كانت تخضع لها الصحافة في العهد العثماني كانت اكثر حرية من هذه القوانين الجديدة والمتغيرة التي كانت تسنها الحكومات المتعاقبة (٤٨) .

وعلى هذا الاساس فلا مجال للفصل بين عهد وآخر حتى ان

(٤٦) الحسني — تاريخ الوزارات العراقية ج٢ ص ٦ .

(٤٧) فوستر ص ١٥١ .

(٤٨) انظر الحسني — « الصحافة العراقية » ص ٨ .

كثيرا من الصحفيين كانوا أكثر من مخضرمين نذكر منهم الاب الكرملي الذي أصدر لغة العرب في العهد التركي وعمل في جريدة العرب أيام الاحتلال . وعاد الى لغه العرب في العهد الملكي وقل مثل هذا مع روفائيل بطي . وابراهيم حلمي العمر وابراهيم صالح شكر وغيرهم الكثير .

والصفة العامة الصحافة هذا العهد هي أنها عكست هذا الوضع العام بكل ما فيه من متناقضات . كما تطورت من حيث الاخراج والحجم والموضوعات وهذا طبيعي . لتغير ظروف البلاد وكثرة المدارس وانتشار التعليم بين عدد كبير من الناس . فبدأت هذه الطبقه الجديده تعرض وجودها وتبحث عن غذاء فكري وثقافي فوجدته في الصحف على الاكثر وفي الكتاب بعد ذلك . وكان نزوع هذه الطبقة الجديدة الى الحرية مثار انزعاج للسلطلة العامة في البلاد فاختصرت الطريق وراحت تحارب الحريه بمفهومها العام . فما ان تأتي حكومة الى دست الحكم الا وتحمل بين جنبيها قانونا جديدا يزيد من القيود السابقه . وقد ترك هذا كله أثرا كبيرا على الصحافة فبينما تجد عددها يصل الى المئات في بعض الاحيان اذا به ينقص الى اقل من اصابع اليد الواحدة . ومن اهم الصحف التي ظهرت في هذا العهد جريدة العراق لصاحبها رزوق غنام وجريدة الاستقلال لعبد الغفور البدري وجريدة البلاد لروفائيل بطي والزمان للاستاذ توفيق السمعاني . بالاضافة الى الصحف الحزبية التي سنتعرف عليها في فصل قادم .

كما ظهرت في النجف صحف أدبية كثيرة وخاصة في الثلاثينيات اهتمت بالثقافة العربية القديمة وأولت الشعر العربي اهتماما كبيرا في حياتها الطويلة •

كما ظهرت في النجف صحف آدبية كثيره وبخاصة في الثلاثيبيات فكانت حدثا تاريخيا هائلا لم يكن يتوقعه العراقيون بهــذه السهولة والسرعة ، وان كانت كل البوادر تدل على حــدوث مثل هذا التغيير • وكان المفروض بالشعب العراقي أن يستغل هذه الثورة ليعوض ما فاته من سني الكبت والحرمان الى حيث العمل الجــدي المثمر • غير أن الاوضاع الشاذة التي كان يعيشها الشعب قبــل الثورة والتناقضات الكبيرة فيمستوى حياتهالفكرية والمعاشية لايمكن الا ان تتركاثرهابعد أن تهيأ لها الجو المناسب •

فالجو الارهابي الذي عاشته البلاد وبخاصة في السنوات التي سبقت الثورة اضطرت الكثيرين الى أن ينخرطوا في المنظمات السرية المختلفة . وقد ظهر فيما بعد أن بعض هذه المنظمات لم تكن بمستوى المسؤولية بحيثتستطيع ان توجهاعضاءها توجيها سليما • لقد استقطبت هذه الاحزاب كثــيرا من الشباب المتحمسين الذين لا يملكون ركيزة ثقافية تؤهلهم للعمل الحزبي فاندفعوا وكأنهم آلات مسخرة لــذوي الاطماع يسيرونهم كيف يريدون •

اما الاحزاب العلنية فقد كانت الحكومات المتعاقبة تلاحقها ، فما تكاد تظهر الا لتختفي بعد ذلك . فاضطر كثير من منتسبيها أن يتوجهوا

شطر الاحزاب السرية . ولكنها مع هذا ادت واجبها في كثير من الاحيان التي كانت تظهر فيه على المسرح السياسي . لقد انعكست هـــذه التناقضات بصورة واضحة منذ الايام الاولى للثورة وان تأخر ظهورها قليلا ، وقد ساعدها على ذلك اختلاف الآراء داخـــل صفوف الثوار انفسهم فتحيز بعضهم لجهة دون أخرى . وكان لا بد لجهة منهمـــا أن تكون . فتحول النزاع الى نزاع نظرني وعملي . لقد تهيأ الجـــو للحزب الشيوعي وجماعة اليسار فيأن يسيطروا على الصحافة ويوجهوا وسائل الاعلام فحولوها الى واجهات لخدمة اغراض معينة ، واستغلوا الصحافة والادب استغلالا فظيعا لنشر مبادئهم ؛ وفي الوقت نفسه راحوا يشعلونها حملة ضارية على مناوئيهم بعد أن جردوهم من كـــل وسيلة دفاع . لقد كانت جل صحف هذه الفترة تحمل طابع الهجوم والمقال النزالي . من ذلك جريدة اتحاد الشعب لسان حال الحـــزب الشيوعي العراقي السري والتي انتشرت انتشارا واسعا لم تعهـــده الصحافة العراقيـــة من قبل . بل لقد اصبحت تعويذة يقتنيها المـــرء دفاعاً عن نفسه ؛ وقل مثل هـــذا في جريدة التقدم وصوت الاحرار وبعض الصحف الاخرى التي تحولت بحكم الظروف الى صحف يسارية مع انها كانت صحفا يمينية أو معتدلة كجريدة الزمان وجريدة البلاد . أما مقالاتها فكانت تدور في حلقة معينة لا تخرج عن التعرض للقوميـــة العربية والحط من دعاتها ، وفي كثير من الاحيـــان كانوا يستعدون البسطاء على مخالفيهم من الجهة الاخرى .

اما في المجال الادبي فقد ظهرت صحف كثيرة لا عهد للبلاد بهـا كانت مثار نشاط فكري وادبي ، ولكنه أدب موجه يلتزم خطـا معينا، ومن هذه الصحف مجلة الانسانية والحضارة والمثقف والاديب العراقي وغيرها الكثير .

على ان هذه الاوضاع لم تدم طويلا لأن الجهة المناوئة كانت هي الاخرى تعمل في الخفاء فأجمعت أمرها وانقضت على وزارة الدفاع سنة ١٩٦٣ وبهذا بدأ عهد جديد يختلف اختلافا جذريا عن سابقه فحصر السلطة بيده ومنعها عن الجانب الاخر ، ومن هنا برزت صحف جديدة تلائم الوضع الجديد تحمل نفس الطابع الهجومي واللهجة القاسية مع ما فيهـا من تهديد ووعيد .

***

الباب الثاني

اللغة والادب في الصحافة العراقية

الفصل الاول

اللغة والصحافة

يخطيء من يظن أن فكرة القومية العربية وليدة مناهضة سياسة التتريك التي ظهرت في نهاية العقد الاول من هذا القرن ، فالمسألة أعمق من هذا بكثير ، فمن يتتبع الصحافة العربية التي كانت تصدر في النصف الثاني من القرن الماضي ، يلاحظ أن أكثر اهتمامها كان ينصب على حركة احياء اللغة وجعلها متطورة مع العصر الذي تعيش فيه . نجد هـــذا بصورة واضحة في جريدة الجوائب وفي مجلتي الجنـــان والمقتطف . على أن هـــذا الاهتمام باللغة . لم يكن غاية في حـــد ذاته . بل كان وسيلة الى شيء أعم وأشمل ، لقد رأى هؤلاء الرواد من اللغويين والأدباء ان احياء امة ران عليها الخمول والكسل طيلة قرون عديـــدة يتطلب احياء تراثها وأمجادها ، وان احياء هذا التراث وتلك الامجـــاد

يتطلب احياء اللغة وآداب تلك اللغة .

يذكر الاستاذ أحمد عزت الاعظمي صاحب مجلة المعرض البغداديه والصحفي البارع الذي نشر كثيراً من بحوثه في الاستانة ، وعمل الكثير من أجل جمع كلمة العرب هناك . يذكر في مجلته « يقولون ان اليقظة القومية وليدة الانقلاب التركي نشأت في أحضان سوء التفاهم بين الترك والعرب وتغذت بلبان الحقد والحسد وترعرعت تحت ظلال الدسائس والفتن . ولكن هذا القول ما هو إلا هراء . فقد ولدت اليقظة القومية قبل أن يولد الدستور وقبل الانقلاب التركي بعقود من السنين » [1] .

فحركة احياء اللغة العربية وآدابها كانت بداية الحركة القومية في عالمنا العربي . نظر هؤلاء الرواد الى واقع أمتهم فوجدوه واقعاً مريراً يغلب عليه الخمول في عصر يعج بالتطورات الفكرية والعلمية . وهم في سبيل أن يغيروا هذه الاوضاع التفتوا الى اللغه ، باعتبارها أكبر وسيلة في ايجاد شعور مشترك يساعد على بعث هذه الأمة من رقدتها وسباتها . ولكي تصل اللغة الى هذه الغاية ، فان عليها أن تتقبل الافكار الجديدة والعلوم العصرية وتستوعب الحياة الحديثة التي يحياها الناس في عصر النهضة . هذه ناحية ، وناحية أخرى أنهم وجدوا أن السلطة العثمانية تحكم العرب باسم الاسلام ، وكتاب الاسلام المقدس هو القرآن ، ولغة القرآن هي العربية . ومعنى هذا أنهم حينما يخدمون العربيـة لايثيرون عليهم نقمة السلطة ، لأنهم بهذا إنما يخدمون لغة القرآن ومن

(١) مجلة المعرض عدد ١ سنة ١٩٢٥ .

هنا دخلوا فوجهوا جل عنايتهم الى اللغة . فكانوا حركة دائبة لاتعرف الكلل وبهذا عبدوا الطريق أمام الأجيال اللاحقة لتجد لغة سهلة متطورة تلائم العصر الذي تعيش فيه، كل هذا ما كان ليكون لولا هؤلاء الرواد من الصحفيين واللغويين والأدباء . الدين أفنوا حياتهم في خدمة العربية وآدابها ، ونستطيع أن نعرف مقدار الجهد الذي بذله هؤلاء الرواد اذا تصورنا لغة جمدت في مكانها ما يقارب أربعة قرون ، خضع العرب خلالها لأمم شتى تتكلم لغات شتى أوشكت معها العربية على الضمور والاختفاء لولا تمسك المسلمين بأمر دينهم ، فابتعدت العربية طيلة هذه الفترة عن التطور وانطوت على نفسها . حتى جاء عصر النهضة ، عصر هؤلاء الرواد فوجدوا حاجة ماسة الى تطويرها وجعلها ملائمة للعصر ، في وقت كثرت فيه الاكتشافات والاختراعات التي فرضت نفسها على الناس فرضا وهجمت عليهم هجوماً عربيا . فلم يعد أمام أعلام هـــذه النهضة فرصة للانتظار . فعملوا كل ما في جهدهم لمسايرة هذا التيار وتطوير اللغة ما شاء لهم اجتهادهم . يقول جرجي زيدان « لم يمر على اللغة العربية عصر أثر في الفاظها وتراكيبها تأثير النهضة الاخيرة في أواسط القرن الماضي لأنها جاءت على غرة دفعة واحدة . فانهالت فيها العلوم انهيال السيل . وفيها الطب والطبيعيات والرياضيات والعقليات وفروعها ، ولم تترك الناس فرصة للبحث عما تحتاج اليه تلك العلوم من الألفــاظ الاصطلاحيــة مما وضعه العرب واقتبسوه في نهضتهم

الماضية » (٢) . وربما كان هذا الهجوم الكاسح للألفاظ والأصطلاحات الحديثة في عصر النهضة هو الذى أدى الى وجود رأيين خرج منهما رأى آخر هو الذي استطاع أن يثبت في الميدان ويقوم بحركة احياء اللغة وتطويرها ونشرها عن طريق الصحف والمطبوعات . الرأي الاول يرى أن العربية لم تعد مسايرة للعصر . وأنها قاصرة عن تقبل كل هذا الفيض الغزير من الاصطلاحات الحديثة في مباديء العلوم والفنون ولهذا فلا بد من ادخال الألفاظ الشائعة على الألسن من اللغات الاخرى لشيوعها ومرونتها ، من ذلك ما ذهب اليه أحمد لطفي السيد « لغتنا واسعة في القاموس ضيقة في الاستعمال ، خصبة في المعاني والمسميات القديمة مجدبة في المعاني الجديدة والاصطلاحات العلمية ، فقد انقطع رقيها من قرون طويلة .... الأتومبيل والبسكليت والجاكيته والبنطلون والجزمة والمودة كل هذه الأسماء ما ذنبها حتى تهجر في الكتابة الى غيرها من الألفاظ ... ان هذه الاسماء الاعجميه وأمثالها قد دخلت في لغتنا دخولاً تاماً واستعملت استعمالا شائعاً فلا نستطيع أن نضع لها اسماء جديدة لا يعتد بها أحد » (٣) .

وهناك دعوة أخرى قريبة من هذه تطالب باستعمال الحروف اللاتينية بدل الحرف العربي من ذلك ما ذهب اليه عبد العزيز فهمي وحجته في ذلك سهولة الكتابة فيها وعدم احتمالها

(٢) جرجي زيدان — اللغة كائن حي — ص ١٠٤ .

(٣) انور الجندي — المعارك الادبية — ص ٧٣ .

لعدة صور في المعاني . فكلمة (كتب) مثلاً تحتمل ان تكون فعلاً ماضياً مبنياً للمعلوم وللمجهول وجمع كتاب . وربما كانت هذه الدعوة متأثرة الى حد بعيد بحركة كمال أتاتورك حينما غير الحروف العربية الى حروف لاتينية في الكتابة والغاية منها إشاعة التعليم بين الجماهير المختلفة في زمن قصير والعمل على توطيد الصلة بين الثقافة العربية والثقافات العالمية المختلفة الامر الذى يساعد على نشر الثقافة وشيوعها بين مختلف طبقات الناس . لقد اخذت هذه الدعوة وامثالها وقتاً طويلا في الصحف العربية . فكانت مثار مناقشات طويلة وحادة أغنت الادب العربي وجعلت اللغة سهلة طيعة مقبولة في الكتابة والقراءة . ويقابل هذا الرأي رأي آخر لا يقل عنه تطرفا . يرى أن العربية من أغنى لغات العالم وانها ليست بحاجة الى هذه المصطلحات الحديثة التي تحط من قدرها وقدسيتها وتجعلها تابعة لغيرها من اللغات . وهذا ما سنعرفه عند الكلام على مجلة لغة العرب بعد قليل .

أما رواد النهضة الحديثة في القرن التاسع عشر . فقد وضعوا في حسابهم لغة جمدت في مكانها عدة قرون . وانهم يعيشون في عصر امتدت فيه النهضة الى كل جانب من جوانب الحياة . فكان عليهم أن يبعثوا هذه اللغة أولا وأن يطوروها ثانيا . وهو موقف يدل على شعور بالمسؤولية ، مقدر للتطورات . معترف بما للعربية من أصالة . فاذا كان الاولون قد تصرفوا باللغة واجتهدوا في حدود متطلبات عصرهم ، فالاجدر بهم أن يتصرفوا كما تصرف أولئك لانهم ورثتها ، وليس

الأولون بأكثر تمدنا من أهل هذا العصر . ولا حياة اللغة اذا لم يحاول أهلها التجديد فيها . ولهذا فقد استعملوا أدواتهم التي تساعدهم على ذلك . فنحتوا واشتقوا وعربوا ماشاء لهم اجتهادهم ، فأدخلوا كلمات جديدة ليس لها أصل في العربية . وأصبح لكل واحد من هؤلاء الاعلام اصطلاحات خاصة به كان أول من أوجدها واستعملها لتشيع بعد ذلك وسوف نقف على كثير من هذه الالفاظ في نهاية هذا الفصل .

لقد صورت الصحافة العربية كل هذه الآراء اذ نجدها منبثة في جريدة الجوائب والجنان والمقتطف وغيرها ، فصاحب الجوائب مثلا عني باللغة العربية وآدابها عناية تامة . وفتحت جريدته صدرها لكثير من العلماء والأدباء واللغويين في ذلك الوقت ، يقول الشدياق عن حبه للعربية « اني قد عشقتها عشقا وكلفت بها حتى صرت لها رقا . فلم يشغلني عنها هم . ولم يصدفني أرب خص اوعم ، فكانت أنسي عند الوحشة وسلواني عند الحزن وصفوي عند الكدر وسروري عند الشجن » (١) فكان أن قضى أكثر حياته في خدمتها ، الأمر الذي يدل على حبه للعروبة في لغتها . ولم تقف خدمته اللغة عند الجوائب فحسب بل ألف عدة كتب لغوية كانت مثار استحسان كثير من الناس في عصرها ، ومنها سر الليال في القلب والابدال والفارياق أو الساق على الساق . الجاسوس على القاموس ، منتهى العجب في غرائب لغة العرب . واليه ينسب وضع اصطلاحات عديدة وبخاصة في ميدان العلوم .

(١) انور الجندي — اللغة العربية بين خصومها وحماتها ص ١٣٦ .

ونجد ايضا مثل ذلك عند البستانيين ويعقوب صروف ورفاعة الطهطاوي والكرملي وغيرهم . قال صاحب لغة العرب « وقد توالت بعد ذلك الاحقاب والعصور واللغة لم تزل متسكعة في ديجور القبور الى أن مست الضرورة الى تدارك هذه الحال . فمن الله على العربية في النصف الاخير من القرن التاسع عشر ببضعه رجال هم على الحقيقة أولو عزم وحزم من فحول بر الشام ومصر ، ألا وهم الشيخ ناصف اليازجي والمعلم بطرس البستاني والدكتور كرنيليوس فانديك وأحمد فارس الشدياق ورفاعة الطهطاوي وعبد الهادي الأبياري . فيحق لهؤلاء الزعماء والأماثل ان تدون اسماؤهم بمحلول من التبر في صفحات التاريخ اجلالا لقدرهم » (٥) .

وكل واحد من هؤلاء اشتغل بالصحافة باعتبارها خير وسيلة لنشر اللغه واشاعتها فجاءت صحفهم تعج بهذه الاصطلاحات . وبالمقالات الكثيره في اللغه والادب . وبالمناظرات وبالمطارحات المختلفة التي كانت تقوم بينهم . لتحول هذه الألفاظ والاصطلاحات الى كلام سهل مقبول من القراء . وقد حفظت لنا الصحافة العربية كل تلك المطارحات ، نجدها في الجوائب والمقتطف والجنان والضياء وغيرها ، تقوم بين أشهر أعلام اللغة في ذلك الوقت . نذكر على سبيل المثال لا الحصر ما كان يجري من جدل بين الشدياق وابراهيم اليازجي على صفحات مجلة الجنان . قال الشدياق « لا يخفى أن الخواجا ابراهيم اليازجي كان

---

(٥) لغة العرب عدد ١١ سنة ١٩١٢ ص ٤٠٩ .

قد كتب في صحيفة الجنان مقالا خطأني فيه فيما أوردته على لفظة (الفطحل والمرابض) (٦) ثم انتقل منها الى بعض ألفاظ وردت في مقدمة سر الليال في القلب والابدال وأطال لسانه بالتهكم والتنديد مكافأة لي على كوني رثيت أباه ...

ان تحطئته كانت ظاهرة ولأن كلامه كله بني على المغالطة والتمويه وتلك صفة كثير من آمثاله الذين زببوا قبل أن يحصرموا ، فاذا قالوا شيئا فانما يريدون به اعجاب جيرانهم ومعارفهم من الاغبياء لا ارضاء العلماء . الا اني لما استقر بي المقام في الآستانة رأيت الجواب عن سقطة المذكور أولى من السكوت . لكي يعلم الناس أني ما زلت مراعيا لحقوق العربية التي تقضي علي بأن اردع كل سفيه عنها ..»(٧).

ومع ما في هذا من تحامل مقصود به الاذى والتعريض بالخصم، الا أنه تحامل مقبول . يجعل اللغة أداة طيعة في التعبير ، كما أنه يشكل عنصر إثارة في مجال النشاط الفكري والثقافي . وقد رد عليه الشيخ ابراهيم اليازجي في نفس العدد فقال « قد علم الكثيرون ما وقع بيني وبين احمد فارس بسبب ما أورده في صحيفة الجوائب من الاعتراض على أبي رحمه الله في مسألة (الفطحل والمرابض) وما أجبته اذ ذاك

(٦) الفطحل كما جاء في لسان العرب : دهر لم يخلق الناس فيه بعد . وزمن الفطحل زمن نوح النبي . وجمل فطحل ضخم .

والمرابض الغنم كالمعاطن للابل واحدها مربض .

(٧) الجنان عدد ٢١ سنة ١٨٧١ ص ٧٢٩ .

بصحيفة الجنان ، فكأنما أوغر دلك صدره وكبر عليه أمر تخطئتي له فيما اعترض به . وتنبيهي على بعض ما رأيته من الخطأ في كتاب سر الليال . فأخذ في الوعد والتنديد مرة بعد الأخرى ... حتى عدل الى المسافهة والمهاترة وصرح بما لا يليق دكره . فعجبت من ارتكابه هده الخطة المنكره لأننا كنا فد دخلنا في أول الأمر من باب المناظرة الادبيه ... وفد كنت احسب ان تمادي الايام قد حان له أن يهذب من أخلاقه ويسكن عنده أسباب الحلم والدماثة والصبر على المكروه اكثر مما أرى في نفسه هذه المرة . فاذا دمه لم يزل على حرارته المعهودة » وفد استمر هدا الجدل في اعداد كثيرة من مجلة الجنان تغنى العربيه بآداب المناظرة مما كان له أكبر الاثر على الاساليب والاهتمام بالناحية العلمية .

ولم تكن اللغة هي المجال الوحيد لهذه الصحف ، فقد أولت الادب عناية خاصة . واهتمت بالأخبار والاكتشافات العلمية الحديثة، وكانت وسيلة للنقل والترجمة عن اللغات الأجنبية مما جعلها بحق جسرا الى عصرنا الحديث .

اما الصحافة العراقيه فلم تتح لها فرصة المشاركة في هذه الحركة اللغويه التي كانت تجري في الصحافة العربية . وذلك لتأخر العراق في اصدار الصحف الشعبية نتيجة ظروف البلاد الخاصة . غير انه منذ ظهور هذه الصحف . بدأت تشعر بالمسؤولية . وأولت هذه الناحية ما تستحقه .

واهتمام الصحف الرّائدة في العراق باللغة العربية ، انما يعبر عن طبيعة المرحلة التي وجدت فيها هـذه الصحف — وهذا امر طبيعي — لأن البلاد في هذه الفترة كانت تحكم حكما مباشرا من قبل العثمانيين، كانت فيها اللغة التركية هي اللغة الرسمية السائدة في المعـاملات الحكومية والمدارس الاميريه . ولم يكن من المعقول والحالة هذه أن تهتم الصحف باللغة ذاتها نحوا وصرفا ولغة وتركيبا ، قبل أن تهتم بما هو أكثر ملائمة للاوضـاع . والا كان عملها كمن يحاول أن يضـع الشيء في غير موضعه . ومن هنا انصب اهتمامهـا على المطالبة باستعمال اللغة العربية في المدارس الابتدائية وفي المعاملات الرسمية والمحاكم ، قبل الاهتمام باللغة ذاتها . باعتبـار أن هذا القطر عربي ، يتكلم أهـله العربية ، فلا حاجة لارغامه على استعمال لغة بعيدة عنه ، وهـذا ما نلاحظه في جريدة الرقيب وجريدة صـدى بابل . فقـد كانت هاتان الجريدتان — وبخاصة الأولى منهما — تلحان على استعمال العربية في كثير من مقالاتهما ، في وقت كانت فيه أمثـال هـذه الدعوات تعرض صاحبها لأقسى العقوبات . من ذلك قول جريدة الرقيب « كلنا نعرف أن الاولاد المتعلمين في المكاتب الابتدائية الذين حازوا الشهادة منهـا لا يعرفون شيئا من اللغة التركية لان تلك المـدة لا تكفيهم لتعـلم اللغة تكلما فضلا عن القراءة والكتابة بها . ولا يعرفون شيئا من القواعد العربية فضلاً عن التحرير بها ، فماذا حصل لهم من الفوائد من وجودهم في المكتب ؟ أما لو كان التعليم في المكاتب الابتدائية بلغة الوطن العربية

لتمكن الولد أن يتعلم في مدة بقائه فيه ما يمكنه من تحرير جواب كتاب يرد اليه . . أليس من الخزي والعار أن لا نجد في بلاد العرب من يحسن كتابة سطر بالعربية ؟ أليس هذا من الأسباب لانقراض هذه اللغة الشريفة ؟ » (٨) . تعليل منطقي معقول . فالأطفال في مثل هذه السن المبكرة يجدون صعوبة كبيرة في تعلم لغة لا يستعملونها في البيت أو في الشارع ، ومن هنا تضيع الفائدة المتوخاة من دراستهم ويذهب الوقت عبثاً . فلا هو بقادر على أن يكتب بالتركية ولا هو بقادر على أن يكتب بلغته العربية . وفي المقال بعد هـذا ما يدل على شعور بالمسؤولية اذا أخذنا بنظر الاعتبار هذا التعصب للتركية ومحاولة إرغام الناس على تعلمها . وربما كان هذا هو السبب الذي أفقد الناس الثقة بهذه المدارس وإرسال اطفالهم اليها . كما أفقد العربية حرية الحركة والمرونة لقلة استعمالها وانزوائها في مناطق معينة حيث الجوامع والمساجد بعيدة عن الاستعمال الحديث . ولم تكتف جريدة الرقيب بهذا بل راحت تهتم بأخبار اللغة وكل ما يؤول الى تقدمها فكان من ذلـك قولها : « من أخبارنا الخصوصية أن الحكومة العثمانية عازمة على جعل اللغة العربية لساناً رسمياً كالتركية ، وربما تقرر هذا في القريب العاجل ، وحينئذ تكون الحكومة العثمانية أول حكومة ذات لسانين رسميين ، ولعمري أنه لخبرهام يهش له كل عربي بحث .... » (*) غير أن هذا الشعور بالتفاؤل ، لم يكن في محله ، اذ سرعان ما ظهرت نزعة التتريك

---

(٨) جريدة الرقيب عدد ١٢ سنة ١٣٢٧ هـ .

(*) ن . ف عدد ٩٦ سنة ١٣٢٨ هـ .

وقضت حتى على هذا النزر اليسير . فحينما عين ناظم باشا والياً على العراق قام بأمور غريبة أهمها محاربة العربية في موطنها « قد كان حضرة والينا ناظم باشا أعلن منذ قدومه للولاية عدم قبول الأوراق التي ترد الى الدوائر الرسمية باللغة العربية » (٩) .

ولم يكتف بذلك بل حارب الصحافة العربيه وألغى القسم العربي في جريدة الزوراء الرسمية كما ذكرنا .

ولما جاء عهــد الاحتلال البريطاني لاحظ المحتل مدى اهتمام العراقيين بلغتهم فأخذ يضرب على هذه النغمه . ويجعل منها وسيلة تقرب الى الشعب العراقي . فأنشأ المدارس وجعل العربية لغــة التدريس . وأصدر جريدة العرب التي أولت هذه الناحيه عنايتها واتخذت منها وسيلة دس وطعن على الاتراك كقولها : « كيف فسدت اللغة العربية حتى انحطت الى هذه الدركات من التسفل ؟ سببه الترك . تلك الأمة الفاسدة المستبدة . التي أخذت على عاتقها أن تفسد كل صلاح على الأرض . حتى ان من جملة ما آلت به على نفسها أن تفسد لغة عدنان ، لغة قريش ، لغة هاشم أفصح من نطق بالضاد ، لغة دين المسلمين ، لغة شريعتهم وآبائهم وأجدادهم ... وبقى الأمر جارياً على هذا الوجه حتى سقوط بغداد في هذه السنة . وكان الأتراك قد أقاموا عدة مدارس يدرس فيها لسانهم على الأساليب الحديثة وليس في المدينة كلها مدرسة واحدة عربية للتعليم ، سوى بعض كتاتيب لا يلتفت اليها لخمولها ...

---

(٩) الرقيب عدد ١٣٥ سنة ١٣٢٨ هـ .

وما أن دخل الإنكليز إلا وأجبروا الناس على تعلم اللغة العربية في جميع المدارس . وصرحوا بأنهم لا يهمهم تدريس الانكليزية فيها ...» (١٠) طعن على السياسة التركية في أهم نقطة تشغل بال الرأي العام حينذاك ودعاية لسياسة المحتل الذى أولى هذه الناحية ما تستحقه من عناية .

وعلى كل حال فإن خدمة اللغة العربية في الصحافة العراقية خدمة لغوية صرفة لم تظهر إلا في بداية العقد الثاني من هذا القرن بظهور مجلة لغة العرب المشهورة لصاحبها العلامة اللغوي الأب أنستاس ماري الكرملي .

لقد أدت مجلة لغة العرب خدمة كبيرة للعربية وآدابها ، حتى أن دراستنا لتبدو ناقصة الى حد بعيد اذا نحن لم نعطها ما تستحقه من عناية تليق بها وبصاحبها الذى خدم لغة الضاد خدمة تذكر فتشكر .

أما صاحبها فراهب متبتل إنصرف بكليته الى خدمة اللغة العربية وآدابها فلم يعد يشغله عنهما شاغل . كما كان موسوعة علمية قائمة بذاتها : يرتبط اسمه بمجلة لغة العرب التي كان لها تاريخ حافل في هذا المجال . ونعتبر بمثابة الجسر الذى عبر عليه كثير من رواد النهضة العراقية الى عصر النور والعرفان .

وتبدو أهميتها اذا تذكرنا لغة تعاني سكرات الموت ، لما مر عليها من ظروف قاسية وطويلة . كانت اللغة التركية هي اللغة السائدة في المدارس والمعاملات الرسمية . في حين كانت العربية منزوية في الجوامع

---

(١٠) جريدة العرب عدد ٥ سنة ١٩١٧ .

ومدارسها القليلة ، بعيدة عن كل ما هو خارج عن حدودها ، اذا تذكرنا هذا كله أدركنا مدى الجهد الذي قامت به لغة العرب وصاحبها في خدمة اللغة العربيه وآدابها .

لقد كان الكرملي حارساً أميناً وشوكة في عيون أولئك الذين يدعون الى استعمال العامية بدل الفصحى أو الذين يدعون الى استعمال الحروف اللاتينية بدل الحروف العربية . لما له من قدرة علمية بارعة تستطيع أن تقول رأيها في المعضلات . قال البروفيسور جب « لو خيرت في انتخاب عبارة واحدة لوصف الاب الكرملي لأخترت عبارة شديد المراس ... لقد كان بارز الشخصية في كل مجتمع . لما له من مظهر نفاذ يتألف من مسوح الرهبانية . ومع هذا فقد كان يحتفظ ببساطة نادرة وعقلية فذة حتى نهاية حياته ... وحسبنا دليلاً على ما نقول انتخاب الاب الكرملي ممثلاً عن العراق في المجمع اللغوي العربي الذي انشيء في القاهرة سنة ١٩٣٣ ففي ذلك اكرام لشخصيته وتقدير لمكانته كعالم لغوي وأديب فذ ، ويكفي أن آتي على خدمة من خدماته العديدة التي قدمها الراحل للأدب العربي ألا وهي تأسيسه لمجلة لغة العرب ، ابان حكم الاتراك فنال شهرة ملموسة رغم الظروف فقد بلغت شأواً عظيماً في الاوساط الأدبية لما فيها من مقالات في شتى المسائل اللغوية والتي دبج معظمها هذا العلامة بنفسه » (١١) .

ولم تقتصر مجلة لغة العرب على اللغة وحدها ، بل كانت مجلة

---

(١١) جريدة الزمان عدد ١٩٧٠ سنة ٩٤٧ .

فكرية جامعة الى أبعد حد لشمولها واهتمامها بالثقافة العربية ، وعلى هذا الاساس اعتبرها كثير من المستشرقين والمهتمين بالثقافة العربية أكبر مرجع لهم في دراسة الأدب العربي الحديث الذي لم يتأثر بالثقافات الاجنبية كما فى مصر وسوريا . كتب المستشرق الالماني كمفاير « إن مجلة لغة العرب التي يحررها الأب الكرملي فى العراق هي المجلة الوحيدة التي تزخر بالمقالات العلميه والنبذ التاريخية والقصائد الشعرية ، واني أنصح المستشرقين الأفاضل أن يطالعوها بامعان لأنها عربية محضة . وكتابها وشعراؤها من العرب الأقحاح . واني أفضلها على كثير من المجلات فى مصر وسوريا . لأن مجلات مصر وسوريا كتابها وشعراؤها يترجمون عن الافرنجيه . وقد تحقق عندي أن في العراق كتاباً وشعراء مجيدين . ولكنهم من قبل أن تصدر لغة العرب يبعثون ببنات أفكارهم الى جرائد مصر وسوريا ولا يضعون اسم العراق ازاء أسمائهم فلذلك أهملوا . فعليكم أيها المستشرقون بمطالعه لغة العرب لتستفيدوا من مواضيعها العربية البحتة » (١٢) ولا غرو في ذلك فقد تهيأت لهذا العلامة من الظروف ما لم تتهيأ لغيره . دخل مدرسه الاباء الكرمليين وبقي فيها الى الحاديه عشرة من عمره حيث أدخل مدرسه الاتفاق الكاثوليكي وبقي فيها سبعة أشهر درس خلالها مبادىء النحو والصرف على الشماس يوسف خياط . ليعود بعدها الى مدرسه اللاتين الكرمليين ، حيث تلقى هنا مبادىء الفرنسيه . ويبدو من خلال دراستنا لهذه الشخصية أن حبه

---

(١٢) جريده الاخلاق عدد ٢٤ سنة ١٩٢٧ .

للعربية جاء عن طريق دراساته الخاصة في كتب النحو واللغة والتصرف ، حتى اذا ظهر منه هذا الميل والنبوغ عينه مدير الارسالية الكرملية مدرسا للعربية وآدابها في المدرسة المذكورة ولم يتجاوز عمره حينذاك السادسة عشرة . (١٣) وبعدها ذهب الى بيروت ودخل المدرسة الاكليرية للاباء اليسوعيين ، وهناك درس العربية واللاتينيه واليونانية . وبعد أكثر من سنة غادرها الى بلجيكا حيث بدأ حياة الرهبنة فسمي الأب أنستاس ماري الكرملي . ثم ذهب الى فرنسا وهناك درس الفلسفة واللاهوت والكتاب المقدس والتاريخ الكنسي . وبعد مدة رحل الى أسبانيا لمشاهدة آثار العرب وخزائن الكتب والمخطوطات المختلفة ؛ ليعود بعد ذلك الى بغداد وتسند اليه ادارة المدرسة الكرملية التي كان تلميذاً فيها وليدرس العربية والفرنسية هناك . وفي سنة ١٨٩٧ تفرغ الاب الكرملي للوعظ والخطابة والكتابة في المجلات والجرائد من فرنسية وعربية ، ولم تبق مجلة او جريدة كبيرة إلا وطلبت اليه أن يكتب فيها ، تذكر مجلة الحرية البغدادية ان الأب الكرملي « حينما تفرغ للعربية وأسرارها أضطر أن يدرس بعض اللغات الشرقية لكي تساعده في معرفة أصول العربية فدرس الأرامية والعبرية والحبشية والفارسية والتركية ؛ فأخذ منها ومن أصولها ما يحتاج اليه للتعمق في دراسة اللغة العربية » (١٤) .

---

(١٣) انظر مجلة لغة العرب عدد ١ سنة ١٩٢٩ ص ٦١ .

(١٤) مجلة الحرية عدد ٦ ، ٧ سنة ١٩٢٤ ص ٤٥٥ .

تلك هي الظروف التي تهيأت للكرملي . حب للعربية منذ الصغر ، ودراسة متعمقة في كتب النحو واللغة والصرف ورحلات كثيرة لأمم متمدنة . ساعدته على ايقاظ خياله وتنمية تفكيره ، ولغات شتى لامم شتى عاونته على دراسة العربية والتعمق بها . كل هذا بعث فيه حب العمل لفائدة الناس . وبحث الرجل عن وسيلة يستطيع بها أن يعمم هذه الفائدة فلم يجد خيراً من الصحافة يمكن أن تفي بهذا الغرض ، وذلك لسرعة انتشارها وسهولة وصولها وعموم فائدتها .

لقد خلق الكرملي للصحافة وأفاد بالصحافة ونشر أفكاره وآراءه بالصحافة . ولع بها وجذبته اليها . وحينما لم تكن هناك صحافة في العراق كان يكتب بأفكاره الى الصحافة العربية أو الاجنبية ، ويذكر الاستاذ الحسني أنه كان للكرملي مجلة تدعى زهيرة بغداد وهي « مجلة أدبية شهرية كانت الى معالجة الابحاث الدينية والمذهبية أقرب منها الى معالجة الابحاث الأدبية والاجتماعية . أصدرها الآباء الكرمليون في بغداد سنة ١٩٠٥ واستمرت تصدر أكثر من سنة ونوارت عن الانظار »(١٥) ولم نعثر على شيء من هذه المجلة والظاهر أنها كانت دينية تبشيرية ، كما يذكر الحسني أن الأب الكرملي أصدر مجلة أخرى تدعى الايمان والعمل الى جانب زهيرة بغداد وذلك باللغة الفرنسية ثم احتجبت مع الأولى .

وقبل أن نقف على الجانب اللغوي في مجلة لغة العرب والصحافة

(١٥) الحسني — تاريخ الصحافة العراقية — ص ٢٥ .

العراقية . نرى من اللازم أن نلم بتاريخ هذه المجلة وأهميتها من الناحية الأدبية ، مسرعين .

أصدر الأب الكرملي مجلة لغة العرب في تموز (يوليه) من سنة ١٩١١ أبان فترة الحكم التركي للعراق ، واستمرت تصدر حتى الحرب العالمية الاولى ، حيث نفى صاحبها ظلماً وعدواناً كما يقول ، حتى اذا انتهت الحرب وكان الصلح عاد الى بغداد ، ولكنه لم يعد الى أصدارها بل أصدر جريدة دار السلام مدة تزيد على ثلاث سنوات وهي « مجلة شهرية تبحث في العلم والأدب والاجتماع والتاريخ وتعنى بشئون العراق الخاصة : أصدرتها حكومة الاحتلال البريطاني في بغداد وعهدت بادارتها إلى الأب الكرملي والى لفيف من الكتاب والباحثين لقاء أجور مغرية وبقيت حية ثلاث سنوات ثم توارت بصورة نهائية » (١٦) .

ثم اشتغل الكرملي بعد ذلك في جريدة العرب التي اصدرها المحتلون حيث أرادوا « خلق جريدة تخدم أغراضهم وأرادوا أول الأمر تسميتها بالاوقلت البغدادية غير أن الاب الكرملي يذكر أنه استشار في هذه التسمية محمود شكري الآلوسي فاقترح أن تدعى العرب فاستحسن السير برسي كوكس هذه التسمية » (١٧) .

وليس في هذه الجريدة اي اهتمام باللغة الصرفة ، وقد كان لعمله في هذه الجريدة آثار سيئة حيث اتخذها مخالفوه وسيلة طعن وجهت

(١٦) لغة العرب عدد ١ سنة ١٩٢٦ .

(١٧) روفائيل بطي — تاريخ الصحافة في العراق ص ٤٤ .

الى وطنية الرجل . فحينما أقيم له احتفال كبير في بيت رئيس الوزراء السعدون (١٨) بمناسبة عيد ميلاده الخمسين أو ما يسمونه باليوبيل الفضي . قامت الجرائد المعارضة له وللحكومة فصبت جام غضبها على الرجل كقول احداها « يكرمون الكرملي وأي شيء في الكرملي يستحق التكريم ؟ الكرملي أداة خلقها التنطع . وسهم فوقه التبشير ، وسيف صدىء جرده الاستشراق على رؤوس العرب الشرقيين ... ولا أبالغ اذا قلت أن مهمته كانت ولم تزل سياسية اكثر منها علمية .. حقا ان الحفلة كانت موقرة ولكن من هو المحتفى به . وقف سكرتير لجنة اليوبيل يعدد مزايا الكرملي ويقارن بين الزهاوي والكرملي من جهة ، وبين الشريف الرضي وابي اسحاق الصابي من جهة أخرى ، فما رأيت محاولة أسخف من هذه المحاولة . وتخرصا أقبح من هذا التخرص ، وهذا دليل على نقص في التربيـة والتواء في الخلق وجهـل بضرب المقاييس ... »(١٩) .

ولسنا بصدد التعليـق على هـذه الناحية ، لأن الرجل حينما خدم في جريدة العرب . كانت سمعة الانكليز وقتها حسنه باعتبارهم جاءوا محررين لا فاتحين . ويكفي أن نذكر للرجل هذه الخدمة الصادقة للعربية وآدابها . ردا على هؤلاء المعارضين له والذين حاولوا الحط

---

(١٨) سياسي معروف تولى الوزارة العراقية فى العقد الثالث من هذا القرن ، واقدم على الانتحار فى نهايته .

(١٩) جريدة الاستقلال عدد ١٣٢٨ سنة ١٩٢٨ .

من قدره الى أبعد حد . قال كاتب في مجلة الوميض البغدادية يتعرض للكرملي ايضا « ... وجدير بمن له أقل غيرة وحب بآثار العرب ، أن يحاسب هذا المشعوذ عن أعماله ، وان يضعه في ميزان النقد الادبي النزيه ليظهره للجمهور ولناشئة الأدب ورجاله في صورته الصادقة ليكونوا على علم بما هناك» [٢٠] هجوم غريب قد لا يكون في محله لأن للرجل مكانته العلمية في خدمته العربية وآدابها لا يمكن أن ينكرها منصف.

اما مجلة لغة العرب فهي أول مجلة عراقية تجاوزت حدود البلاد ، لتجد لها آفاقاً رحبة في البلاد العربية وفي غير البلاد العربية ، كما كانت مجموعة من الحركة التي لا تعرف التهاون والكسل بدليل هذا الفيض الغزير من الرسائل والتعليقات والمقالات التي تتوالى عليها من مختلف ارجاء العالم ، لتجد فيها جوابا لكل شيء يمكن أن يسأل عنه .

وكانت مقالاتها وبحوثها مثار مناقشات وجدل لا بين العرب فحسب بل وغير العرب من المستشرقين والعلماء . جاء في عددها الاول « انها مجلة شهرية أدبية علمية تاريخية بيد الآباء الكرمليين ، صاحب امتيازها الأب انستاس ماري الكرملي ومديرها المسؤول كاظم الجيلي » والدجيلي هذا أديب مشهور في عصره ، من ذوي الملكات المزدوجة فهو شاعر وكاتب .

ولكي نعرف هذه المجلة بدقة يجدر بنا أن ننقل شيئا من خطتها، لانها كانت مثال المجلة التي وضعت لنفسها خطة لم تحد عنها « بعد

(٢٠) مجلة الوميض عدد ١٢ سنة ١٩٣٠ .

حمده تعالى والشكر على آلائه والاتكال على مدده ، فقد عقدنا النية على اصدار هذه المجلة الشهرية خدمة للوطن والعلم والأدب . والغـاية من إنشائها ان نعرف العراق وأهله ومشاهيره ، بمن جاورنا من سكان الديار الشرقيه . وبمن نأى عنا من العلمـاء والباحثين والمستشرقين في الاقطار الغربيه . وننقل الى وطنيينا العراقيين ما يكتبـه عنا الافرنج وغيرهم من الكتاب المشهورين ... والذي دفعنا الى هذا العمل هـو أننا رأينا أغلب الجرائد والمجلات والصحف السيارة تبحث عن بلاد اصحابها ورجالها ولا تذكر الا النزر اليسير عن هذه الأرجاء ، فرأينـا من المناسب أن ننشيء هذه المجلة لتفي بما في الأمنية ليدخل العراق مصاف الربوع المعروفه بين الأمم المتمدنة المتحضرة ، أما الابواب التي تطرقها المجلة فظاهرة من اسم المجلة ومن الغاية التي توخينا من وضعها ، وزيادة على ذلك نعقد في كل جـزء من اجزائها تاريخ الشهر في العراق وندون فيه ما محص من الاخبار والوقائع التي جرت في العراق ونواحيه من ديار جزيرة العرب . ونكتب في كل عدد من أعدادها رواية تاريخية أو خيالية أو خيالية تاريخية معا يكون موضوعها أحد أبناء العرب أو جرت واقعتها في بلاد العرب ، ثم اننا لا ندع ديوانا من دواوين هذه المجلة الا ونورد شيئا من المصطلحات الحديثة والأوضاع العربيـة الطريفة مما يوسع لغتنا الشريفة ويحدو بنا الى مجاراة الاقوام المتقدمة في الحضارة المنيفة بمـا يستحدث فيها من الموضوعات العصرية والمدلولات العقلية والتصاوير الخيالية والافكار العلمية التي لا مقابل

لها ولا مرادف في لساننا في هذا العهد ... لا بد من وقوع هـــذه المجلة في أيدي بعض الفضلاء . فيستحسنها بعضهم ويستقبحها البعض الآخر . على أن مجرد الاستحسان والاستقباح بدون الاشارة على ما يحمل القاريء على أحد هذين الأمرين لا معنى له ، والمحق من يؤيد كلامه بالبرهان ... اننا لا نلتفت الى المدح والافراط فيه وان ظهر في كلامه وجه لصحته . لعلمنا اليقين بقصورنا ، ومن الآن نرحب بكل ما ينبهنا الى أغلاطنا بشرط أن يكون خالياً من الهوى ... » (٢١) .

فمن هذه المقدمة نستطيع أن نعرف خطة المجلة والميادين التي كانت تجول فيها . فهي لغوية أولاً بدليل كثرة المقالات التي تتناول اللغة . وبدليل كثرة الأسئلة اللغوية . والاصطلاحات التي تنشرها في ثنايا أعدادها على غير انتظام . وفيها أدب . وقد أولت الشعر عنايتها ، وقلما يخلو عدد منها من عدة قصائد . بالاضافة الى الروايات الأدبية المترجمة التي اهتمت بها في أعدادها الأولى . أما النقد الادبي فكان مجاله واسعاً فيها . وهو نقد يلائم خطتها ويغلب عليه الجانب اللغوي ، بالاضافة الى أبواب ثابتة في التاريخ والثقافة العامة . وقد كابدت هذه المجلة الكثير من المنغصات في حياتها وبخاصة في السنوات الأولى ، وهذا شيء طبيعي . فالعراق ما زال في بداية نهضته ، والناس لم يعرفوا قيمتها بعد ، فكان صاحبها يكثر الشكوى من الخسائر التي تلاقيها مجلته . وهي شكوى استمرت فترة طويلة من حياتها ، والظاهر أن السبب يعود

(٢١) لغة العرب عدد ١ سنة ١٩١١ .

الى أن هذه المجلة كانت جادة الى أبعد حد . وهو ما أفقدها الكثير من عامة القراء . وبقيت محدودة في مجال معين هو مجال العلماء والأدباء ، وهؤلاء قلة إذا قيسوا بجماهير القراء .

وتتغير حالة المجلة وتشق طريقها ، فتعرف بين العلماء والأدباء في غير العراق على الأكثر فلم نعد نسمع تلك الشكوى ، فقد وجدت لها سوقاً رائجة في مصر كما جاء ذلك في نهاية سنتها السابعة « بلغنا والحمد لله السنة السابعة من مجلتنا بفعل مشتركينا الكرام ... وهنا نوجه الشكر الى الأيادي البيضاء التي مدت الينا من الديار المصرية فيسرت علينا إتمام ما بدأنا به من مشروعنا خدمة للغة المضرية والمتكلمين بها »[٢٢] . وهي بهذا الاعتبار كانت ملتقى الناطقين بالضاد في مختلف الديار العربية . فالمقالات والأسئلة التي ترد اليها لا تخص قطراً دون آخر . فقد فتحت صدرها لكل ما يرفع الثقافة العربية ، كما كانت حركة ديناميكية لا تني في تشجيع أهالي البلاد على الكتابة اليها ، وبهذا تكون قد ساعدت على انساء الروابط القومية وساعدت على ايجاد شعور مشترك . وهذا وحده يكفي للرد على تلك التهم الباطلة التي تتعرض لوطنية الرجل . كل ما هنالك أنه ابتعد عن السياسة واهتم بالعلم لأجل العلم . ويكفي لأثبات اخلاص الرجل وحرصه على سمعة هذه البلاد وتراثها ما كان يقوم به من رد على تلك الدعوات الغريبة التي كان يطلقها بعض المستشرقين تحاملاً على العرب وثقافتهم ، فكانت تترجم

(٢٢) لغة العرب عدد ١ سنة ١٩٢٩ .

هذه الآراء وتعلق عليها وتحث الآخرين بأن يردوا عليها ، جاء تحت عنوان (اقتراح على علماء الشرق وأدبائه) وفيه « قرأت في مجلة العالم الاسلامي ص ١٨٣ في مجلدها الخامس عشر وفي عدديها السابع والثامن من تموز وآب من هذه السنة هذه العبارة الغريبة وهذا تعريبها : ان الفلسفة والعلوم المشهورة باسم العلوم العربية ، ليست في الحقيقة إلا عبارة عن شرح مؤلفات اليونان ، بخلاف الفقه فإنه من النتاج الخاص بالاسلام . ومن نتاجه النادر وهذا أيضاً لا يعتبر كذلك إلا طالما لا تظهر لحمة النسب بينه وبين فقه الروم . فنحن نطالب علماء الشرق والراسخي القدم في التاريخ الاسلامي أن يردوا على هذا المستشرق في الجرائد والمجلات بشرط أن يكون الرد خالياً من الطعن ومعززاً بالادلة والبراهين ، ونحن نرحب بكل مقالة تكتب الينا بهذا المعنى ونفتح لها باباً واسعاً في مجلتنا » (٢٣) .

وتبدو أهمية المجلة من الناحية الثقافية فيما كانت تثيره من حركة فكرية : لا داخل العراق فحسب ، بل بين كثير من الأدباء والعلماء والمستشرقين خارج القطر . بعد أن عرف هؤلاء فضلها ، يقول الكرملي « وقد رأينا من حسن التفات العلماء الينا على اختلاف مذاهبهم وديارهم ما يدفعنا الى اتمام ما بدأنا به ... وهنا نشكر جميع الذين شجعونا بكتاباتهم الخصوصية والعمومية .... كما أننا لا ننسى المستشرقين الذين جادوا علينا بهداياهم وتآليفهم وبادلونا بمجلاتهم مع صغر مجلتنا

(٢٣) مجلة لغة العرب عدد ٥ سنة ١٩١١ ص ١٩١ .

هذه وحداثة شأنها . وما ذلك إلا لحسن أعراقهم وعظيم فضلهم اذ لا يعرف الفضل إلا ذووه » [٢٤] .

وقد ترجم الكثير من مقالاتها الى اللغات الاجنبية بالاضافة الى ما كانت تنقله بعض الصحف العربية عنها « ومما يدل على أن مجلتنا راقت كثيراً من الادباء من متعربين ومستعربين أن طائفة من مقالات السنة الماضية نقلت الى الانكليزية والفرنسية والايطالية والالمانية ، ومنهـا ما تناولته صحفنا ومجلاتنا الشرقيـة من شاميـة ومصرية وعراقية » [٢٥] .

لقد كانت الصحافة المجال الذي اتخذه الادباء وسيلة لنشر أدبهم واذاعته : لأنها تمتاز بسرعة انتشارها وشيوعها بين عدد كبير من الناس، يتأثرون بما فيها من الفاظ وتعابير ومصطلحات حديثة ، لا تلبث أن تجرى بها الاقلام وتدور على الألسنة . وهي من هذه الجهة عامل من عوامل شيوع الفصحى الخالية من الدخيل والفساد . وتاريخ العربية الحديث يعتد بجريدة الجوائب ومجلة الجنان للبستانيين ومجلة الضياء لليازجي والمقتطف لصروف ولغة العرب للكرملي وغيرهم .

والحركة اللغوية التي قامت في العراق جاءت متأخرة بالنسبة لبعض البلاد العربية الاخرى . ولكنها مع هذا لم تكن صدى لتلك الحركة اللغوية التي رأيناها في الصحف التي كانت تصدر في النصف الثاني من

(٢٤) مجلة لغة العرب عدد ١ سنة ١٩١٢ ص ١٠١ .

(٢٥) ن . ب عدد ٣ سنة ١٩١٣ .

القرن الماضي . بل كانت حركة مكملة لها ، لأن البحوث اللغوية لا تعرف الجمود . وعلماء اللغة الحقيقيون يتطورون مع تطور اللغة وملائمتها العصر وحاجتها الى مزيد من الاصطلاحات الحديثة .

وقد تحملت مجلة لغة العرب في العراق أعباء هذه الحركة لوحدها على الأكثر . وذلك واقع تكشفه الصحافة العراقية نفسها ، وكل ما جاء في غيرها — على ندرته — ليس غير صدى لمجلة لغة العرب وبحوثها او تقليداً لبعض أبواب هذه المجلة .

ومن يتمعن في دراسة هذه المجلة يلاحظ أنها تتوسل الى خدمة اللغة بطرق مختلفة . وأهمها المقالات التي يكتبها الكرملي وغيره من اللغويين . ثم المجادلات والمطارحات التي تنشأ بينهم بفعل اختلاف وجهات النظر وطرق الاجتهاد . ثم هذا الفيض الغزير من الأسئلة التي ترد الى هذه الصحف من قرائها . وأخيراً اصلاح الاخطاء المختلفة التي يعثر عليها هؤلاء اللغويون أثناء قراءاتهم لمختلف الصحف والمجلات .

أما المقالات فكانت النغمة الغالبة عليها ، هي محاولة ادخال المفاهيم اللغوية الحديثة ، وتهيئة اذهان الناس لتقبل هذا التجديد ، وبخاصة بالنسبة لأولئك الذين ما زالوا يعتقدون أن العربية غنية لاتحتاج الى كل هذه الالفاظ الحديثة والمصطلحات الجديدة . وأن ما فيها من امكانيات خاصة تجعلها صالحة لكل زمان ومكان .

كما كانت ترد على اولئك المتطرفين الذين يرمون العربية بالجمود ويجعلونها قاصرة عن استيعاب هذه المصطلحات الحديثة فدعوا الى

استعمال العامية او استبدال الحروف العربية بالحروف الأجنبية وهنا يقف الكرملي وغيره من لغويَّي مجلة لغة العرب امام هذا المد الغريب، غير مبالين بما كانوا يتعرضون له من نعوت وأوصاف « والاب الكرملي معروف بعصبيته الحادة للغة العربية الفصحى والتصلب في الرجوع الى ما نطق به السلف الصالح وهو يكره التوسع والنحت والاشتقاق ولا يتساهل في استعمال الكلمات غير القحطانية . الى حد التمسك بمذهب القديم بل الى حد الجمود » (٢٦) .

ويبدو للمتتبعين لأراء الكرملي في اللغة . خطل هذا الرأي، بل ان بعضهم يتطرف أبعد من هذا ويجعل الكرملي مولعاً بالغريب، ويهتم باستعمال ألفاظ مهجوره « فهو فهرست لأسماء الكتب اللغوية، وهيكل منقوش على صدره كل غريب غير مألوف وكل ما لا يستعمل من الالفاظ المعقدة المهجورة وكل حوشي من الكلام الجاف والمفردات المستنفرة » (٢٧) .

رأي لا ينطبق على واقع الرجل . ومقالاته الكثيرة خير شاهد على ما نقول، اذ من النادر أن نعثر فيها على لفظة غريبة أو مهجورة، بل اننا لنحس وكأننا لسنا أمام عالم لغوي كبير يعرف أسرار اللغة وخفاياها، وهو لا يعرف التكلف والتعقيد في كل ما يكتب . والمشهور عنه « أنه لا يعرف التسويد والتبيض بل يكتب مقالاته مرة واحدة ويدفع بها

---

(٢٦) جريدة العراق عدد ٢٥٧٧ سنة ١٩٢٨ .

(٢٧) جريده الاستقلال عدد ١٣٢٨ سنة ٩٢٨ .

الى المطبعة » (٢٨) .

والمقدمة التي ذكرناها قبل قليل خير شاهد على ما نقول ، ولكي نعرف رأيه في اللغة وأسلوبه ننقل ما قاله في مجلة لغة العرب « كثر التساؤل والترداد في هذه الايام عن اللغة العربية وتجددها وموافقتها لأهواء هذا الزمان ومقتضياته . الحقيقة أن العربية في حاجة الى التجدد، ولكن ليس الى مثل ذلك المقدار الذي يفهمه المغالون والمتطرفون بل الى مقدار معلوم وبحدود الآن . أما في المستقبل فنحتاج الى الضروري من التعديل شأن اللغات الأخرى الحية . وهي ليست كما يتشدق عنها الرجعيون المتعنتون الذين ينعتونها بكل ما وسعته المعاجم من الألقاب الفخمة ، ويزعمون أنها بغناها وكثرة مترادفاتها ومتوارداتها ومفرداتها قادرة على أن تقوم بلوازم العصر ... وانها وان كانت حائزة على درجة من الرقي والجمال لكنها في عوز من الاوضاع العصرية ، فعلينا أن لا نغتر كثيرا ولا نتوهم ما هو مناف للواقع بعيد عن الحقيقة بعد الثريا عن الثرى ونأخذ بقول أحدهم :

ان الذي خلق البرية كلهــا   جعل الجمال وسره في الضاد

أهذا تخيل ؟ أسفاسف ؟ العربية ليست بأكثر جمالا وأعز مكانا وأوفر غنى من اليونانية واللاتينية والفرنسية مثلا ، ولكل لغة ميزتها الطبيعية . ولكننا نعلم أن العربية جمدت في مكانها أربعة قرون فلم تتحول عما كانت عليه ... اننا ورثة هذه اللغة ومن آل اليه أمر بالوراثة

(٢٨) مجلة الجزيرة عدد ١٢ سنة ٩٤٧ ص ١٣ .

تصرف فيه كما يشاء وآنى أراد فلم لا نتصرف فيها حسبما نريد ؟ أو ليست اللغة ملكاً مشاعاً لنا ؟ أكان العرب الذين أورثونا اياها ارقى منا واكثر تمدنا ؟ اذن ما الذي يمنعنا من فعل ما فعلوا ... فلا حياة للغة ما لم يحاول أبناؤها التجديد فيها . العربية يعوزها الكثير من الاصطلاحات الفنية والعلمية والادبية لتعاصر غيرها فهي سهلة القياد لينة التكيف » [٢٩] هذا وحده كاف للرد على من يرميه بالجمود ، فهو يقسم اللغويين الى جامدين لا يأبهون بالتطورات العصرية ، ومغالين متطرفين لا يشعرون بالمسؤولية وكلاهما لا يساعدان على انماء اللغة وتطورها ، وعنده أن اللغة يجب أن تسير على خطى متئدة مدروسة بعيدة عن التهور والارتجال وإلا كانت هناك عواقب وخيمة لا يمكن التحكم فيها . فاللغة المتطورة هي التي تفي بحاجات العصر وتتسع لكل جديد ؛ ومن هنا راح يحصل على من يصفها بالكمال .

أما أسلوبه فليس فيه ما يدل على شغف بالغريب وبحث عن الالفاظ المهجورة . بل هو أسلوب عالم لا يتأنق في العبارة ولا يهتم بتوشية الألفاظ المهجورة ، همه أن يعبر عن أفكاره بسهولة ويسر .

وكانت مجلة لغة العرب أول مجلة دعت الى انشاء المجامع اللغوية في العراق وبينت أهميتها في حفظ اللغة من العبث والاهواء يتولى أمورها علماء يعرفون جيداً المسؤولية الملقاة على عاتقهم . قالت : « أجل انك تجد مجمعاً لغوياً في كل أمة من أمم العرب .. والغاية منه

(٢٩) لغة العرب عدد ٢ سنة ١٩٢٩ .

الدأب في تحسين لغة أصحابه ولذا نرى أن اعضاء هذه الاكادمية من كل أمة يسهرون على حفظ سلامة اللغه من كل خلل أو فساد ، ويقتبسون من عوامهم بعض الألفاظ المأنوسة التي لا مقابل أو مرادف لها في لغتهم الفصيحة والتي لا مندوحه لهم عنها للتعبير عن افكارهم ، لتجعل لغة قومها حيه ، ابنة اليوم والعصر . تعتذي بأطعمة جديدة لتعوض فيها عما فني وبقي منها لقيامها بوظائف الحياة ، وتقذف من احشائها ما لم يعد صالحا لبقائه في المذاخر ... على أن الاكادمية اذا كانت واحدة قد تهفو اذ لم يعارضها معارض . اما اذا ناظرها منتدى آخر لغوي كفؤ لها وناقشها في المسائل وجادبها أطراف ما يقع في الخلاف خلصت اللغة من كل شائبة مشوب » (٣٠) .

والحقيقة أن وراء هذه الاختلافات مزيداً من الحرص على اللغة ومزيداً من الحث على الدراسة المتزنة أوجدتها ظروف الحياة الجديدة ، في وقت هجمت فيه المصطلحات الحديثة هجوماً غريباً ، الأمر الذي جعل حماة اللغة أمام مسؤولية كبيرة . فاما أن يقفوا صامتين بحجة قدسية اللغة ، واما أن يجاهروا بآراء غريبة لا تخدم اللغة ولا الأمة التي تتكلمها ، واما أن يستخدموا عقولهم ليجعلوا اللغة حية نامية تتطور مع عصرها . والمعروف عن العرب أنهم حينما يحسون بتغلب عنصر غريب يلتفتون الى لغتهم لتحميهم من خطر الذوبان في هذه العناصر ، ولهذا تراهم يحرصون عليها الى حد تراهم يجمدون عندها ويعدون

(٣٠) مجلة لغة العرب عدد ١ سنة ١٩١١ ص ٧ .

العربية أغنى لغات العالم وأنها لا تحتاج الى هذه الألفاظ الدخيلة ، معتمدين في ذلك على قواميس اللغة . مع أن كثيراً منها قد بطل استعماله ولم تعد تواكب العصر الحديث . فألفاظ الصحراء والابل وصفاتها والرمح والنحل والسيف وغير هذا الكثير . لم تعد تتداول بين الناس كما كانت سابقاً . فحلت محلها اصطلاحات حديثة هي ابنة وقتها .

واللغة الحية هي التي تتطور مع عصرها لتتقبل وتستوعب هذه الاصطلاحات وإلا تحولت الى أثر جامد لا حس فيه ولا حركة ومن هنا كانت هـذه الألفاظ الجديدة الشغل الشاغل للمفكرين والمترجمين والمؤلفين بالاضافة الى علماء اللغة . لقد صار كل من يضرب بسهم في العلوم الحديثة يشعر بفقر اللغة العربية من هذه الاصطلاحات التي تحتاج اليها هذه العلوم . لأنها وليـدة الحاجة . وحاجات الانسان لا تنقطع . والاكتشافات والاختراعات لا أول لها ولا آخر ، تحتاج الى عمل لغوي مستمر وحركة لا تعرف الجمود في سبيل ملائمة هـذه الاوضاع الجديدة .

ومهما يكن من شيء فان هذه الآراء حفزت الى العمل ، فكان نتيجة هذا كله . هذه الحركة اللغوية التي مهدت الطريق أمام جيلنا الحاضر لنجد لغة تعبر عن الحياة وحاجاتها ولهذا فنحن مدينون لهم بذلك الجهد الذي بذلوه .

وكانت ترافق هذه المقالات محادلات كثيرة تقـوم في اكثرهـــا على اختلاف في وجهات النظر او الاجتهاد . ومن هنا تأتي فائدتهـا مزدوجة . فهي في الوقت الذي يصل فيه الناس الى نتيجـة من هذه

المجادلات فانها تسهل اللغة وتمنح الناس قدرة وقابلية على التعبير .

وقد حفلت الصحافة العراقية بكثير من هذه المجادلات ، كالذي حدث بين الكرملي وجبر ضومط ومن ذلك هذا الرد للكرملي : (٣٠)

« كنا قد كتبنا مقالة في المقتطف في عدد شباط من هذه السنة موضوعها (اداة التعريف في التاريخ) فلم يستحسنها حضره الاستاذ جبر ضومط فكتب رأيه في عدد يوليو تموز مبينا خطأنا في نظره ، ولما وقفنا عليها وجدناها من نسج ما حاكه في هذه السنين الثلاث من المذاهب اللغوية وبثه في مجلات سوريا ومصر . أي أنه حبر مقالاته ليقال عنه تكلم جبر ضومط ؛ اما ان هناك آراء مفتولة وأدلة منطقيــة معقولة فلا أثر له . وما كنا ان نجيب عليها لجمودها بل قل لهمودها ، اذ انها واهية الاركان من جهاتها الاربع . لولا ان احد الاعزاء ألح على أن نقول كلامنا الاخير في صدر ما يكتبه حضرة خصمنا فنقول : ان صديقنا لا يكتب ما يكتب توخيا للحقيقة بل يحبر مقالاته ليقال عنــه تكلم ولا يهمه أن يكون الكلام صحيحا أو خطأ ؛ اذ غايته الكلام لاغير وأول شيء نأخذه عليه أنه لم يهتد حتى الآن لكتابة اسمنا . والثـاني أنه لا يرى في كلامنا بلاغة ولم نفهم ما يريده بهذه الكلمة ، والعاقـل لا ينطق بكلمة الا يؤيدها بالدليل ؛ وكلامه هذا بلا دليل . الثالث : من غريب ما كتبه في رده أنه لم يفهم معنى الخصم فقد ظن أن معناه العدو ولهذا قال : (ولكننا ننكر عليه أن يحسب من ينـاقش آراءه

(٣٠) من اراد المزيد عن الكرملي وارائه اللغوية فعليه بكتاب الاستاذ الدكتور ابراهيم السامرائي وهو (الاب انستاس ماري الكرملي وآراؤه اللغوية) .

خصمنا لهم) • نعم أن بعض من يردون علينا أقوالنا يردونها لأنهم أخصامنا، ولكن بعضهم قد يكونون من أحب أحبابنا وأخلص أصدقائنا ، وهذا واضح على ان حضرته لم يفهم حتى الآن ما يراد بالخصم ، فالخصم ياسيدي قد يكون عدوا وقد يكون أحب احبابنا ؛ فما عليك إلا أن ترجع الى كتاب لغوي لتتحقق أن الخصم هو المجادل لا غير •

والرابع : معارضتنا أن (ها التعريف) مقتطعة من فعل الوجود العبري وهو (هوى يهود) بحجة ان الاقدمين لم يقولوا بقولنا كما لم يذهب اليه أحد من المستشرقين فما هو من كلام يزري بالجمان ••• فياحضرة الاستاذ ان المسألة مسألة اجتهاد ولا ينظر فيها أكان الاقدمون قالوا بها أو لم يوافقوا عليها . وعقلاء عهدنا هذا يأخذون ما يقبله العقل من الحجج والبراهين لا ما نحتقره أولا نقنع به . فقد مضى زمان هذا الرأي العقيم مع أصحابه والنازعين اليه فكيف تقول به الان •• •• » [٣١] • وهنا رد صريح على الذين يرمون الكرملي بالجمود أو أولئك الذين يتهمونه بالبحث عن كل لفظة قديمة أو مطمورة ليضعها في كتاباته . حتى اننا لنذهب مع الرأي القائل بأن الكرملي لا يعرف التسويد والتبييض في كتاباته • ومثل هذه الخصومة ما حدث بين الشيخ عبد الله البستاني وبين الكرملي نفسه ؛ نكتفي بالقليل لندل منها على ما لهذه المجادلات من أثر في مجال في اللغة قال الكرملي

(٣١) لغة العرب عدد ٩ سنة ١٩٢٩ ص ٧٠٨ .

« اطلعت في العدد الثاني من جريدة الناشئة الجديدة على بعض الرد المنقول عن صحيفة الوطن انشأه حضرة اللغوي الكبير صديقي المحبوب واستاذي البارع الشيخ عبد الله البستاني ... وقد صدر مقاله بكلام أطول من يوم الجوع ، جدير بأن يكون مقدمة لكتاب ضخم وليس المراد من تلك السطور أن أبين ما في تلك العبارات من النزعات المنكرة ولا ما فيها من المناحي المستهجنة كما انني لا أتعرض لما ورد فيهـا من الألفاظ المتنافرة والحروف المتشابكة مما يمجه اسماع فصحـاء العرب وان قدموا ، ولا أن أعدد الاغلاط التي تدفقت فيها تدفق الغثاء في السيل العرم ، ان غايتي أن أوجه الأنظار الى ما خطأني فيه ليثبت للنـاس ساقط كلامـه ونبوه عن منهـج الصواب . قال حضـرة سيـدي الوقور (ولا يقـال وقفت عـلى ما دار من البحث اللغوي بين فلان وفلان (وهو كلامي) بل يقال : وقفت على مباحثة دارت لما في ذلك من المعارضة او التعارض ، وهذا كلامه . قلت بلى ياسيدي وانت مصيب اذا أردت ان تتكلم بلسان الهنود المتعربين ، وأما بلسان العرب الفصحاء فلا ، وان كان يؤخـذ بالقياس ، وكل ما يؤخذ بالقياس يقال ، بل ان العرب يعدلون عنه الى السماع ، قالوا وقعت حرب بين قوم وقوم ، ولم يقولوا محاربة محاربة ، وان كان القياس يجيزه ... » (٣٢) .

ولعل أهم حقل حفلت به الصحافة العراقية في مجال اللغة هـو

---

(٣٢) جريدة العراق عدد ٨٠٥ سنة ١٩٢٣ .

حفل الاسئله والجواب عليها . ذلك ان الفائدة في هذه الحالة لا تقتصر على السائل وحده بل تعداه الى جمهور القراء ، وحينئذ يمكن تقويم الاعوجاج واصلاح الاخطاء . وبخاصة حينما تتنوع هذه الاســئلة ولا تقتصر على ميدان معين . قال « سألنا أحد أدباء بيروت قال : رأيت أحد كبار اللغويين ينكر صحة وفصاحة المنتزة ، فهل هذا اللغوي محق ؟ ج . ان انكار هذا اللغوى لهذه اللفظة مبني على خلو المعاجم منها ومن فعلها انتزه .والدواوين العربية لا تحوي جميع المفردات ، فان كثيرا منها وارد في كتب الاقدمين واشعارهم ، فعدم وجودهـــا في المعاجم اللغوية لا يعني ردها . حيث وردت في شعر المولـــدين : قال أسامة ابن مرشد :

فكلها لمجـــال الطرف منــــزه وكلهم لصروف الــــدهر أقران

كما ورد في تاج العروس تحت مادة سغد : وهو أحد متنزهات الدنيا » (٣٣) والقارىء العادى يستطيع أن يفهم من هذا الرد ، ان قواميس اللغة لا تحوى كل المفردات وأن المولدين يمكن الاعتمـــــاد عليهم في استعمال الكلمة وشيوعها ، ومن الاسئلة الاخرى نذكر السؤال التالي « سألنا أحد ادباء الشام قال : هل صحيح ان كلمة أهمية غـــير مصبحة بمعنى الخطورة والبال ؟ ج : ان سبب انكاره اياها هو عـــدم وجودها في كتب اللغة وهذا ليس بدليل لأن القياس لا يأباه ، فكما

---

(٣٣) لغة العرب عدد ٧ سنة ٩١٤ ص ٣٧٧ .

قالوا الافضلية والأولية ونحوهما جاز قول الاهمية » (٣٤) .

وهذا دليل آخر على ما للقياس من أهمية في مجال اللغة .

وتتنوع الأسئلة وتتعدد وتختلف جهاتها ، حتى صرنا نرى كثيراً من الاسئلة التي يوجهها أصحابها من غير البلاد العربية فمن باريس جاء ما يلي (باريس ج . ص . في لغتنا الفرنسية كلمة حديثة الوضع هي تلفزيون ومعناها النظر الى الشيء من بعد بواسطة آلة اخترعوها ، فهل في لغتكم كلمة تفيد هذا المعنى ؟ ج : نعم ولغتنا لا تحتاج الى ما تحتاجون اليه من لغتين . اذ في شبابها وقوتها غنى عن غيرها . وهذه الكلمة هي المباصرة . قال الجوهري : باصرته اذا أشرفت تنظر اليه من بعيد . فهل في لغة الاقدمين او المحدثين من لغة فيها من قوة الولادة ما في لساننا العدناني العجيب » (٣٥) .

وقد يطول بنا الوقت اذا نحن أكثرنا من إيراد هذه الاسئلة لبيان مدى ما فيها من فائدة عملية لجمهور القراء في صحيفة يقرؤها كثير من الناس .

وتلتفت الصحافة العراقية التفاتة أخرى وهي عنايتها بالعامية ، ومحاولة ايجاد صلة تقارب بينها وبين الفصحى ، ويظهر لنا من خلال هذه الدراسات أن هناك اختلافات واضحة في هذه النقطة ، فبينما يرى بعضهم أن العامية قديمة قدم الفصحى ، يرى الآخرون أنها لغة حديثة

(٣٤) لغة العرب عدد ٧ سنة ٩١٤ ص ٣٧٧ .

(٣٥) ن . ف عدد ٢ سنة ١٩٣١ ص ١٤٥ .

تكونت بفعل اختــلاط العرب بأمم خرى . فتأثر العوام بهذه اللغة الغريبة . فسارت على لسانهم وسارت تنتقل من جيل الى جيل .

والذى لا ريب فيه هو ان العامة سيل دائمة الى الخفة والايجاز والى السرعه في النطق . وربما أصاب الفصحى بعض التحريف أو القلب أو الابدال . فتكون لغة جديدة فيها اساس واضح من الفصحى .

ولدينا في العامية العراقية ما يثبت ذلك « كانت الالفاظ العامية جلها ان لم أقل كلها فصيحة صحيحة في عصر من العصور ثم طرأ عليها ما عرض من موجودات الكون من زيادة ونقصان وابدال وتغيير وتقديم وتأخير وتصحيف وتحريف وقلب وحذف ، ونقل ونحت وغير ذلك ، حتى أصبح الخوض في هذا البحث من أصعب المباحث اللغوية . والنحت جعل كلمتين كلمة واحدة كقول العامة (أشبيك) في أي شيء بك ، (ومنو) في . من هو و (شنو) أي شيء هو ؟ (وشعبالك) أي شيء عرا بالك ؟ (وإشجالك) أي شيء جاء لك . أما القلب فهو تقديم بعض حروف الكلمة على بعضها أو تأخيرها عن أخواتها مثل خشاف في خفاش واجا من جاء . وجصع فيضجع ، والابدال أن يقوم حرف مقام حرف مثل عحاص في انحاص وجاسم في قاسم »[٣٦] .

ولم يدرس الأقدمون هذه اللغة أو يولوها عنايتهم ، وان كانوا قد أشاروا اليها من طرف خفي وفي تضاعيف كتابتهم عن لغات العرب ، وربما كان في هذا بعد نظر لأنهم لو فعلوا ذلك لما استطاعوا أن يحافظوا

(٣٦) لغة العرب عدد ٧ سنة ٩١٢ .

على الفصحى وجعلها لغة واحدة لجميع المتكلمين بها ، يقول الدكتور مصطفى جواد « الشعر العراقي العامي قديم كقدم اللغة الفصحى ... وقد جاء في أخبار الوليد بن يزيد الاموي أن حماداً الراوية قال جاداً أو هازلاً : أنا رجل أكلم العامة بكلامها . وذكر ابن خرداذبة أن نسبة ابراهيم الموصلي الى الموصل هو أنه كان اذا سكر كثيراً غنى على سبيل الدلع :

آقاجت من طرف موصـــل أحمـــل قلـــل خمرياً (٣٧)
من شارك الملوك فـــــلا بـــد من ســـــكريا (٣٨)

وفي يتيمة الدهر للثعالبي كثير من الالفاظ العامية التي وردت على ألسنة شعراء القرن الرابع ، تقال على سبيل الظرف والفكاهة ، وبخاصة على لسان الشعراء المكدين امثال الاحنف العكبري وشعراء بني ساسان وغيرهم .

ولم تكتف الصحافة بهذه الدراسة بل راحت تقارن بين لغة العامة واللغة الفصحى من حيث الأسماء والمصادر والافعال وغيرها ، وكان يقوم بهذا العمل كبار اللغويين والادباء في عصرهم ، نذكر على سبيل المثال ما كان يقوم به الشاعر المشهور معروف الرصافي من دراسة مهمة

(٣٧) جت اى جئت . من طرف موصل : اي من جهة الموصل . وفي هذين البيتين تختلط العامية بالفصحى على سبيل الدلع كما هو مذكور .

(٣٨) مجلةالتراث الشعبي عدد ١ سنة١٩٦٣ عن الاغاني جه ص ١٥٧

في هذا المجال وفي لغة العرب بالذات . قال تحت عنوان (الفعل المضارع في لغة العوام) جاء فيه « والفعل المضارع مع فاعله قد يقع من كلامهم موقع المصدر . فاعلاً أو مفعولاً بدون حرف مصدري ، لأن الحروف المصدرية معدومة في كلامهم . فمن وقوعه فاعلاً قولهم : ما يجوز لك تعمل هذا العمل ، اي ان تعمل هذا العمل ، ومن وقوعه مفعولاً : أريد أروح الى فلان أي اريد أن أروح الى فلان .... » (٣٩) ولننظر الى الدكتور مصطفى جواد وهو يحلل لغة العامة وكيف يحولون تاء اسم الفاعل الثلاثي ميماً اذا ابتدأ بالهمزة فيقول « العراقيون يقلبون تاء اسم الفاعل الثلاثي ميماً اذا كانت همزة . وهذا من أسرار اللغة العامية العراقية . فهم يعبرون عن الآكل مآكل وعن الأخذ مأخذ ومن هذا قولهم (المربعانية) أي الاربعين ويقولون في الذي أصله رباعي (أمبغل) من البغل وآمخشب وأمبرطم من البراطم الضخم الشفتين ، ويصرفون الفعل بهذه الطريقة : جاي بمعنى جاء ، هو جاي . هي جاية . اثنينهم جايين ، اثنينهن جايات . هم جايين . هن جايات . انت جاي ، انت جاية ... » (٤٠)

ولغة العوام في العراق تختلف كثيراً عن لغة العوام في مصر وبعض الاقطار العربية الاخرى ، وهنا تبدو أهمية الفصحى في تكوين الشعور الموحد في العالم العربي .

ولم يقتصر جهد هذا الجيل من اللغويين على هذا فحسب ، بل

---

(٣٩) لغة العرب عدد ٦ سنة ١٩٢٧ ص ٣٤٧ .

(٤٠) لغة العرب عدد ٢ سنة ١٩٣٠ ص ١١٥ .

راحوا يخدمون اللغة في مجالات أخرى ، فكانوا بحق حراساً على كل من يبتعد بها عن الطريق الصحيح ، كما قيموا الفنون الأدبية المختلفة ، بمقدار سلامتها من الاخطاء اللغوية ، دون الاهتمام بجمال الأسلوب والفكرة ، وهذا ما نلاحظه بصورة جلية في النقد الأدبي ، لقد حولوا هذا الفن ، من مجرد كونه تقييم النصوص الأدبية ، الى مجرد نقد لغوي . لا يهتم بغير سلامة التراكيب والمفردات . ومقدار محافظتها على القواعد النحوية والصرفية واللغوية . لننظر إلى جريدة العراق وهي تنقد قصيدة شوقي في رثاء إسماعيل صبري ، حيث تقول : « قصيدة شاعر النيل الكبير احمد شوقي بك ، في رثاء فقيد الادب اسماعيل صبري ، لا تناسب منزلته في القريض ، وقد وجدت في نفسي دافعاً لأنتقادها ، قال حفظه الله :

أجـل وان طال الزمان موافي　　　آخلى يديـك من الخليل الوافي

أجد المعنى مضطرباً لا يتماسك ، وان ربطه بسلسلة الوزن وأحكم وثاقه ، وكنت أظن أول وهلة أنه جعل (أجل) مبتدء ، وموافي خبراً له ، فاصلاً بينهما بأن الوصاية مع جملتها ، ولكن عدم جواز الابتداء بالنكرة أرجعني الى الهدى ، ونرجح أن المبتدأ محذوف فكأنه يقول : هو أجل . وحينئذ يكون (موافى) صفة للخبر وهو أجل . هذا جيد، ولكن الفصل بين الموصوف والصفة بأن والجملة تشويشاً للمعنى كان على الشاعر الكبيران يتجنب دواعيه .

خفت له العبرات وهي أبيـة　　　في حادثات الدهر غـير خفاف

كأنه يقول : خفت له العبرات وهي غير خفاف . ولو قال : وكن غـير خفاف لزال التناقض باختلاف الوقت ، وكلمـة أبيـة من الحشو البارد الذي لا يجرع حتى في حمارة الصيف ... » (٤١) .

وكانت كثير من الصحف تفرد حقولاً خاصه ، تحت عناوين مختلفة كأغلاط الكتاب . أو قل ولا تقل . أو لغة الجرائد ، تنبه فيها الكتاب والقراء على حد سواء . الى هذه الأخطاء وتصححها لتضع مكانها عبارات أو مفردات جارية على السنن العربي الصحيح . ومن ذلك هذه التعبيرات :

كم سيكون فرحها : والصحيح كم فرحة ستفرح لأن كم تختص بالدخول على الاسماء .

ربـه اني : الصحيح : ياربي لأنه لا يجوز جعل الرب مندوبا اي متوجعا منه .

طرق هذه الباب : الصحيح : يطرق هذا الباب . لأن الباب مذكر .

أظا ر حادة : أظفار حادة لأن هذا الجمع ليس بعربي .

حسد النوايا : حسيد النيات لأن النوايا جمع نوية .

وريث العهد : وارث العهد . اسم فاعل والجمع الورثة .

خدمة يسطرها التاريخ بمداد الفخر : الصحيح : خدمة تذكر فتشكر .

فيتتبعون حركات صحافيينا : فيتحرون حركات صحافيينا .

ليس فقط كان أديبا بل كان سياسيا : الصحيح لم يكن أديبا فقط بل

(٤١) جريدة العراق عدد ٩٢٤ سنه ٩٢٣ .

كان سياسيا .

هذا ثوب قشيب بكل معنى الكلمة : هذا ثوب قشيب كل القشابة .

رجال صميمون ورجلان صميمان : الصحيح صميم لأنها لا تثنى ولا تجمع .

محادثات مع أناتول فرانس : محادثات أناتول فرانس .

الكتاب تحت الطبع : الكتاب يطبع .

دور الاستبداد : عهد الاستبداد .

يجب على الأقل أن نفعله : لا أقل من أن نفعله [٤٢] .

ولسنا هنا بصدد الانتقاص من أهمية هذه النقدات ، فللغويين مطلق الحرية في تقويم الاعوجاج والشطط الذي يلحق باللغة ، ولكننا بصدد هذا التزمت الذي تعدى حدوده ، وبخاصة حينما راحوا يفسرون المفردات والتراكيب تفسيرات قاموسية دون مراعاة لتطور اللغة وملائمتها لحاجات العصر .

لقد كان ظهور الصحافة ايذاناً بميلاد ثورة جديدة في الفكر على كثير من المقاييس التي سبقت ظهورها ، حتى ليمكن اعتبارها حداً فاصلاً بين أدبين ، أدب القلة وأدب الجماهير ، فالمعروف أن الأدب العربي في الوقت الذي ظهرت فيه الصحافة كان مقصوراً على قلة من الناس تغرم بالاشكال والزخارف . يعج أدبهم بغريب الكلام ووحشي اللفظ ،

(٤٢) هذه العبارات مأخوذة من مجلة لغة العرب وغيرها من الصحف .

متخذين من الرسائل والمقامات مثالاً يحدي في كثير مما يكتبون . لقد وجدنا آثار هذه الأساليب في بعض الصحف الرائدة أو تلك التي يتولى أمورها كتاب ما زالوا يعجبون بهذه الصيغ . وربما كان لهم العذر في هذا كله . لأنهم من اولئك الذين تلقوا علومهم ودراساتهم في حلقات الجوامع والمساجد . ولم تتهيأ لهم بعد ظروف الانفتاح على الثقافات الحديثة فبقوا يعيشون لأنفسهم ولأترابهم ؛ يستوحون موضوعاتهم من تلك المسارح التي ألفوها في أدبنا القديم ويعيشون في غير عصرهم الذي هم فيه . وهذا ما نلاحظه في بعض الصحف النجفية التي تعنى بالقديم أو تحاول بعثه من جديد إرضاء لرغبة بعض قرائها ، وكان القراء الآخرون من الذين تلقوا دراساتهم في المدارس الحديثة ينظرون اليه نظرة فيها الكثير من التهكم والسخرية . دون ان يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن أسباب هذه الظاهرة ، ومن ذلك هـذا الأنموذج للشيخ حميد نصار من ابناء القرن الثاني للهجرة يمدح فيه أمير خزاعة: «ايها الركب يعرى شعق البيد . على أمثلة السيد . وأشباه القنا الميد . من النجب المناجيد [٤٣] . لك الله وحاك . وأرشدت بسراك . اذا شمت من البرق، غماما مسبل الودق [٤٤]. وعاينت من البحر، خضما مزبد الزخر ويممت من الروض ربيعاً . ومن الليث منيعاً . فترى الوفد على الوفد، بألطاف

(٤٣) السيد : الذئاب : والقنا الميد : الرماح المتحركة . النجب : الكرام الحسب والمناجيد : اي الشجعان .

(٤٤) الودق : المطر . والمسبل : اذا هطل بغزارة .

من الرفد ، وآمال من القصد . قياماً وقعوداً صدوداً وردوداً . هناك أعقل يد البكر ، ويمم واحد الدهر . وشاهد ملك الفخر ، وقف والثم الترب . ولا يزعجك الرعب . ترى تبع قحطان ، وسابور بايران ، وسيفاً وسط غمدان . وكفين بسجان .. » [٤٥] تلك هي الاساليب السائدة قبل ظهور الصحافة . مجرد حركة لفظية ، تأخذ جهداً ووقتاً لا يستطيع الكاتب الحديث أن يجدهما . بالاضافة الى خلوهـا من المضمون الذي صار الأديب الحديث يعنى به عناية تامة .

لم يعد هذا الأسلوب بقادر على أن يستوعب التطورات الحديثة والأفكار الجديدة ، فظهرت الحاجة ماسة الى أسلوب جديد يلائم كل الملائمة الحياة الجديدة ، وصار الاسلوب القديم مثار سخرية وتهكم لأنه لا يجاري العصر الحديث . كتب أحد قراء مجلة المقتطف تحت عنوان (الكتابة العصرية) جاء فيه « قرأت في بعض الصحف السورية مقالة أجلت رائد فكري في سجعها جولة بحاث ، فألفيته نهج نهجاً لم تسلكه الآن حملة الاقلام ولا كتبة العصر . فان مهيع السجع ومنهج النثر في صفحات الجرائد السيارة قد نسجت عليه عناكب الاهمال ... أن سبيلها مسلوك في المقامات لا في مقالات المجلات وقضت حكمة الله في هذا الوجود أن يلبس كل عصر حلة تلائم طباع ذويه » [٤٦] .

فالصحافة لم تعد تخاطب صنوة من الناس . بل صارت تخاطب

---

(٤٥) مجلة البيان عدد ٢٧ ، ٢٨ سنة ٩٤٧ ص ٧١٧ .

(٤٦) مجلة المقتطف عدد ١٢ مجلد ٢٩ سنة ١٩٠٤ .

كل الناس باللغة التي يفهمونها مهما اختلفت مستوياتهم الثقافية .

ان التطورات الهائلة التي صاحبت النهضة في ميادين العلوم والفنون والسياسة والاجتماع والاقتصاد مع ما رافقها من نهضة في اللغة والاصطلاحات استوجبت أسلوباً جديداً يتسع لكل هذه التطورات ، وقد تحملت الصحافة عبء هذا العمل لشيوعها وانتشارها وسرعة تأثر الناس بها . فطوعت اللغة وجعلتها مرنة تفي بالحاجة للتعبير عن كل هذه المتطلبات . وقد رافق هذا كله انتشار التعليم وشيوعه ، فكان ذلك كله سبباً في ظهور أدب جديد . نزل الى مستوى الجماهير وخاطبهم باللغة التي يفهمونها وبالواقع الذي يحيونه .

لقد تحملت الصحافة عبء الحركة اللغوية . كما تحملت عبء تحويل هذه الالفاظ الى واقع حي ملموس فخلقت في الجماهير حب الادب والمطالعة التي حرموا منها أزماناً طويلة .

أن تطور الاسلوب انما جاء كنتيجة طبيعية لاتساع أفق الحياة ، ففتحت الصحافة اللغة على هذه الحياة وجعلتها وسيلة مرنة طيعة للتعبير عن هذه الحاجات . واهتمت بالبساطة والوضوح وبالجملة النافذة التي تعطي معنى مباشراً . بحيث يستطيع أن يفهمها أولئك الذين لم تتح لهم الفرصة لأن يتعمقوا أكثر في دراساتهم . ولا يبتعد عنها المتعلم تعليماً عالياً ، أسلوب يستمد بلاغته من الحياة الواقعية ، ومن الاحساس المشترك الذي خلقته الصحافة .

فتنوع الأساليب الصحفية إنما جاء ليراعي رغبات الجماهير ومقتضى

الحال، وطبيعة الموضوع الذي يتناوله الكاتب ؛ فهناك أسلوب العرض المنطقي الذي يراد به اقناع القاريء لفكرة معينة ، وهناك الأسلوب الوجداني الذي يترك الكاتب لنفسه حرية التعبير عما يجيش في نفسه من افكار ، وهناك أسلوب الريبورتاج الذي اهتمت به الصحافة الحديثة لنقل أحداث معينة يقصد الكاتب منها التأثير في قارئه أو اطلاعه على أمور تغيب عنه ؛ وسوف نلم بهذه الاساليب ونحن نتعرف المقال في الصحف العراقية .

لقد انحسرت موجة الاسلوب التقليدي في الصحافة ، فكانت عاملا مهماً في التخفيف من أثر هذه الاساليب والقضاء عليها ، فلم يعد المحافظون يجدون لأنفسهم قراء يتذوقون أدبهم ؛ فراحوا يصفون الأدب الجديد بكل صفة مذمومة بغية الحط من قدره ، واعتبروه أدباً مستورداً غريباً عن الروح العربية لخلوه من الفخامة والجزالة ، وعندهم أن كل أسلوب سهل بسيط يوازن بين اللفظ والمعنى هو من قبيل الأساليب الافرنجية التي تمتليء بالركة والضعف يقول الاستاذ العقاد « الأسلوب الافرنجي هو كل أسلوب معيب في رأي فئة من النقاد ، وكل ركيك مستضعف فهو عند هؤلاء النقاد من الأساليب الافرنجية التي طرأت على اللغة بعد اختلاط الشرق بالغرب ... كأن الركاكة شرط أصيل يشترطه الافرنج في كلامهم ... ويأخذون على ما يسمونه بالأسلوب الافرنجي قلة المحسنات البديعية والاستعارات المجازية

يظنونها من مزايا لغة العرب » (٤٧) .

وحينما عجزوا عن مجاراة هذا التيار ولم يقدروا على الوقوف بوجهه ، راحوا يراقبون زلات الكتاب المعوبة التي لا تسير على سنن العرب واتخذوا منها وسيلة للتشهير والتشنيع . والذي ساعدهم على هذا طبيعة دراستهم التي هي أكثر التصاقاً بالعربية نحواً ولغة وصرفاً . دون مراعاة للتطور السريع الذى أصاب اللغة .

لقد أوحى البعض من هؤلاء المتعصبين بأن للجرائد لغة خاصة لكثرة ما فيها من اخطاء لم تجر على ما آلفه العرب ، وفاتهم أن اللغة لم تسن إلا على صفحات المعاجم . وأن القدماء أنفسهم لم يتزمتوا كل هذا التزمت . وأن الحريري نفسه جوبه بمن يرد عليه في زمانه حينما اورد في كتابه (درة الغواص في أوهام الخواص) نيفاً ومائتي عبارة زعم أنها من الأوهام التي تشين الذوات فتولى اصلاحها ، غير أن قاضي القضاة أحمد شهاب الدين ، رد على الحريري وبين صحة كثير منها (٤٨) .

ان اللغة لا تعرف الجمود وكل عصر يضيف كلمات جديدة الى العصر السابق له وهي بنت الحاجة . وفي خلال هذا كله قد تموت كلمات بعينها لقلة الحاجة اليها أو بتأثير كلمات جديدة أوجدتها ظروف العصر وتطوراته .

انجمود اللغة معناه جمود التفكير لأنها وسيلة للتعبير عن الافكار ،

(٤٧) العقاد — المراجعات — ص ١٠٠ .

(٤٨) انظر جريدة العراق عدد ٨٠٦ سنة ١٩٢٣ .

والأديب الحق هو الذي يحول هـــذه الالفاظ الى أفعال محسوسة وحوادث ناطقة . أما تفسير هذه الالفاظ تفسيرات قاموسية فانما هو قتل للغة وقضاء على سنة التطور . لننظر الى بعضهم تحت حقل أخطاء الكتاب وكيف يفسر الألفاظ والتعبيرات حيث جاءت في المعجم « يقولون وحش كاسر أي ضار . وانما الكاسر في مثل هذا من صفات جوارح الطير ، يقال كسر الطير اذا ضم جناحيه يريد الوقوع وباز كاسر وعقاب كاسر ... » (٤٩) .

ومثل هـــذا كثير لا يخرج عن تفسير العبارة والكلمة تفسيراً قاموسياً . وإلا فأي عيب في استعارة كلمه كاسر من الطير الجارح الى الحيوان المتوحش الذي ينقض على فريسته الى الانسان الذي تتغلب عليه غريزته فيتحول الى ما يشبه الوحش في عمله ذاك .

أما لغة الجرائد . وهو الكتيب الذي جمع فيه الشيخ ابراهيم اليازجي بعض العبارات والألفاظ التي خص بها كتاب الصحافة ، فقد أحـــدث صدى عميقاً في حينه ورد عليه كثير من اللغويين والأدباء ، وقاريء هذا الكتيب يلاحظ ثلاثة نقاط تستحق أن نعلق عليها ، الأولى، هي ما ذهب اليه المؤلف من أن هنالك بعض الاخطاء التي وقع فيهـــا كتاب الصحافة ، وهذا صحيح لأن كتاب الصحف ليسوا على مستوى واحد في ثقافتهم اللغوية والنحوية فمن الطبيعي أن يقع بعضهم في مثل هذه الأخطاء وعلى الآخرين واجب تقويمهم وارشادهم .

---

(٤٩) جريدة الاخلاف عدد ٥ سنة ١٩٢٨ .

والنقطه الثانية أن بعض هذه الأخطاء موضعية لا تتعدى حدود منطقه بعينها . والنقطه الثالثه أن الشيخ اليازجي يفسر الالفاظ تفسيرات قاموسية . مع انه كان من أعلام اللغه الذين أدوا للعربية خدمات جلى ؛ وهو حينما لا يجد لهذه اللفظة أساساً في المعجم يقول عنها انها لم تجر على سنن العرب ونهـدا فلا لزوم لاستعمالها . مـع أن العربية غنية بالوسائل التي تساعد على انماء اللغة وتطورها ؛ كالنحت والقياس والتعريب وغير ذلك مما يعترف به اللغويون أنفسهم .

ومن التعابير التي أوردها اليازجي مثلاً واعتبرها من أخطاء كتاب الصحف قوله : « التحوير التي لم يبق كاتب جريدة ولا مؤلف كتاب إلا ورد في كلامه مئات من المرار . يريدون بها معنى التنقيح والتعديل والاحكام . ولم ترد بهذا المعنى في كتب اللغة ... » (٥٠) .

ومثل هذا في قول الشيخ اليازجي « ومن ذلك قولهم : خرج فلان عصارى ذلك اليوم . يريدون وقت العصر ؛ ولا وجود لهذه اللفظة في كتب اللغـة ... » .

وقـد تعقبه بعض اللغويـين والأدباء فيمـا ذهب اليـه كالذى صنعه الأب لويس شيخو العالم اللغوي . فيما نقلته جريدة العالم العربي ؛ قال : « وهذا شيخنا اليازجي . نشر في مجلة الضياء فصولاً متتابعة تحت عنوان لغة الجرائد دون فيها نحو ٢٥٠ مفرداً ومركبـاً جمعها من الجرائد وادعى أنها تفسد اللغـة ، فتصدى له غيره من العلماء كالامير شكيب أرسلان والمرحوم رشيد الشرتوني وغيرهما . وأثبتوا

(٥٠) ابراهيم اليازجي — لغة الجرائد — ص ٤ .

أن عددا عديدا من تلك الاغلاط المزعومه لها في اللغة وجـه صحيح فسكت الشيخ عن ردودهم ... ولكننا نرى في بعض هـذه المزاعم تضييقا زائدا على الكتبة فيأخذون بخناقهم لبناء حكمهم على القـديم الموجود في كتب النحويين دون مراعاتهم للسماعي الحسن .. والمولدون لهم رأيهم منذ أن دخلوا في الحياة العربية بعد الجاهلية وصدر الاسلام ولا تثريب على هؤلاء المولدين . فكيف يريد بعض هؤلاء المتهوسين أن يضيقوا على المحدثين . ويحولوا بينهم وبين أنوار العصر صيانة لكرامـة الاقدمين . فان كان لكل مقام مقـال فلكل زمان مكان واستعمال » (٥١) .

ومن ذلك أيضا ما ذكره الشيخ محمـد بهجت الاثري ، حيث اثبت صحة كثير من الالفاظ التي خطأها الشيخ اليازجي كقولـه : « ... وقد أدمج فيها كلمات سبقه الى انتقادها أمثـال الحريري والخفاجي من غير اشارة الى ذلك ... أذكر من ذلك على سبيل المثال انكاره استعمال (النوادي) مع كونه القياس في جمع النادي . وهذه دعوى لا تسلم له . وقد استعمل هذا الجمع قديما ولم ينكر أحـد وروده سواه ، قال معاذ بن حزم الخزاعي فارس خزاعة :

ولست برعديد اذا راع معضـل ... ولا في نوادي القوم بالضيق المسك

وقال صاحب المحيط (محمد خير من حضر النوادي) وقد هالني تشدده في منع (مشاهير) في جمع مشهور بدعوى أنه لم يرد في كلام

(٥١) جريدة العالم العربي عدد ٨٠٦ سنة ١٩٢٣ .

عرب . ولا أدري ما يضير اللغـة لو قسناه ، وباب القياس في لغتنا وسع ولا شك من سم الخياط » (٥٢) .

وعلى هذا الاساس فلا مجال لأن تكون للجرائد لغة خاصة بهـا ، ل ما هنالك ان بعض الكتاب المجددين . آثروا جمال الاسلوب على لاهتمام بهذه التراكيب القاموسية . ولا يمكن الصاق كل خطأ بكتاب لصحافة . فللآخـرين أخطاؤهم . وان كان المفروض بالأديب أن يلم مادته اللغوية والنحوية قبل كل شيء . وكتاب الصحافة يخاطبـون لجماهير وفي بعض الاحيان تدعوهم الحاجة الى التحرر من بعض القيود للغوية ولا سيما في صوغ العبارات المختصرة او التركيز على ناحية دون أخرى . والاهتمام بالبساطة والوضوح والتأثير المباشر .

ولكن ليس معنى هذا ان الصحافة لا تخلو من بعض الجوانب السلبية التي تركت آثرها على الادب وافقدته كثيرا من جوانبـه الفنية التي يعتد بها . فكانت بحق سلاحا له حدان ، يتمثل الحد الاول في أنها استطاعت أن ترفع الجماهير الى مستوى معين وجعلهم يتذوقون الفن والادب ويقدرون فيه الثقافة والاطلاع وجانب سلبي يتمثل في فقدان الادب الكثير من جوانبه الفنية بفعل عامل السرعة التي جبلت عليهـا الصحافة في الوقت الحاضر .

وقبل أن نختم هذا الفصل يجدر بنا ان نلتفت الى نقطـة مهمـة وهي أن الصحافة كانت عاملا مهما في اشاعة الألفـاظ والاصطلاحات

(٥٢) لغة العرب عدد ١ سنة ٩٢٦ ص ٧ .

الحديثة لتدل على معان بعينها ، وقد تأثرت هذه الاصطلاحات بالثقافة الاجنبية التي لها نفوذ سياسي أكبر من غيرها ففي بداية هـــذا القرن مثلا ، كانت هناك اصطلاحات تركية تشيع على كثير من ألسن النــاس أخذوا أكثرها من العربية أصلا ومن ثم أعادوها على غير وجهها الصحيح.

ولما كانت الفرنسية اكثر شيوعا من الانكليزية في العراق كانت العامة تنطق بألفاظهم ، ثم لما دخل الانكليز تأثروا بهم وتحولت هـــذه الاصطلاحات الى لغتهم . يقول مصطفى جواد : « أسس قطار السكك الحديدية في زمن العثمانيين وكانت الفرنسية أشيع اللغات الغربيـــة فسموه (شمن دفر) بالاسم الفرنسي . وبعد الاحتلال الانكليزي سمي (ريل واي) فاختصروه فقالوا (ريل) . حتى وضع له بعض الادباء اسم القطار أخذا له من الجمال المقطورة ، وهي القطعة من الابل يلي بعضها البعض في السير على نسق ... وهكذا السيارة فكانت تسمى (أتوموبيل) في العهد العثماني . ثم (موتور كار) في الانكليزيـــة ، حتى جا المرحوم أحمد زكي فسماها السيارة فقتلت الاسمين معا وهكذا الكهرباء والاسلاك والاذاعة والدراجة والباخرة ... » (٥٣) .

أما الاصطلاحات التي أشاعتها الصحافـــة فكثيرة تتعرف بعض جوانبها ، مع الاهتمـــام بالاصطلاحات التي تنسب الى بعض الادباء واللغويين الذين اتخذوا الصحافة وسيلة لخدمة أهدافهم .

ينسب للشيخ ابراهيم اليازجي الاصطلاحات التالية : الحساء ،

---

٥٣) مجلة المجمع العلمي العراقي لسنة ١٩٥١ ص ٢٠٥ .

الجناح (البلكون) . المأساة (تراجيدي) ، الملهاة (كوميدي) ، المجلة ، الجرثومة ، الداراجة ، الشحنة ، اللولب ، المقصف ، الحوذي ......

وينسب لاحمد فارس الشدياق صاحب الجوائب : الجريدة ، المؤتمر . المنطاد . المطعم ، بالاضافة الى كثير من اصطلاحات علم الحيوان .

وينسب لصروف : الغواصة . الدبابة . الرشاشة ، النواة ، الكهرب ...

لقد ساعدت الصحافة بحكم تمكنها من نفوس الجماهير ، على اشاعة هذه الالفاظ وجعلها تدل على معان معينة . ففي المجال السياسي نجد الفاظا مثل : الدمقراطية . الدكتاتورية . المؤتمر ، السفارة ، الاستعمار . المحافظون . الاحرار . الاشتراكية ، الاعيان ، النواب ، البرلمان وغيرها الكثير .

وفي المجال الصناعي : القطار . القاطرة . الباخرة ، الرقاص ، السكك الحديدية ، المعامل .

وفي المجال الصحفي أشاعت الصحافة ألفاظا مثل : محرر ، مطبوعات . طابعة . مراسل ، مجلة ، جريدة ، منشورات ، دوريات .

وفي المجال العسكري : مشير . فريق . لواء . اركان حرب ، ضابط ، غواصة ، دراعة ، بارجة .

وفي الادارة : مفتش . معاون . متصرف ، محافظ ، تشريعات ،

رواتب ، مدير ، ناظر ، قضاء ، ناحية .

وقد جمع المرحوم جرجي زيدان الشيء الكثير من هذه الالفاظ والاصطلاحات المولدة والمعربة (٥٤) نكتفي بهذا القدر الـذي يبين ما للصحافة من أثر في مجال الاصطلاحات واحياء اللغة العربيـة وجعلها لغة الجماهير .

---

(٥٤) انظر اللغة كائن حي ص ١٠٠ وما بعدها .

الفصل الثاني

الاديب والصحافة

الصحافه حركة ثقافية واسعه . يحتل الادب فيها مكان الصدارة واذا آخرجنا من دائرتها ما له علاقه بالاخبار والاعلام . كانت الصحافة فنا آدبيا حديثا دخل البلاد العربيه في بداية نهضتها . وعاملا قويا في نسر الثقافه العامه وايصال المفاهيم الحديثة بين مختلف الطبقات . كما كانت ثورة على كثير من القيود التي تكبل الانسان في فكره وحريتـــه وتعبـــيره .

ان آى بحث يريد أن يدرس آدبنا العربي الحديث . سيكون عمله ناقصاً ان هو آغفل الصحافة من حسابه . فهي منذ وجودها وحتى اليوم. كانت الوعاء الطبيعي لكثير من التيارات الأدبية والفكرية . اعتمدت على الأدب وتفاعلت معه وامتزجت به امتزاجاً غريبا . بل ان كثيراً من الظواهر الأدبيه والفنيه في حياتنا الفكرية . كان من الممكن أن لا تجد سبيلها الى القراء . لولا هذه الجرائد والمجلات التي أعانتها على الظهرر . وشجعتها على النمو ومنحتها القدره على التأثير وأعطتها بعض صورها وملامحها (١) .

---

(١) أنظر : شكرى فيصل — الصحافة الادبية ص ٥ .

لقد اعتمدت الصحافة في مراحلها الأولى على كواهل الأدباء ، فتولوا الكتابة فيها . وعرضوا ثمرات أفكارهم على صفحاتها ، فضمت في كثير من مراحلها الأولى بواكير الأدب الحديث على نحو ما نرى في صحفنا الرائدة التي كانت تصدر في مصر وسوريا والعراق .

فالصحافة العربية التي كانت تصدر في القرن الماضي وبداية هذا القرن كانت معرضاً جميلاً للأفكار والآراء التي حملها اولئك الرواد ، الذين أتخذوا من الصحافة وسيلة لنقلها الى جميع الناطقين بالضاد في مختلف ديارهم . نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر أحمد فارس الشدياق وجريدة الجوائب . وما قدمته هذه الجريدة من خدمة كبيرة لكثير من الأقطار العربية التي كانت تصل اليها . وقل مثل هذا في الشيخ رفاعة الطهطاوي والشيخ محمد عبده ومحمد حسين هيكل والشيخ علي يوسف وغيرهم الكثير ، وهكذا هم أصحاب الصحف اللبنانية من أمثال الشيخ ناصف اليازجي وابنه ابراهيم . والبستانيين بطرس وسليم .

لقد كان هؤلاء الرواد يحملون فكرة معينة أرادوا بها خدمة بلادهم فلم يجدوا خيراً من الصحافة في ايصال هذه الأفكار ونشرها بين أكبر عدد ممكن من الناس . ومن هنا جاءت صحفهم حركة فكرية وأدبية ، فكانت بحق جسراً الى نهضتنا الحديثة ، فما أثيرت ضجة أدبية في وقت من الأوقات إلا تردد صداها في الصحف ، بعد أن أصبحت ملتقى النابهين والمفكرين يعرضون فيها ما تجود به قرائحهم وأفكارهم ، يقول جرجي زيدان « فلم ينبغ من شاعر أو أديب أو عالم أو مؤرخ

إلا وكتب في مجلة أو جريدة » (٢) .

ان فهمنا للتطور الأدبي في العصر الحديث مرتبط ارتباطاً تاماً بالصحافة . لأن الأدب والصحافة صنوان . ودراسة تاريخ الصحافة إنما هو دراسة تاريخ النهضة الأدبية الحديثة التي كانت الصحافة عاملاً هاماً في ظهورها وشيوعها . واليها يعزى ذلك التطور الخطير الذي أصاب أدبنا الحديث من حيث أسلوبه وموضوعاته التي بدأ يعالجها . كما كانت مدرسة لتدريب كثير من الشبان على فنون الكتابة الحديثة وبخاصة اولئك الذين لم تتهيأ لهم فرصة التعليم المنتظم في المدارس والجامعات . في وقت لم يكن الكتاب قد عرف وجوده بعد .

لقد امتهن الجيل الأول من أدبائنا الصحافة . فأفنوا حياتهم في خدمة الأدب عن طريقها . وكل واحد منهم كان يحمل فكرة معينة أراد أن يبشر بها عن طريق الصحافة . فالكرملي كان أديبا لغويا أفنى حياته في خدمة العربية وآدابها . بدأ حياته بالكتابة الى الصحافة العربية ، قبل أن ينشيء مجلة لغة العرب . قال الاستاذ كوركيس عواد « لقد أحصيت مقالات الأب الكرملي في صحف ومجلات الأقطار العربية . فاذا بها تربو على ألف . تزيد في مجموعها على خمسة آلاف صفحة أكثرها بأسماء مستعارة وله ١٢٧ اسماً مستعاراً » (٣) وحينما أصدر مجلة لغة العرب كان هذا الجهد الذي عرفناه في حقل اللغة والصحافة .

(٢) جرجي زيدان — تاريخ آداب اللغة العربية جـ ٤ ص ٢٤٦ .
(٣) مجلة الجزيرة عدد ١٢ سنة ١٩٤٧ ص ٣ .

أما ابراهيم صالح شكر صاحب مجلة الناشئة الجديدة فهو من أوائل الرواد في نهضتنا الأدبية الحديثة . حمل بيده معول الهدم يريد أن ينقض به على كل ما هو زائف وبهرج . لا تصدر له صحيفة إلا لتغلق . فيعود مرة ثانية لأصدار أخرى . فهو صاحب فكرة يريد أن يعبر بها ما ألفه الناس أحقاباً طويلة . في وقت لم يكن هؤلاء على استعداد لتقبل هذا التحول السريع . فاصطدم الرجل بالواقع وسبب لنفسه الكثير من المشاكل . حتى أن بعض الصحف كانت تعرف جيداً مصير صحف ابراهيم منذ الأعداد الأولى لصدورها . قالت جريدة العاصمة وهي تعلق على صدور الناشئة الجديدة : « شاهد أمس أهالي بغداد ، (الناشئة الجديدة) الصحيفة الأدبية الأسبوعية الظريفة ، وقد أتى العدد الأول منها مثالاً للذوق الادبي . نرجو للرصيفة الرواج والانتشار ونطلب اليها أن لا تحاول الطفرة في توجيه النقد الى من لم يعتادوا من الناس سوى سماع ألفاظ المجاملة . وان أمثال هؤلاء لا يفهمون مرامي الفن الجديد » (٤) . هذه النصيحة وأمثالها لا تنفع مع شخص لا يعترف بأنصاف الحلول ولا يعبأ بالمجاملة والمداجاة . فهو أديب يحمل فكرة جديدة عن الأدب والحياة . يريد أن يزاولها وينشرها رغم الصعوبات ورغم طبيعة العصر .

وتبدو هذه الفكرة واضحة من خلال اطلاعنا على صحف ابراهيم ، قال في مقدمة الناشئة الجديدة : « ان البلاد بحاجة ماسة الى صحيفة

---

(٤) جريدة العاصمة عدد ١٧٢ سنة ٩٢٣ .

أسبوعية تعنى بالنهضة الأدبية والفكريه . وخطتها أن تطرح في تربة الناشئة حبوب الجرأة والنشاط ونحرك فيها يداً . وتثير فيها عقلاً للتفكير . فقد سئمت النفوس مجاجة القديم وفهاهة العقيم » (٥)

وحينما أغلقت هذه المجله بسبب روحها الثوريه التي لم يقدرها بعض أهل عصرها . وبخاصة رجال السلطه . لم يسكت ابراهيم صالح شكر على ذلك . بل عمد الى اصدار غيرها وغيرها . لأنه يحمل فكرة جديدة يرى أن من واجبه نشرها بين مواطنيه . قال في مقدمة الزمان « انني من حمله المعاول . وسوف أجعل من هذه الجريدة معولاً أهدم به وأحطم به . لا لأن الهدم والتحطيم مما تحتاجه البلاد . وانما لأني ولوع في الهدم شعوف بالتحطيم . وليس ذلك فقط . وانما أنا رجل أفيض بالنقمة على عباده الأجساد . وسوف أتعمد في هذه الجريدة امتهان الأجساد وعبادتها . سوف أكشف في هذه الجريدة البهارج المصطنعة في الكرامات الكاذبه » (٦) ومن هنا جاءت صحفه معرضاً لكثير من الآراء الحديثه . كان من نتيجتها أن هيأت النفوس لتقبل أنوار العصر الحديث والنهضة الجديدة .

لقد امتهن الجيل الأول من الأدباء الصحافه . فكانت ملكة الأدب تطغى على كثير منهم . ولم يبالوا بالصعوبات التي تقف حائلاً بينهم وبين المبادىء التي كانوا يريدون نشرها . ذكر الأستاذ جعفر الخليلي

(٥) الناشئة الجديدة عدد ١ سنة ١٩٢٢ .

(٦) الزمان عدد ١ سنة ١٩٢٧ .

وهو يعلق على ما كان يلاقيه من عقبات بسبب احترافه الصحافة وكيف أنه كان يتحمل كل شيء في سبيلها . قال « لو أنني أنفقت هذه السنوات في مزاولة أحقر الأعمال . لكنت قد وفرت لنفسي راحة القلب ان لم أستطع أن أوفر راحة البدن . وهذا ما كنت أنتظره من الصحافة ... كنت مضطراً الى دلك بحكم نزعتي الأدبية . وميلي الخاص لهذه المهنة . ان ترك العمل ليس من السهل على كاتب نشأ نشأة أدبية وعاش عيشة أدبية كل مميزاتها أنها كانت منزهه عن كل ما يشين وجه الأدب ويخدشه » (٧) وحينما أصدرت الحكومة العراقية مرسوماً تحدد فيه العمل الصحفي وتقصره على أصحاب الشهادات العالية دون غيرهم . كان الأدباء أول من ثاروا على هذا المرسوم . لأنهم يعرفون جيداً أن العمل الأدبي لا علاقة له مطلقا بالشهادة وانهم اول من يتضرر بهـذا المرسوم ، ذكر الأستاذ سلمان الصفواني صاحب جريدة اليقظة وهو يعلق على هذا المرسوم « فالصحفي في هذه اللائحة يجب أن يكون من حملة الشهادات العالية ... فالعقاد وبرنارد شو لا يستطيعان أن يكونا صحفيين في العراق . فالبلاد الى عهد قريب تعتمد في دراستها على حلقات العلماء والمدارس الخاصة . التي أخرجت طائفة كبيرة من نوابغ العلماء والأدباء والكتاب والشعراء . لا يضاهيهم أحد من متخرجي المدارس المدنية . وليس ذنب هؤلاء أنهم لا يحملون شهادات مدرسية . انما هو ذنب وضع البلاد السياسي والاجتماعي الذي لم يخلق لهم مثل هذه

٧) الهاتف عدد ١٣٨ سنة ١٩٣٩ .

الظروف . ان العمل الصحفي والنجاح فيه لا يتوقف على الشهادات المدرسيه . لأنه قابليه وموهبة وتفرغ وهوايه . فكثير من حملة الشهادات العاليه لا يستطيعون أن يكتبوا مقالاً أو يعالجوا موضوعاً . فالكتابة فن وموهبة كالشعر وسائر الفنون . لا تكتسب بمجرد الدرس والشهادة العاليه » [٨] .

لقد أحدث هذا المرسوم ضجة كبيرة في حينه وانتقده كثير من المفكرين وأشبعوه درساً وتمحيصاً فالكتابة موهبة قبل كل شيء . قال الأستاذ توفيق السمعاني صاحب جريده الزمان البغداديه « نحن لا نعرف هده الشهادة العاليه التي تخلق كتاباً ومؤلفين وادباء وصحفيين ، كيف نطلب من الشبيب أن يرأس تحرير جريده ويعالج مواضيع معينة ، فاذا قيل ان شهادة الحقوق هي المطلوبه في رفع مستوى الصحافة ، فالصحافة شيء وارتكاب الجرائم شيء آخر . فالصحفي الناجح هو الذي يجمع الى الأدب علوما وفنونا أخرى ثم يرزق مع هذا الملكة الصحفية، فالصحافة اذن هي وليدة الأدب والخبرة والفن والهواية والممارسة . والمواهب الخاصة . إننا لا نعرف للمؤلفين وقادة الفكر الخالدين من أمثال أرسطو وأفلاطون والمعرى شهادات رسمية » [٩] .

وحينما أرادت الثورة المصرية أن تصدر مثل هدا المرسوم استطلعت رأي بعض المفكرين قبل صدوره . ومنهم محمد علي علوبة حيث قال :

(٨) اليقظة العدد ٧٩٢ سنة ١٩٥٠ .

(٩) الزمان عدد ٣٨٠١ سنة ١٩٥٠ .

« انني لا أعلق كثيراً على موضوع الشهادات فالأدب وحسن التعبير أمور لا ترتبط بالشهادات .. ولطالما دلت الحوادث على أن أناسا لم ينالوا شهادات عليا ، وصلوا بمواهبهم الطبيعية الى أن يكونوا من أقدر الناس على التعبير عن آرائهم » (١٠) .

ذلك هو الجيل الأول من الأدباءاحترفوا الصحافة لخدمة أفكارهم الجديدة التي يحملونها بغية اشاعتها بين الناس . ولهذا جاءت صحفهم لوحات فنية أكثر من أي شيء آخر . يغلب عليها جانب الرأي ، ولم يولوا الأخبار تلك العناية التي نراها في صحافة اليوم . إلا بمقدار تفكيه الناس ومحاولة اطلاعهم على امور جديدة ، تضاف الى ثقافاتهم الخاصة . كما كانت صحفهم مصدر اثارة فكرية وجدلية بين النابهين من أدباء عصرهم . تحرك الأجواء الراكدة . لتدفع بالثقافة الى النمو ، وتتوصل الى هدفها هذا بمختلف الطرق فوضعت الجوائز للمتفوقين ، وحثت الكتاب والأدباء على الانتاج . وارتادت البيوت والزوايا المهملة بحثاً عن المخطوطات وعن الأدباء المنسيين ، قالت مجلة لغة العرب « عند حضرة الفاضل اسكندر أفندي ، كتب قديمة كثيرة في مواضيع مختلفة، ومن جملتها كتاب في اللغة يرجع عهده الى القرن السادس للهجرة عدد أوراقه ٢٥٠ ورقة . يبدأ الكتاب بالهمزة وينتهي بالياء .. » (١١) .

وهكذا تستمر المجلةفي تعريفقرائها بهذا الكتابوبكتبأخرىغيره.

---

(١٠) صوت الاهالي عدد ٢٣٦ سنة ١٩٥٤ .

(١١) لغة العرب عدد ٥ سنة ٩١١ ص ٨٩ .

غيره . كما كان للصحف النجفيه فضل يذكر في بعث كثير من أعلام الأدب في الفتره المظلمة . ولولا هذه الصحف لكان من المحتمل أن يودي الزمن بكثير من هؤلاء الأعلام . مع ما للتعرف عليهم من أثر في معرفة كثير من الانجاهات التي تنقصنا عن الفترة المظلمة، فمجلة البيان كانت تفرد في كل عدد من اعدادها حقلاً خاصاً عن الأدب المنسي ، قالت تحت عنوان (موشحات مسبية) ومما جاء فيه « تقرء تحت هذا العنوان في كل عدد أرقى الشعر غير المقروء والمسموع لمشاهير القرن التاسع عشر واليك موشحة للشاعر المنسي السيد موسى الطالقاني المتوفى سنة ١٢٢٧ هـ .. » (١٢) .

ولم يكتف أصحاب الصحف الرائدة من الأدباء بهذا فحسب، بل فتحوا صدور صحفهم . لكل أديب نابه أو مفكر معروف في عصره ، فكانت صحفهم ملتقى رواد الفكر والثقافه في عصرهم . وقد يضيق بنا المجال لو اردنا أن نتتبع كل من كتب في هذه الصحف . نذكر منهم على سبيل المثال . الشاعرين المعروفين الزهاوي والرصافي . وما أحدثا من ضجة في عصرهما . كانت الصحافة مجالها الأول . فأوجدا حركة فكرية لها أهميتها في بلد منظور كالعراق . باعتبارهما من الشعراء المجددين ، فكان لكل منهما مؤيدون ومخالفون . ماؤا أعمدة الصحف التي كانت تصدر قبل الحرب العالمية الأخيرة . ذلك أن أهل هذا الجيل من الأدباء كانوا ينظرون الى الصحافة كفن أدبي خالص ، وكوسيلة مهمة لعرض

(١٢) البيان عدد ٢٧ - ٢٨ ص ٧١٦ سنة ١٩٤٧ .

هذه الخواطر والأفكار . فكانوا بحق ثورة جديدة على كثير من المقاييس التي سبقت ظهور الصحافة ، ذلك أن الأدب العربي قبل ظهور الصحافة كان مقصوراً على قلة من الناس تغرم بالاشكال والزخارف يعج أدبهم بغريب الكلام ووحشي اللفظ ، المثقل بالتقليد الراكد في معناه ومبناه فلا ابتكار ولا سهولة ولا ذوق مجرد ألفاظ طنانة جوفاء متخذين من الرسائل والمقامات مثالا يحتذى في كثير مما يكتبون واذا كان لكل زمن مقال فان لكل عصر ظروفه ومقاييسه التي تمليها عليه طبيعة ذلك العصر لم يعد بمقدور الأديب الحديث أن يعنى بكل هذه الشكليات لمجرد أن يقال عنه . انه جزل الألفاظ فخم الأسلوب . فالماضي مهما بذلنا في تمحيصه لا يمكن له ان ينهض بكل تبعات الحاضر او المستقبل ، ولهذا فلا بد من النظر اليه على أنه لبنة أو أساس لكل ما يشيد عليه من عناصر الحياة . والا تحول الى مصدر خطر كبير ان نحن وقفنا عنده مقدسين أو متزمتين .

لم يعد الأدب وقفا على طبقة دون أخرى ، فالتطورات الهائلة التي صاحبت النهضة في ميادين التعليم والفنون والسياسة والاقتصاد والاجتماع استوجبت أدبا جديدا يتسع لكل هذه التطورات ، وقد تحملت الصحافة عبء هذا العمل نظرا لشيوعها واتتشارها وسرعة تأثر الناس بها . أدب يلائم هذه الطبقة الجديدة فنزل الى مستواهم وخاطبهم باللغة التي يفهمونها دون أن يفقد شيئا من فنيته في بادىء الامر لأن أدباء الجيل الأول كانوا من الموهوبين الذين لم ينزلوا الى

مستوى الاسفاف والانحدار الذي بلغته الصحف اليومية كما نراها اليوم . لقد دفع هؤلاء الرواد الجماهير الى مستوى الفن وتذوق الأدب حينما وجدوه ادبا جديدا يصور لهم الواقع الذي يعيشونه ؛ ويكشف لهم عن مواقف ذات مساس مباشر بواقعهم . لقد وجد هؤلاء الأدباء أن حياه الناس وطرق تعاملهم وغيرها من المواقف الكثيرة معين لا ينضب يستطيع ان يجد فيها الأديب أو يخلق منها مادة لموضوعاته فكلما عرض الكاتب الحياة البشرية بلغة معبرة كان أبعد تأثيرا في النفوس . فالتعبير عن الآراء الدينية والفلسفية والعلمية والسياسية يصبح أدبا اذا استخدم الاديب أسلوبه وعرض مادته عرضا فنيا ملائما؛ أما حينما يغرم الاديب بالصناعة اللفظية ويبحث عن الألفاظ المهجورة بحجة الجزالة والفخامة . او حينما يطرق موضوعات اشبعها الاقدمون بحثا . فان جمهور القراء سيعزف عن هذا الاديب حتما لانه لا يجد فيه ما يغريه به . أو لأن الأديب لم يكن موفقا في عرض آرائه وافكاره ببساطة ووضوح . فيعزف الجمهور عن هذا الأديب الى غيره ، يقول محمود تيمور « ان اكبر ما يعوق الجمهور عن استيعاب الفن هو التواء العرض ووعورة السبيل الى الفهم ،فاذا أحسنّا عرض الفن ويسرنا سبيله اليه عرف قدره وتذوقه واستمتع به وآثره على غيره . فاذا راعنا أن الانتاج الادبي محدود الانتشار ؛ فمن الخطل أن نرد ذلك الى أن الجمهور زاهد في هذا الفن الرفيع » (١٣) .

(١٣) محمود تيمور — فن القصص — ص ١٧٤ .

فالكاتب انما يكتب للقاريء ، وهما يعيشان في عصر واحـــد ، ويتعرضان لنفس الاحداث ؛ أي أن الكاتب لا يستطيع أن ينسى أهمية العوامل الخارجية التي تحيط به ـ لتكون بعد ذلك مادة لموضوعاته . والقاريء من ناحية أخرى يبحث عن الأدب والصحيفة التي يجد فيهــا نفسه ، فيتأثر عقله وذوقه وقلبة حينما يجده أدبا نابضا بالحياة .

لقد خرج الكتاب من تلك الحلقة الضيقة الى مجــالات ارحب وأوسع ، تلائم التطور الذي اصاب جميع نواحي الحياة . وأوجدوا من خلال هذا كله شعورا عاما بين آبناء الشعب الواحد ، ورفعوهم الى مستوى الاحــداث ، وجعــلوا منهم قوة تستطيع ان تترك أثرهــا وتقوم بدورها في أوقات المحن والأزمات ، يقول الدكتور محمد حسين هيكل في مقدمة كتابه ثورة الأدب : « منذ ان بدأ هذا الشعور القومي يحرك النفوس ويدعوها الى التوجه نحو النهوض بمجموع الامة الى مثل أعلى . من يومئذ بدأت الكتابة تخرج من الحظــيرة الضيقــــة حظيرة الدواوين ومن النطاق المحصور نطاق التعليم لتتصل بالنـــاس على اختلاف طبقاتهم ، ولتصور لهم من نواحي الحياة ما يريد الكاتب تصويره لكن الجمهور لا يفهم عنها اذا خاطبته باللغة التي كان يتخاطب بها العرب الأولون فكيف تقرب هذه اللغة الى ادراك الجمهور وترتفع الى حسن ادراك لغة القرآن ؛ من خــــلال هذا كلــه نشأت ثورة الادب » (١٤) .

---

(١٤) انظر مقدمة ثورة الادب لهيكل .

وقد تحملت الصحافة والادباء الذين كانوا يحررون فيها عبء هذه الناحية بالذات لالتصاقها بحياة الجماهير أكثر من أية وسيلة ثقافية أخرى . ففي الصحافه ظهرت الحاجه ماسة الى ملائمة متطلبات العصر في جميع مواحي الحياه . فكان تاريخها يضم بين دفتيه قصة التطور العام في مفهوم الادب : فتخلى نتيجة لهذا كله عن مراسيمه وطقوسة وابراجه كما كانت الصحافه رمزا لانحسار موجة الأدب الذي يغرق في الشكلياب . وتحول الأدباء عن أبراجهم تلك . ونزلوا الى ميــــدان الصحافه يعملون في محيطها ليخاطبوا الجماهير من خلالها ، ولم تعــد هناك موضوعات صالحة لان تكون مادة للأدب وأخرى غير صالحــة لأن يعنى بها الاديب . لقد اصبح هم الأدباء الجدد هو أن يقدموا أدبا نابعا من احساسهم . ليس لأحد عليهم من سلطان : يكتبون أو لايكتبون فليس القلم وسيلة وحيدة للعيش . فالأديب حر فيما يريد أن يقول أو يكتب ، وهدا في حد داته ثمرة من ثمرات النهضة الحديثة التي هيأت الحريه للقاريء وللكاتب على حد سواء . يقول الدكتور طه حسين وهو يتعرض لأدبنا الحديث « على آن هناك تطوراً لأدبنا الحديث أعظم خطرا له وجهان احدهما يتمثل بأشخاص الأدباء والآخر يتصل بالموضوعات التي طرقها الأدباء . فأما الوجه الأول فنجده في حافظ وشوقي والمنفلوطي من جهة ، والى العقاد والمازني وهيكل من جهة أخرى ، الثلاثة الأولون لا يعيشون لأدبهم وانما يعيشون بأدبهم . الأدب وسيلة الى الحياه . لأنهم بحاجة الى حماية تكفل لهم العيش والمــكانة . وأما الآخرون

فينتمون الى غير هذا اللون من الأدب . هم أحرار ينتجون أو لا ينتجون، وهم يأبون أن يؤدوا عن انتاجهم الأدبي حسابا لهـذا . أنهم ينتجون للجمهور ، فهم مدينون له بحياتهم الأدبية لكنه جمهور لا يعبث بحرية الأديب ولا يعرض كرامته لما لا يحب » [١٥] أولئك هم أدباء الجيل الاول من الذين امتهنوا الصحافه . فـكانوا بحق جسرا الى عصرنا الحديث الذي نقطف ثماره اليوم .

والصحـافة بالاضـافة الى أنهـا كانت ثورة عـلى كثير من المقـاييس التي سبقتهـا فانهـا كانت وسـيلة لتعـريف الأدباء وايصال أصواتهم الى القراء . كما كانت بمثابة البوق الذي يفخم هذه الأصوات وينشرها بين الجماهير . اذ يندر أن نجد شاعراً أو كاتباً إلا وللصحافة عليه فضل الذيوع والانتشار ، تعرف الناس بهم وبأدبهم حتى يصبحوا أعلاماً بارزين على كل لسان ، ومن المحتمل جداً أن فترة بقاء هذه الأصوات مرهون بقراءة الصحيفة وبالفترة التي تصدر فيها ، وكثيرا ما يذهب هذا الضجيج مع يومه ، ولقد أحس كثير من الأدباء أن هذا الضجيج والصياح الذي يرتفع بأسمائهم سرعان ما يخبو ، وأن الصحيفة التي كانت سبباً في شهرتهم ستكون وسيلة من وسائل القضاء عليهم وعلى أدبهم ، وسوف يأتي ذلك اليوم الذي سيكونون فيه أثراً بعد عين ، ومن هنا راحوا يلتفتون الى أنفسهم ، فهم لا يريدون أن يكون مصير جهودهم الى الضياع بهذه السهولة ، فصاروا يجمعون خواطرهم من هذه الصحيفة أو تلك ليضموها في كتب تكون أدعى

---

(١٥) طه حسين ــ الوان ــ ص ٢٩ .

لخلود هذه الخواطر وأصحابها مما لو تركت بين صفحات هذه الجرائد التي لا تتداول بين الناس أكثر من أربع وعشرين ساعة . مع ما لهذه الآراء والحواطر من آثر في المجال الفكري والأدبي ، والتي تعتبر ابنة لا يمكن اغفالها تضاف الى صرح الثقافة العامة ، يجد فيها الجيل اللاحق ما يمكن أن يفيده في كثير من أحكامه ، وبخاصة وقد كانت هذه الخواطر بداية نهضة الى العصر الحديث .

ان كتاب الطلائع كان حصيلة مقالات عن الأدب القصصي ومجموعة قصص لمحمود أحمد السيد الرائد الأول للقصة العراقية ، نشرها في عدد من الصحف المختلفة حينذاك . وتعتبر ركيزة هامة في دراسة هذا الفن جمعها السيد من الصحافة خشية الضياع ، فلو تركت حيث هي . لذهبت مع يومها . وكتب الخليلي من أمثال الضائع . وفي قرى الجن ، ومن فوق الرابية وغيرها الكثير . لم تكـن سوى مجهودات أتاحت لهـا الصحافة الظهور . وكان من الممكن أن تغيب عنا نحن أبناء هذا الجيل لو لم يتدارك الخليلي الأمر فيجمعها في كتب تكون أدعى لدوامهـا وخلودها . ان كل ما قاله الرصافي أو الزهاوي من شعر ، تجده منبثاً في ثنايا الصحافة . ولو أنهما تركا هذا الشعر على حالته لكان من الممكن أن لا تكون لهما هذه الدواوين التي كانت وسيلة هامة من وسائل تطور شعرنا العراقي . وربما جاء جيل لا يعرف من هو الرصافي أو الزهاوي .

وهكذا هم بقية الشعراء . للصحافة فضل اشاعتهم ونشر أدبهم

وتعريف الناس بهم . ولكنها غير قادرة على الاحتفاظ بهم للأجيال اللاحقة لسرعةدورانها الذي لا يقف عند حد ، كثيرون هم الشعراء الذين لا نعرف عنهم اليوم شيئاً . فيهم المقل وفيهم المكثر ، ومع هذا فقد أتى عليهم النسيان لأنهم تركوا شعرهم في الصحافة ، ولم يجمعوه في وعاء يضمن لهم الاستمرار والدوام . فحديث الأربعاء للدكتور طه حسين كان مجموعة مقالات كتبها للصحف ، خاف عليها من الضياع فضمها الى كتابه هذا ، وانتشل الزيات أحاديثه من مجلة الرسالة ووضعها في وحي الرسالة . وقل مثل هذا في مراجعات العقاد ، وجميعها ثمرة من ثمرات الصحافة . خيف عليها من الاندثار لأن هذا البريق لا يدوم أكثر من فترة محدودة قد لا تتجاوز اليوم الواحد .

وفي هذه المرحلة بالذات بدأ الكتاب يشق طريقه كوسيلة ثقافية مهمة ، كانت الصحافة وسيلة لتعريف الناس به بما هيىء لها من سرعة في الانتشار . فكانت مهمتها الدعاية له والاعلام عنه ، واستطاعت المطابع المختلفة في البلاد العربية أن تقذف عدداً كبيراً من هذه الكتب الجادة التي تتمثل في أحياء الآثار العربية القديمة والترجمة عن الأمم الحية مما كان له أكبر الأثر في اشاعة الفكر والثقافة بين البلاد العربية المختلفة وبخاصة فيما بين الحربين ، على أن هذه الحركة لم تدم ، فما كاد الكتاب يقف على قدميه حتى عادت الصحافة فكانت وبالا عليه وبخاصة حينما ظهر الجيل الجديد من الصحفيين ، إن مجموعة من العوامل المختلفة هي التي أوصلت الصحافة الى هذا الحد ، ذلك أن تقدم

المواصلات بين أجزاء العالم المختلفة وسرعة انتقال الأخبار بفعل ظهور الراديو ووكالات الأنباء وغيرها من وسائل الاتصال السريع ، حولت الصحافة الى الاهتمام بالناحية الخبرية ، فبدا العالم وكأنه مجتمع واحد ما يصيب جزءاً منه يصيب جزءه الآخر . مع ما لهذه الحوادث من أثر في حياة الانسان ومستقبله . يضاف الى هذا كله أن شيوع الثقافة بين عدد كبير من أبناء الشعب الواحد بفعل انتشار التعليم أدى الى وجود رأي عام ترتب عليه ظهور النظريات الاجتماعية والسياسية ، فكانت الأحزاب والجمعيات السياسية والمهنية ذات الاتجاهات المختلفة . تحول الأدب بفعل هذا كله الى واجهة من واجهات الاعلام والدعاية ، وتتلاحق الحوادث وتتطور فتتحول أكثر الصحف الى صحف يومية غايتها إستيعاب هذه الأخبار أو ما يدور حولها وهي أخبار متجددة متبدلة تحتاج الى تعليق أو شرح يسير معها .

ازاء هذا كله . وجد أدباء هذا الجيل أنهم لم يعودوا يملكون مجالاً واسعاً يستطيعون معه أن يقوموا بواجبهم الذي بدؤا به ، فهناك سلطة تتهم الأدب على أنه غزل ومدح ورثاء . وهناك أحزاب لها مكانتها وخطورتها بين الجماهير . تريد من الأديب أن يكتب عن الطبقة العاملة والفلاح وجماهير الكادحين وإلا عد الأديب خارجاً عن نطاق المجموع وانه أديب لذة ومتعة . ومن ذلك ما قالته جريدة صوت الأهالي لسان حال الحزب الوطني الدمقراطي « لم يعد الأدب العراقي كما كان بالأمس ، انعكاساً للذات وتعبيراً عن انفعالات نفسية خاصة ، ان الأدب

العراقي يتجه اليوم الى الارض ، وان الأديب الذي يحاول التحليق فوق التراب هو أديب ميت . وان أدب الجنوح الى الغموض والاغراق في الخيال ، قد بدأ يتلاشى . ان أدب الضباب وأدب اللذة في طريقهما الى الاختفاء نهائياً . ان الأديب اليوم يدرك بعمق المسؤولية الملقاة على عاتقه ، عليه أن يسير دائماً في القافلة » [١٦] .

وقد ذهبت أحزاب أخرى الى أبعد من ذلك . وخاصة صحف الأحزاب اليسارية ، فطالبت بأدب يخدم الطبقة العاملة ، وبتطبيق النظرية الماركسية على الأدب العراقي « ان وضع الفن في خدمة العمال والفلاحين والجنود والبناء الاشتراكي هو الاتجاه السياسي الوحيد للأدب » [١٧] .

وقد ذهبت أحزاب أخرى الى أبعد من ذلك ، وبخاصة صحف ثورة تموز وكان أصحابها يقفون بصلابة أمام كل أديب لا ينظر هذه النظرة وإلا وجهت اليه الف تهمة . هم بهذا يحددون الأديب ويجعلونه غير حر في انتخاب موضوعه أو في طريقة معالجته للقضايا التي يراها هو لا ما يراها الآخرون . وهم يفسرون الالتزام تفسيراً ضيقاً يدور في حلقة معينة . ربما يكون سبباً في ضياع كثير من القيم الفنية ، كما انهم يقضون على الحرية التي هي ضرورة لازمة لكل عمل أدبي ، فالأدب ليس وسيلة عبث صبياني والا كان باستطاعة الأديب أن يبحث عن وسيلة أخرى للهو والعبث . والأديب ليس انساناً قائماً بذاته لا يتأثر

---

(١٦) صوت الاهالي عدد ١٣٦ سنة ١٩٥٤ .

(١٧) اتحاد الشعب عدد ٥٤ سنة ١٩٦٠ .

بما حوله . فلا أدب بدون وعي أو بلا غاية . يقول سارتر وهو يسخر من هؤلاء الذين ينظرون الى الالتزام نظرة ضيقة « الفن لدى البعض هروب من الواقع . ولدى البعض وسيلة من وسائل التغلب ، ولكن من المستطاع أن يهرب المرء من الواقـع بالرهبانية أو بالجنون أو بالموت . كما يمكن التغلب بقوة السلاح ، فلماذا يختار المرء اذن الكتابة دون غيرها ليسجل كتابة مظاهر هربه من الحقيقة أو مواطن انتصاره ، ذلك أن وراء أهداف المؤلفين حرية أختيار مشتركة بينهم هي أعمق وأقرب الى رسالتهم من تلك الأهداف » (١٨) .

ليس هناك أديب لا يحمل رسالة ، ولو استطاع الانسان أن يعيش لوحده لاستطاع أن يكتب ما يريد . ويبدو أن هذه الدعوات قد وجدت لها صدى عند كثير من الكتاب الجدد . فانحسرت موجة الجيل الأول من الأدباء . وتهيأ الجو بفعل العوامل التي ذكرناها لجيل جديد ، فلم يعد الكاتب في هذه المرحلة الجديدة يفكر ويتأمل ، لأن المطبعة قادرة على أن تبتلع كل شيء ، وتريد كل شيء في وقته المحدد . ومن هنا صار كاتب الصحيفة الحديثة ، يروي الحوادث كما تقع . ويعلق عليها من خلال نظرته أو نظرة من يكتب لهم . بل هو مطالب لأن يعلق عليها في الوقت الذي تقع فيه الأخبار ذاتها ، صار عليه أن يكتب بصرف النظر عن مدى أهمية ما يكتب ، لقد تحولت عملية الكتابة الى عملية تحرير ، ونشأ جيل من الصحفيين وجد أن من واجبه أن يتلاءم مع هذه

(١٨) سارتر ــ ما الادب ــ ترجمة غنيمي هلال ص ٤٦ .

المرحلة الجديدة . عليه أن يكتب بسرعة . لكي يفي بحاجة المطبعة اليومية، ليس مهما أن يكون أديباً موهوباً له أسلوب مميز . بل المهم أن يكون ارتجاليا سريعا مع الحوادث . يشبع نهم عامة قرائه الى ما يريدون ، لقد أصبحوا هم الذين يملون عليه أرادتهم . أما القلة هؤلاء الذين يتطلبون شروطاً معينة في الفكر والاسلوب فهم ليسوا بذي قيمة للصحيفة الحديثة . بل ان الصحيفه التي تلائم شروط هؤلاء الناس ستجد نفسها في يوم من الأيام بلا قراء . فلا تستطيع بعد هذا أن تستمر على الصدور .

حينما آخذ على مجلة الغربال ابتعادها عن الأدب الصحيح والاسلوب الرزين كما كانوا يقولون . ردت عليهم بما يعبر بصدق عن طبيعة العصر فقالت « بين اخواننا الأدباء من لم يختبروا الجمهور ولم يقفوا على عقليته ومستواه . يلوموننا على نشر بعض المقالات التي يرونها لا تبلغ الدرجة المطلوبة من السمو في أسلوبها وموضوعاتها . .... كنا من القائلين بهذا القول الى زمن قريب . حيث وضح لنا فيه أكثر من وجه واحد للخطأ . ان قراء الصحف مجموعة مختلفة المشارب والأذواق والمعرفة والعلم . فليست حاجتهم واحدة . ومن المؤكد أن أرقى ما يكتب ويقال لا يفيدهم كلهم ولا ينال اعجابهم جميعاً . وصاحب الجريدة يقدم اليهم ما يرغبون فيه وما ينتفعون منه » [١٩] .

لقـد تحولت الصحف اليومية في كثير من الأحيان الى عملية

(١٩) الغربال ــ عدد ١٣ سنة ١٩٤٦ ص ٢ .

تجارية . وصارت تعتمد في مواردها الاقتصادية لا على القراء ممن لهم أذواق ومشارب خاصة فحسب بل على موارد أخرى أهمها الاعلان ، الذي أصبح جزءاً مهما في حياتها وبقائها وصار هم الصحيفة ، لا أن تبحث عن هذا الكاتب أو ذاك . وانما عن الاعلانات التي تكون مورداً هاماً من مواردها الاقتصادية .

ومن هنا دخل الصحافه كثير من أولئك الذين لا يملكون من آلتها شيئاً . وأصبحت هيأة التحرير خليطاً غريبا حظهم من الموهبة قليل . مجرد وجود رأسمال . مع قليل من التجربة والخبرة في العمل الصحفي . أو من اولئك الذين ترغمهم ظروفهم الخاصة على ولوج هذا العمل . قال كاتب في مجلة الصياد وهو يسخر من هؤلاء المحررين الجدد الذين يتولون زمام الصحافة في جيلها الجديد « أما كيف دخلت ملاك الصحافة . فذلك ما يطول شرحه . أولهما حب الشهرة وأنا شاب ، وثانيهما أن السلطة سدت بوجهي أسباب الرزق المتصل بالدولة ، ولعدم وجود امكانات مادية تسكنني من العمل بالأعمال الحرة . واتذكر جيداً أنني كنت اعمل في صحيفة كان يكتب مقالاتها الأستاذ زكي السلامي لقاء أجرة لا تتجاوز الـ ٣٠٠ فلساً عن كل ثلاث مقالات يومية فما أن استلمت المقالات من كاتبها حتى وضعت تحت الأولى بقلم الكاتب المعروف فلان . والثانية بقلم الأستاذ أبو كذا . والثالثة بقلم الأديب الكبير فلتان . وكلها ألقاب أسماء لصاحب الجريدة ودفعت بها الى المطبعة تحمل ثلاث مقالات باسم صاحبها . وفي مرات عدة كنت محرراً

فيها كان أصحابها من أشباه الأميين ، يقولون لي بصراحة : أكتب كذا باسمي فأذيل المقالات بأسمهم » [٢٠] ، وهناك فترات تصدر فيها عشرات الصحف دفعة واحدة ، أيام تشكيل الوزارات أو البدء بالانتخابات أو عند حدوث ضيق اقتصادي . أو عند تنسيق الموظفين وزيادة عـــدد المتخرجين عن حاجة البلاد . وهناك الصحف الموسمية وهي صحف قصيرة الأجل يخرجها من تستغني عنهم الحكومة ليكونوا لساناً عليها ، وفي كثير من الأحيان تصدر صحف يقصد أصحابها منها الحصول على وظيفة معينة أو كسب خاص .

هذه الصحف وأمثالها ليست وبالاً على الكلمة فحسب ، بل هي وبال على الأخلاق كذلك . فهي بالاضافة الى ما فيها من مهاترات شخصية تترك آثرها السيء على الناس . فانها عبء ثقيل على الصحف الجادة التي يتولى أمورها من خلقوا للصحافة والأدب ، أقل ما فيها أنها تمتص عدداً غير قليل من قرائها . كما أنها بعملها هذا تفسح المجال للمبتدئين من قرائها بغية الاحتفاظ بهم كزبائن لشراء الجريدة فتنشر لهم ما يبعثونه اليها ، وبهذا تكون قد بذرت الغرور في الناشين فيندفعون في هذا الاتجاه ويتركون القراءة والتحصيل ما داموا يجدون من ينشر كلامهم هذا ، يتعرض طه حسين لهذا فيقول « ومنهم من أتخذ الأدب وسيلة للكسب فابتذل أدبه ابتذالاً ، هذا أزهري قد تعلم أوليات النحو واللغة وطرفاً من هذه العلوم التي تلقى في الأزهر ، ثم قرأ الصحف

(٢٠) مجلة الصياد ــ عدد ٦ سنة ١٩٥٤ .

والمجلات فخيل اليه أنه يستطيع أن يحاكي ما فيها من النظم والنثر ، ثم جرب نفسه فانتهى الى شيء من النثر ثم أرسله الى صحيفة . ونظر صاحبنا فاذا كلامه منشور مطبوع يباع في السوق يشك في أنه أدب وان نفسه حصينة من الاثم أن يهملها فيندفع في الانتاج وينصرف عن التحصيل » (٢١) ولدينا في الصحافة العراقية نماذج غريبة في الشعر والنثر تدل على الدرجة التي انحطت اليها كثير من هذه الصحف ، من ذلك هذا الذي نشرته مجلة السينما البغدادية . قال أحد قرائها :

يا سـعاد انصفيني بوصـال وحنـين
انصفيني حيـث أني ذبت وجـدا في سنين

وقال آخر :

نقطع الليل — تعالي — بالقبل فربيـع الحب يا ليلى وصـل
وفراشات الهوى من حولنـا في رحيـق الحب تسقينا العسل (٢٢)

وهناك نماذج كثيرة دون هذا المستوى . قد يطول بنا الحديث ان نحن أكثرنا منها . لتدل بالتالي على المدى الذي انحدرت اليه الصحافة في وقتنا هـذا . ذلك أن الصحافة بعجلتها التي لا تعرف التوقف . وبنماذجها الهزيلة تلك . أودت بكثير من القيم الفنية والجمالية التي هي من صميم العمل الأدبي ؛ فكتابها لم يعودوا يجدون فسحة من الوقت يرجعون فيها الى نفوسهم . فتحولت الصحافة الى ما يشبه المخبز .

(٢١) الاخاء الوطني — عدد ٧٦٠ سنة ١٩٣٤ .

(٢٢) مجلة السينما — عدد ٦٤ سنة ١٩٥٦ ص ١٠ .

الذي عليه أن يقدم الخبز للناس في كل يوم ، وهكذا هي الجريدة . فجاء أدبها سهلاً لا يدل على معاناة حقيقية . يفهم بسهولة ويسر فعود الناس على اون من الجمود والتبطل . فلم يعودوا يقدرون على قراءة شيء جاد يحتاج منهم الى شيء من التركيز والتأني ، وبخاصة هؤلاء الذين يعتمدون على الصحافة في غذائهم الفكري والروحي ، وتحول الكاتب الى مجرد آلة بفعل عمله اليومي المعتاد . يتحرك حسب مشيئة من يحركه . لا مشيئة النقد المبدع والخيال الخصب والفكر المتأمل .

ولكن مع ذلك فاننا لا نستطيع ان نرمي كل اللوم على الصحافة ذاتها فالعصر الحديث رغم تقدمه في مجال الماديات لم يهيء للانسان ماينبغي من رغد واطمئنان . فحرم الانسان لذة التفكير والتمتع بالجمال وفقد الوقت الذي يستطيع معه ان يغذي عقله وقلبه . وسبب له قلقا فكريا ونفسيا بسبب ركضه وراء حاجاته ومتطلباته التي لا تنقضي ، ومن هنا فان الاعصاب لم تعد تتحمل وطأة الجد والتفكير الذي يتطلب جهدا . مجرد شيء خفيف يستطيع ان يعي ما فيه بسهولة ويسر ، ويبدو أن الصحافة كانت ذكية . فقد عرفت هذه الناحية في انساننا الحديث ، فراحت تتلائم معه ، وتغريه بشتى أنواع المغريات التي تنسيه آلامه وتخفف عنه عناء يومه ، وربما كان هذا هو السبب في شيوع الصحف اللماعة وانتشارها أكثر من غيرها .

ازاء هذا كله ، صار من الصعوبة التفريق بين الغث والسمين ، فالقراء من ناحيتهم اعتادوا على هذه السهولة لانها توافق ميولهم ،

والمحرر من ناحيته يجد نفسه مضطرا لأن يلائم أذواق قرائه ، فاعتاد هو الآخر على الكتابة السهله التي تتفق ووقته الضيق . فماتت عنده ملكة التفكير والابتكار . ولدينا أمثلة كثيرة على كتاب امتهنوا الصحافة ولم ينتجوا كتابا واحدا في حياتهم .

لقد خلقت الصحافة الى حد بعيد ما يشبه الفوضى في المقاييس والاحكام حتى صرنا لا نعثر فيما نمر به من نقد ودراسات على رأيين يتفقان على السمو بعمل فني . او يتفقان على الاسفاف في عمل آخر ، هذه الفوضى الجامحة آدت الى ضياع الرأي الحر وسط هذه الآراء المبتسرة التي تقوم على ادعاء فارغ في حريه الرأي والذوق . مع أنهم لا يملكون الآلة التي يستطيعون معها الحكم على نص أدبي بعينه .

ما داموا يعتمدون على الصحافة في غذائهم الفكري ، هذا الغذاء المجرد عن كثير من قيم الفن والجمال . وانما هو جسم عار خال من الروح والدم ، يسوق المرحوم مصطفى الرافعي مثالا له مغزاه ، وهو يفرق بين الأدب الذي في الصحافة والأدب الذي هو خارج عن نطاقها فيقول « هنا خوان في مطعم كمطعم (الحاتي) مثلا عليه الشواء والملح والفلفل والكواميخ أصنافا مصنفه . وآخر في وليمة عرس في قصر وعليه ألوانه وازهاره . ومن فوقه الأشعة ومن حولة الأشعة الاخرى . ومن كل مضيئة في القلب بنور وجهها الجميل . أترى السهولة كل الا في الأول ؟ وهل التعقيد كل التعقيد الا في الثاني ؟ ولكنه أي تعقيد

انه تعقيد ليس إلا وبه يضاف الجمال الى المنفعة »[٢٣] .

وهناك فرق بين أدب يخلو من الروح والفكر وآخر ينقلنـــا الى حيث الخلق والابداع . لتتداعى فينا الافكار والمعـــاني ، والسبب في هذا كله انما يعود الى السرعة التي جنت على الفن والأدب وافقدتهما كثيرا من قيمهما الكامنة فيهمـــا .

ان الصحافة بتعويدها الناس على كل سهل ، حرمت الكتاب من قراء كثيرين كان من الممكن ان يجدوا فيه كثيرا من غذائهم الفكري الذي لا يجدونه في الصحافه . لقد فقد الكتاب أهميته وبقي محصورا في حلقة ضيقة على الأكثر بعد ان أصبح قراؤه مجهولين ، يقول طــه حسين « لم يعد الكتاب التسلية الوحيدة بين المثقفين فهناك الصحف والسينما والراديو وغيرها من الوسائل التي تجذب القاريء وتستهويه لأنها تتمشى مع الكسل الطبيعي للانسان . بينما يتطلب الكتاب جهدا للحصول عليه ، ومطالعته ، جهد من القاريء وجهد من الكاتب »[٢٤]. لقد نازعت الصحافة في العصر الحديث الكتاب سلطانة واقتطعت جزءا عظيما من هذا السلطان ، حتى رأينا الكثيرين يستغنون بالصحافة عن الكتاب ، ذلك أن وقت القراءة محدود ينفق جله في مضطرب الحياة وأقله في القراءة ، ففي الوقت الذي عرفت فيه الصحافة كيف تجعــل من نفسها ضرورة من ضرورات الحياة ، انحصر الكتاب في حلقة ضيقة

---

(٢٣) الرافعي — وحي القلم — ص ٣١٠ .

(٢٤) الهاتف — عدد ١٢٦١ سنة ١٩٥٢ .

لا توازي شيئا بالنسب لقراء الصحف التي عرفت كيف تغري القاريء وتستهويه ، متوسلة اليه بالوسائل المختلفة ، فنوعت ابوابها ، واجتهدت في ان تطرف القاريء كل يوم الى جانب الاحداث القريبة والبعيدة ألوانا من المعرفه بلا جهد ولا تكلف .

ان مستقبل الفكر والثقافه لا يبشران بالخير أمام طغيان هذه الصحف لسيارة . ويبدو أن الصحافة بانحدارها الى هذا الدرك كانت سببا في تنبيه الناس الى الهوة التي تنحدر اليها الثقافة ، فصار هناك ما يشبه الرجوع الى الكتاب الذى بدأ يستعيد أهميته وقيمته في السنوات الأخيرة بعد أن تورطت الصحافة في هذه المنحدرات ، فكثير من المثقفين . لم يعودوا يهتمون بالجريدة الا على أساس أنها مصدر من مصادر الأخبار فحسب . أما أنها مصدر فكري فان كثيرا من الناس باتوا ينظرون اليها نظرة ازدراء واستخفاف . وان الكتاب لا الجريده هو الذي يستطيع أن يترك أثره في مدى جيل أو اكثر . فاذا كان للجريدة التأثير القوى السريع فان للكتاب التأثير النافع البطيء[٢٥] ومتى ما زاحم الكتاب الجريدة بكون الأدب في هذه الحالة قد حصل على استقلاله عن الصحافة . ومستقبل الاديب وخلوده انما يكون في يده . فمن اراد الشهرة فعليه ان يقصر ادبه على الصحافه ولكنها شهرة وقتية تزول بزوال ذلك اليوم . ولمن اراد التأثير البعيد المدى في الاجيال اللاحقة فان عليه ان يفرغ للعلم والادب ليكون خالدا .

(٢٥) انظر عبد اللطيف حمزه ــ الادب والصحافه في مصر ــ ص ٣١ .

الباب الثالث

الفنون الادبية فى الصحافة العراقية

الفصل الاول

المقـــال

المقال من الفنون الأدبية الحديثة الذي رافق ظهور الصحافة منذ وجودها . حتى اصبح تقليدا متبعا لا تستطيع ان تستغني عنه صحيفة يغلب عليها جانب الرأي . وهو في المراحل الأولى من حياتها يعد عنصرا أساسيا في بقائها . بل ان الصحف في تلك المرحلـــة كانت تشترى لا على أساس ما فيها من اخبار وانما على اساس ما فيها من مقالات لهذا الكاتب أو ذاك . ومن هنا كانت هذه المقالات أدبية في جوهرها يغلب عليها جانب الفن والصناعة اكثر من أى شيء آخر . اما تعريف المقـــال أو تحديده . فقـــد لا يكون مهما من الناحية العلمية . فهو في الوقت الذي ينظر اليه البعض على أنه رأي في قضية مهمة يصـــاغ بعبارات موزونة [١] . يراه الاخرون على أنه فن التعليق على هـــذه الاخبار

(١) توماس بري — الصحافة اليوم — ترجمة مروان الجابري ص ٢٩٥.

المختلفة (٢) .

والمقال يطلق على الكتابات التي لا يدعي أصحابها التعمق في بحثها أو الاحاطة التامة في معالجة موضوعاتها ، فهو رأي شخصي او فكرة معينة في موقف من المواقف . يتخذ مادته من الواقع الانساني . حتى لو بدا أنه لا يقصد الى ذلك ؛ لأن حياة الناس معين لا ينضب.

والعراق بلد متطور نام ما يزال في بداية نهضته ؛ يخيم الجهل على اكثر من نصف ابنائه . والمتعلمون فيه أشبه بخط بياني كثير المنحنيات يترك أثره أولا وقبل كل شيء على الكاتب نفسه ؛ ذلك أن عملية الكتابة تتطلب بالضرورة عملية القراءة . ومن هنا يجد الكاتب نفسه أمام أمرين . فهو أما أن يكتب لقمة الهرم وهؤلاء قلة في بلد كالعراق . وأما أن يكتب لعامة القراء مهما كان مستواهم ، ومن هنا ينشأ هذا التناقض الذي نراه بين الكتاب . وهو تناقض أوجدته الظروف التي أدى اليها إنعدام التجانس بين الجماهير التي كان من الممكن — لو أنها كانت قريبة من بعضها — أن تكون الطرف الطبيعي والمكمل لعملية الكتابة ذاتها . ومن ثم كانت البلبلة التي تتعدى حدود الأدب، فالزمرة الاولى بما تهيأ لها من ارستقراطية عقلية وفكرية تتطلب شروطا معينة في الأدب والا ما عدّ أدبا ؛ والجماهير المتطلعة الى حياة أفضل تتطلب — بفعل ثقافتها المحدودة — شروطا معينة في الأدب أهمها السهولة والوضوح والا كان أدب ترف وخيال ؛ ذلك واقع لا يستطيع

(٢) أنظر الدكتور عبد اللطيف حمزة — الصحافة والادب ص ١٥ .

أن يتناساه أحد ، كان من أثره ظهور ما يسمى بالأدب الخالد والأدب غير الخالد . ومع ذلك فالكتاب أنفسهم يختلفون في مواهبهم وقابلياتهم الفكرية والأدبية ، والكتابة الناجحة في الصحف لا تختلف عن غيرها ، ونحن لا نستطيع أن نأمر أديبا بعينه أن لا ينفعل مع هذه الحوادث المتغيرة في عصره ، لأنها تعيش معه وتؤثر فيه . والقراء بطبيعة الحال يميلون الى من يشاركهم آراءهم ويدافع عنهم وعن حقوقهم . ولهذا فلا معنى للخلود أو غير الخلود في الادب . اذ المفروض في الأديب أن يعيش في عصره حيث هو وأن ينغمس في هذا العصر « اننا لانخلد بالركض وراء الخلود ... بل لأننا حاربنا بتفان في عصرنا ولأننا أحببناه بتفان ، وقبلنا أن نفنى كليا معه » (٣) .

ومن هنا كانت السياسة هي الجانب الذي دخل فيه الكتاب وغلبوه على سائر الجوانب الأخرى ، ولا ضير في هذا إذا نظرنا الى المسألة من الناحية العملية . فأوضاع العراق وظروفه الخاصة كانت تستدعي كل هذا الاهتمام ، ذلك ان الناس كانوا — وما زالوا — يرون أن في حل المشاكل السياسية حلا لكثير من المشكلات الاخرى ، ومن هنا فانهم أولوها عنايتهم بالقدر الذي تستحقه .

ولعل أهم الجوانب السياسية التي أعطاها المقال اكثر ثقله وأهميته ، المسألة الوطنية واستقلال البلاد . فقد رافق هذا الجانب الصحافة العراقية منذ نهاية الحرب العالمية الاولى وحتى الثورة

---

(٣) سارتر — الادب الملتزم — ترجمة جورج طرابيشي — ١٢ .

العراقية سنة ١٩٥٨ . عندها بدء يخف لغلبة موضوعات أخرى أوجدتها ظروف الثورة الجديدة التي فضت على تبعية العراق لدول كبرى .

فالعلاقة بين العراق وبريطانيا لم تكن واضحة في يوم من الايام حتى بعد ان حصل العراق على استقلاله عقب ثورة العشرين ؛ ذلك ان بريطانيا كانت تريد أن يبقى العراق دولة مستقلة في الظاهر على أن يكون مرتبطا بعجلة سياستها في حقيقه الأمر . هذا التناقض بين كون العراق دولة مستقلة وبين كونه مرتبطا بالسياسة البريطانية في حقيقة الامر كان علة العلل بالنسبة للعراقيين ولصحفه الوطنية التي كانت الحارس الامين لمصالحه ولما رأى المحتلون أن الاحتـــــلال العسكري والاستعمار المباشر لم يحقق مطامعهم لان عليهم ان يدفعوا ثمنا غاليا لهذا الاحتلال راحوا يبحثون عن صيغ جديدة أخرى تكفل لهم مطامعهم من جهـــة وتضفي صفة الاستقلال للبلاد التي يحكمونها من جهة أخرى ومن هنا كان الانتداب وكانت المعاهدات . التي أصبحت الشغل الشاغل للصحافة العراقية إلى قبيل العقد السادس من هذا القرن فتراها تنقد وتمحص وتهدد وتحذر وتشجع مراعية بذلك الظروف المختلفة التي كانت ترافق ابرام هذه المعاهدات .

أما الحكومات العراقية التي تعاقبت على حكم البلاد خلال فترة الحكم الملكي فكانت صوراً باهتة وخيالات ليس إلا . همها مجاراة الحكم الأجنبي وتحسين رغباته واضفاء الصبغة الشرعية على المعاهدات والمراسيم التي تكبل العراقيين . ولهذا ظلت بنود هذه المعاهدات في

طي الكتمان حتى لا يعرفها الشعب ويثور عليها بل انهـــا لم تكـــن تعلن إلا اثناء التصديق عليها . قالت جريدة دجلة عن المعاهدة الأولى « أمست المعاهدة العراقية عنقاء معرب تذكر ولا ترى . حتى بتنا نحلم بها كما يتحلم (كذا) المهموم . وقد قيل غير مرة ان كل معاهدة تعقد بين دولة وأخرى لابد من عرضها واعلانها على الرأي العام !

أصخرة أنا مالـــي لا تحركني   هذي المـــدام ولا تلك الأغاريـــد

كل ما يقال عن معاهدتنا . إنها موضوعه في بوتقه التمحيص . غير اننا بقينا جاهلين وخابطين في مهامهها خبط عشواء في ليلة ظلماء » (٤)

والحقيقة أن هذه المعاهدات كانت محكاً لرجال السياسه وصلابـــة الشعب . لأنها تتعلق بمستقبل أمة تريد أن تحيا حياة حرة . وفي كثير من الأحيان كانت الصحف تقف موقف المشجع والمحذر من تمادي الحكام في ضياع مستقبل هذا البلد . فتذكرهم أن التاريخ سيقف لهم بالمرصاد ان هم تساهلوا مع الاستعمار وأعطوه ما يريد . لننظر الى جريدة المفيد وما كانت تحس به من مسؤولية قبل أن تعقد هـــذه المعاهدة فتحت عنوان (هذا يوم الفصل أو الآن يعرف الصادق) قالت تحث الحكومة على أن تقف موقف الصلابة في سبيل قضية البلاد العادلة « النبوغ والبطولة والمجد والعظمة متمنى كل انسان شريف وغاية كل ذي نفس كبيرة . والأوقات العصيبة والأزمات الحرجة خير واسطة لذوي المواهب الساميـــة لادراك هـــذه الصفات والتحـــلي بها . . .

(٤) جريده دجلة عدد ١٤٠ سنة ١٩٢٢ .

والأجيال القادمة ملقاة على عواتق وزراء الشعب الكرام ، سيما وقد أعلنت الصحف المحلية أنهم جلسوا مراراً عديدة لدرس مسائل مهمة تتعلق بحياة البلاد ومنها المعاهدة العراقية الانجليزية فيا أصحاب المعالي هذه بلادكم من أقصاها الى أقصاها عيـون شاخصة وقلوب متطلعة تنتظر بفارغ الصبر ما ستأتونه بها . وهي قبل كل شيء تريد أن نعيش كأمة حرة عزيزة الشأن منيعة الجانب . نطلب من معاليكم رفض كل ما يمس شرفها ويحط من كرامتها . كصديق يتمتع بكل ما يتمتع به صديقه . نريدها معاهدة شريفة . يعترف بها قبل كل شيء بالاستقلال التام المجرد عن كل قيد أو شرط . ها هي واقفة تنتظر خروجكم من مجلسكم الموقر كظافرين محررين لنهتف لمعاليكم ولنقم لكم تماثيل الاعجاب والتقدير، وهذه ارواح الأجداد مرفرفة فوق سماء ذلك النادي الذي تضمكم جدرانه . ترقب ما سنخطه أناملـكم الكريمة في شأن أبنائكم ، فلا تبخلوا عليها وعلى انفسكم بالحياة الحرة الشريفة وأنتم المسؤولون أمام الله والأمة والتاريخ » (٥) .

ويتحول أسلوب هذه الجريدة من محذر ومشجع الى لهجة فيها الكثير من التهديد والوعيد والحث على الثورة . بـل راحت تتلمس السبل التي تبرر لها هذا الرفض وتحث الشعب على عدم الاعتراف بالأمر الواقع لأن هذه المعاهدة لم تعقد إلا بين أفراد لا يمثلون الشعب وبين حكومة استعمارية همها امتصاص ثروات البلاد فقالت تحت عنوان (أفتحوا عيونكم أو قصاصة ورق) ومما جاء فيه « لا حكم اليوم في

(٥) جريدة المفيد عدد ٣٨ سنة ١٩٢٢ .

أنظار الشعوب للمعاهدات والمواثيق اذا لم تبن على أساس المصالح المتبادلة بين المتعاقدين ، وهي اذا طبقت اليوم فلن تطبق غداً وقد عرفت الحكومات الرشيدة أن المعاهدات يجب أن تعقد مع قلوب الشعوب لا مع أفراد لا يمثلون إلا أنفسهم ولا يتكلمون إلا عن معتقداتهم اذا كانت لهم معتقدات خاصة بهم » (٦) .

تحرض الشعب على التمرد على هذه المعاهدة أو المعاهدات التي تليها ذلك أن الحكومة البريطانية كانت هي الاخرى تتطور مع الزمن بحثاً عن صيغ جديده تلائم روح العصر على أن لا تفقد من مصالحها شيئا وهكذا كانت المعاهدات تتلاحق وليس فيها غير تكبيل الشعب العراقي بمزيد من القيود . ذلك أن عاقدي هذه المعاهدات كانوا هم الذين يسيطرون على الأوضاع في البلاد . وهم الذين عقدوا المعاهدة الأولى والثانية ومن هنا تعرضوا لنقمة الشعب وصحافته ، قال الاستاذ فهمي المدرس وهو يعلق على المعاهدة التي عقدت خلال العقد الرابع من هذا القرن « ان المعاهدة الجديدة قد جعلت العراق في قبضة الأجنبي من الوجهات السياسية والادارية والاقتصادية والقضائية وقد حملته ديوناً على أنقاض بالية . نحن في غنى عنها ، وعرضته لتوتر العلاقات بينه وبين جيرانه وألزمته جميع ما يملك اذا اقتضت مصلحة الاجنبي الحرب مع أية دولة شاء . وخلدت الاحتلال وفصلت العراق عن الاقطار العربية . أما الاستقلال الذي يبشرون به فمعناه الصحيح في هــذه

(٦) المفيد عدد ٦٢ سنة ١٩٢٢ .

المعاهــدة استقلال الاجنبي في العراق . فاذا ابرمها المجلس النيابي — والعياذ بالله — فهو مسؤول أمام الله والتاريخ والذمة » (٧) .

وكان بطل هذه المعاهدات هو السيد نوري السعيد الذي ظل يسير سياسة العراق منذ الحكم الأهلي حتى ثورة تموز . ومن هنا كان اسمه مادة دسمة للصحافة العراقية بأعتباره المسؤول الاول عن كثير مما يصيب العراق من كوارث « ثلاثون سنة كاملة انقضت على اشتراك السعيد في الحكم وبلغ عدد الوزارات التي ترأسها ثلاث عشرة وزارة ، نسر لكل منها منهاجا وزاريا مليئا بالعهود والوعود التي لم يتحقق منها إلا ماكان مستوراً وراءها من منح الامتيازات وعقد الاتفاقيات والمعاهدات التي كبلت البلاد بقيود الاستعمار وربطت المملكة بعجلة الامبراطورية . لقد تغلغل النفوذ البريطاني بفعل هذه السياسة الخرقاء والثقة العمياء بالانجليز الى جذور الكيان الاجتماعي لهذه المملكة فأفسد عقائدها وفرق وحدة شعبها وهدم أركان اقتصادياتها لذلك لم تبق لوعود اسعيد قيمة فقد ملها الشعب وسئمها » (٨) .

ومن الطبيعي أن يكون الاستعمار الانكليزي هدفاً من أهداف الصحافة باعتباره سبباً في كثير من المشاكل التي مرت بها البلاد . فهم الذين جزؤا البلاد العربية الى دول متنافرة وهم الذين أوجدوا الصهيونية في قلب الوطن العربي وهم الذين نهبوا خيرات البلاد ، مواقف شتى

(٧) العالم العربي عدد ٢٠٢٥ سنة ١٩٣٠ .

(٨) اليقظة عدد ١٥٧١ سنة ١٩٥٢ .

لا يمكن أن تمر دون أن تترك أثراً على الكتاب وهم غير ملومين أبداً حينما يتناولون هذه الأحداث لأنها تعد جزءاً من حياتهم وحياة شعبهم ، بل الغرابة كل الغرابة ان يتركوها تمردون أن يعلقوا عليها بشيء ، موضوعات ملحة تعيش معهم وتقض مضاجعهم . وهي فوق هذا وذاك موضوعات انسانية لها علاقة ماسة بالعصر . وحينما يتحدث عنها الكاتب فهو إنما يتحدث في الوقت داته عن نفسه . انه يعرف جيداً أن كلماته هذه ستتحول الى فعل . وبمعنى أدق ان الكاتب حينما يتحدث عن المظالم فانه إنما يتحدث عنها لكي يحببها وينبه عليها حتى يستطيع الشعب أن يتلمس سبيله أمامها كما يقول سارتر .

وان اعجابنا بهذا الكاتب أو ذاك لأنه عرف كيف يجعلنا نحب ونثور ونسخط ونعجب في سبيل تغيير ما يمكن تغييره . ومن المحتمل جداً أنه لولا هذه الكتابات لبقي الناس حيث هم . يرضون بالظلم أو بالاحرى لا يحسون أن هناك ظلماً . وحينئذ فلا حاجة للتغيير ولهذا فلا مجال لأن نغض من قدر هؤلاء الكتاب باعتبارهم كتاب مقالات وحوادث متغيرة . أن على الكاتب أن يعي دوره في مجتمع يعج بالمظالم والتناقضات التي تأخذ بخناق أبنائه وتجعل منهم عبيداً لسلطة أجنبية ، وليس من المعقول أبداً أن يتلهى الأدباء بما سوى ذلك بحجة أنهم أدباء خالدون فينغمسون في أدب المتعة واللذة والأساطير ، الاديب الخالد هو الذي يفنى في عصره وهو الذي يحب عصره ويكشف للاخرين الجوانب المختلفة من حياتهم ليحفزهم على التغيير . ان الجماهير التي يحيا بينها

الكاتب تحاصره وتطوقه وتصبح متطلباتها الآمرة الناهية . فالكاتب في بلاد مستعمرة لا يستطيع إلا أن يحارب الاستعمار ويحارب الظلم « والكاتب الأسود لا يستطيع أن يكتب إلا عن سود وبيض منظور اليهم بأعين السود . هل نستطيع ولو للحظة ان نفترض أنه يقبل بأن يقضي حياته في تأمل الحق والجمال والخير الابدي بينما تسعين بالمائة من الزنوج محرومين عملياً من حق الانتخاب . وعلى هذا اذا ما اكتشف كاتب أسود من الولايات المتحدة في نفسه ميلاً لأن يكون كاتباً فانه يكشف في الوقت نفسه موضوعه » [٩] وعلى هذا فانه من غير الممكن أن لا تستأثر هذه الحوادث والتناقضات الغريبة التي يتعرض لها شعبه انتباه الكاتب والموضوعات التي يتطرق اليها . انه مرغم — عن رضى — على محاربة هذه السياسة الاستعمارية لأنها موجهة ضده وضد مواطنيه وسيبقى يلح على هذه الناحية ما دامت هذه السياسة حيث هي . وما دام يملك قابلية خاصة — اكثر من غيره — على كشف هذه التناقضات التي يحياها . فهو لا يستطيع مثلا أن ينسى دور الانكليز في احتلال بلاده ونهب خيراتها . وهو مثلا لا يستطيع ان ينسى تلك الوعـــود الخلابة التي أغدقوها للعرب . لتتحول بعد ذلك الى تجزئة عملية تئن منها البلاد « وعدتنا بريطانيا بالحرية وعوداً كثيرة واعترفت باستقلالنا في زمن الشدة ووقت الكارثة فلما نجت منها موفورة الكرامة مثقلة بالغنائم والأسلاب فاذا بتلك الوعود أقوال واذا بهاتيك المواثيق قصاصات

(٩) سارتر — الادب الملتزم — ص ١١٤ .

ورق ... انقضت الشهور وتصرمت السنون ولم نشاهـد منها غير مضاعفة القيود والأصفاد » (١٠) .

فالكاتب لايستطيع أن يقف مكتوف الايدي امام هذه الحوادث التي يراها ويحس بها فهو مغرم بالحرية أنى وجدها ، يبيحها لنفسه كما يبيحها للآخرين . وهو في الوقت الذي يناضل ويكافح من أجل بلاده انما يناضل ويكافح من أجل الآخرين . وهناك الكثير من المواقف التي تغريه وتجلب انتباهه . أوضاع بلاده المؤلمة . القوة الخارجيـه التي تنهب قوت مواطنيه . ثروات بلاده المسلوبة التي تعـد السبب المباشر لكثير من مشاكل البلاد . النفط هذا الذهب الاسود الذي جر عليه البلاء وكان من الممكن ان يكون وسيلة ثراء ونمو نحو حياة أفضل .

لقد كان النفط سببا في كل المآسي التي وقع تحتها الشعب العراقي فبريطانيا في سبيل ان تحكم قبضتها على هذا المورد الاقتصادي الضخم راحت تسلك مختلف السبل التي تسهل لها عملية الاستغلال ، والشعب من ناحيته يعرف جيدا أن خيرات بلاده تذهب للاجنبي ولكن لا حول له ولا قوة الا هذه الكلمات التي تعبر عنه ، قالت جريدة العالم العربي « الطوفان أنواع وأشكال واخطر تلك الانواع والاشكال ما قد جرى وما يزال يجري في بلادنا ومن ذلك طوفان نوح عليه السلام ... ومن ذلك طوفان النفط في بابا كركر ، اذ فاضت السيول الزيتية وأوشكت أن تغرق البلاد وهذا الطوفان السعيد فيه الذهب والغني ولكن لا أذكره

---

(١٠) الاستقلال عدد ١٤١٤ سنة ١٩٢٩ .

لان كنوزه وان كانت في العراق فهي في آيدي الغير » [١١] .

شعور بالمسؤوليه يمليها على الكاتب واقع بلاده وما فيها من مصائب وأهوال . حينما تتحول خيراته الى ايادي هؤلاء الاجانب .

واذا كانت الأوضاع العامه غير ملائمة لارجاع الحقوق فلا أقل من ان تظهر الصحافة شعور الرأي العام، وهكذا كان، لقد تحولت الصحافة الى سوط يلهب ظهور المستعمرين . والسائرين في ركابهم . فنراها تحث وتنور في سبيل آن يعي الشعب دوره ويغير من واقعه المرير « نفطك ايها الشعب ! ماذا ؟ نفطك المنهوب خيراته أرضك الخضراء ، حقوقك وحريتك . كل اسباب الحياة ينهبها الانكليز . ويعاونهم في ذلك ويبارك لصوصينهم ويعترف بشرعيتها . هؤلاء الذين يحكمونك هؤلاء الذين يتبؤون الكراسي الوثيرة يوم ان مدوا آيديهم الى الاستعمار وصافحوا يده الملوثه بدمائك . الا تراهم اليوم قد جاؤا لك باتفاقية جديدة ليوقعها هؤلاء الذين يزعمون انهم يمثلونك . انهم يعون ان يكبلوك بطوق حديدي من أطواق الاستعمار ليجعلوك تعترف بشرعية هذه السرقات : سرقات الاستعمار لنفطك وبالتالي لحريتك وحقوقك وأرضك ارفع صوتك النبيل لتهز هؤلاء الذين يتصدرون الحكم ينفحون صدورهم كالطواويس اثبت لهم انك مازلت يقظا » [٢١] .

تلك هي مكانة المقال في السجال الوطني وهو مجال واسع استمر

---

(١١) جريدة العالم العربي عدد ١٥٧٧ سنه ١٩٢٩ .

(١٢) لواء الاستقلال عدد ١٥٠٢ سنه ١٩٥٢ .

فترة طويلة وعبرّ فيه الكتاب باخــلاص عن أهم القضايا التي كانت تشغل بال الشعب . ومن هنا راح الكتاب يحثون ويهجمون . فغلب الطابع الحماسي على كثير مما كتبوا . ينحرى الكاتب العلل والاسباب التي تضعف مكانة خصمه لتجعله أعزل من الحجج والبراهين . تتغلب فيه الناحية العاطفية التي يقصد اليها لكي يكسب اكبر عــدد ممكن من القراء الى جانبــه . ولهذا تراه يسحر ويتهكم ويثور حاثا على الثورة وداعيا لها .

والنقطة الاخرى التي شغلت المقال في الصحافة العراقيــه هي مسألة الحرية والحياة الديمقراطيه داخل البلاد . وهي مسألة متشعبه الجوانب تشــل نظرة الرأي العام الى النظام القائم برمته . وعــلاقة الشعب بالحكومة وموقف الاحزاب من قضية الحرية وعلاقة هـــذه الاحزاب مع بعضها .

وأول ظاهرة نلاحظها في هــذا المجال حب الفرد العراقي وولعه بالسياسة . وهي ظاهرة يندر أن تجدها في شعب آخر على هذا المستوى فالحديث فيها يأخــذ اكثر وقته . وقلما يجتمع اثنــان في مجلس الا وحديثهما السياسة ؛ فتراه وهو جالس في مكانه يسقط وزارة ويأتي بأخرى ويتحرى نواقصها حتى اذا لم يجــدها استطاع أن يتخيلهــا ، يوزع ألقاب الخيانة والوطنية على من يريد . بصرف النظر عن امكانياته الثقافية التي تساعده في تكوين وجهة نظر فيما يقول ، وقــد انعكس صدى هذا كله على الصحافة حتى تحولت في كثير من الاحيــان الى

مجرد بوق تردد فيه هذه الآراء بغية اشباع نهم قرائها الى هذه الرغبة « تغلب النزعات السياسية في العراق على الحلق الاجتماعي والاتجاهات الاخرى ... والعراقيون متجهون بكليتهم الى السياسة حتى ليصعب عليك ان تنتزع هذا الميل من عقيدة الناس . واعجب ما في هذا البلد أن أهله كلهم يعملون في السياسة وليس في بلد من بلدان الارض شعب كالشعب العراقي مندفع بهذا التيار »(١٣) وهذه حقيقة تبدو واضحة . لكل من خالط العامة وجلس في نواديهم وسار في الشارع أو خالط الطلاب في مدارسهم . اننا لا ننكر أن العراق مر بظروف حكم قسري سواء في اثناء حكم الاحتلال أو أبان فترة الحكم الملكي . فكان هذا الحكم يكمم أفواه الناس ويزيف ارادتهم فيضطرون — في سبيل التعبير عن أنفسهم — الى سلوك هذه السبل حتى تحول الامر الى ما يشبه العادة .

وقد أثرت هذه الظواهر على الحياة العامة اذ كونت لديهم روح السلبية ودفعتهم الى التشكيك بكل حكومة وبكل أعمالها حتى ولو كان في هذه الاعمال ما يفيد الناس في حياتهم الاعتيادية . « نحن يا سبحان الله كلنا سياسيون موهوبون ودهاقنة مطبوعون نرضع السياسة مع الحليب ونعالجها من المهد وأنت صاعد لا فرق في ذلك بين العالم الفاهم والامي الجاهل . ولا تمييز بين حمال أو بقال ...»(١٤).

(١٣) الاستقلال عدد ٤١٩٥ سنة ١٩٤٨ .

(١٤) الزمان عدد ٨٣٠ سنة ١٩٤٠ .

وقد لا يكون في ذلك ضير لو اتخذت المسألة وجهة اطلاع ثقافي أو تكوين وجهة نظر سياسية . ولكن الامر قد يخرج الى ابعد من هذا مما يؤدي الى جو من الريبة يحد من نشاط أية حكومة حينما تريد أن تقوم بمشاريع جادة . وكثيرا ما لقيت هذه السلبية عنتا من الحكومة اذ ترى أن أكثر أعمالها مجال شك وريبة لدى الرأي العام . حينما زار الاستاذ أمين الريحاني العراق لاحظ هذه الظاهرة بوضوح وبخاصة على الصحف العراقية فقال يعلق على صدى خطبته التي أذاعها من دار الاذاعة العراقية « ... على أن الخطيب ما نجا من صحافة بغداد . فقد تناولت الخطبة بل تلقفتها بمخالب النقد ومزقتها إربا اربا ثم مزقت منها العظم وتلمظت بالمرارة . فقال أحد كتبة المعارضة . ان الخطيب من الثرثارين وقال آخر : انه يتزلف الملك وانه من المستوزرين . وغمس الآخر قلمه في دواة التهكم والظرف : ان الخطيب لمن ذوي الآذان الطويلة . وقال آخر : انه مصاب بداء التفاؤل . فاستنتجت من هذا أن المعارضة أي الاحزاب المعارضة للحكومة والانجليز حية ترزق ولكنها تعارض مبدئيا على طول الخط ولا تبالي بما يقال في مواقفها ، هي المعارضة ولا حرج ، فقد نصبت مدافعها في أدغال الصحافة ووراء اكمات الاحزاب وشرعت تطلقها في كل ناحية من القصر الى شاطيء الكرخ على المندوب على الملك على الوزارة على البرلمان وحتى على المعرض لأنه من أعمال الحكومة »[١٥] .

---

(١٥) امين الريحاني ــ قلب العراق ــ ص ١٩٤ .

ولعل عبارته الاخيرة « وحتى على المعرض لأنه من أعمال الحكومة» خير ما يعكس لنا الروح السلبية التي اعتادها شعبنا في العراق ، صحيح أن المعارضة ضرورة حتمية لكل نظام ديمقراطي . لكنها يجب أن تستند على أسس واقعية معقولة تجدها في أعمال الحكومات المتعاقبة وتتحرى عنها دون أن تعمم في احكامها . حتى ليحس القاريء أن هذه المعارضة انما جاءت لأجل المعارضة فحسب . وهذا ما نراه في كثير من مقالات الصحف كقول جريدة النهضة العراقية « اغتنموا سذاجـة الشعب وحسن نيته وامنوا نقمته وغضبه . وراحوا يسارون ويعلعبون . وانطلقوا في جو هـادىء يمثلون أدوارهم وألاعيبهم . فهم في سبيلهم سائرون وعما يرضى الشعب أو يغيضه لاهون . ألهتهم الكراسي والمناصب ، وأنستهم زينتها واجبهم . فأمسوا لا يهمهم غير حفظها وقد هاموا بهـا فتركوا الحبل على الغارب . فأصبحنا نرى منهم كل غريب ، نام الدهر عنهم قليلا والدهر ذو غير . وساعدتهم الظروف والايام فآمنوا سوء المنقلب فراحوا يتساومون وانطلقوا يعملون بما تمليـه عليهم أهواؤهم وتستحسنه شهواتهم ... » [١٦] .

كلام عام من الممكن أن يقوله أي معارض لأية حكومة لا يريدها فليس فيه اثبات مادي واحد يمكن أن يعتمد عليه في ادانة الحكومة ، ويبدو أن صحف الحكومة كانت تعرف جيدا أساليب المعارضة ، رغم قلة هذه الصحف وانحسارها . قال كاتب في جـريدة الحكومة تحت

---

(١٦) جريدة النهضة العراقية عدد ٤ سنة ١٩٢٧ .

عنوان (هذا عيب ولكنهم لا يخجلون) ومما جاء فيه « المعارضة للحق والباطل . هذا مرض مزمن يلازم أصحاب النفوس الصغيرة ليتخذوا ذلك سلما للظهور وواسطة من وسائط الشهرة الكاذبة ولكنه مرض قتال يئد صاحبه ويلقي به في زوايا الاهمال والافتقار ، لأن البشرية المهذبة تقصي عنها من اعتاد الكذب وطمس الحقائق واستغل العواطف الساذجة البريئة واللعب على النفوس البسيطة ، نعم هذه عيوب ومثالب يجب أن يترفع المرء عن ملامسة اطرافها فضلا عن الانغماس بحمأتها ، والاصطباغ بصباغها الأسود هذه مخاز ومخاز مشينة ولكنهم لا يخجلون منها ومن الاتصاف بها وخاصة بعد أن اصبحت ملائسة لأسمائهم ومن غرائز نفوسهم وطبائع أرواحهم . قد يكذب المرء على الغائب وقد يسعى الى طمس الحقائق ولكن لم يدر بخلدنا أن الحطة أخذت من نفوسهم مأخذا عظيما حتى جعلتهم يفترون على الحاضر وعلى الحاضر الملموس » (١٧) .

أسلوب ادبي رائع في المقال النزالي . يرد فيه كاتبه على هؤلاء المعارضين الذين لا يهتمون إلا بالمعارضة فحسب ، مع أن الحكومات العراقية المتعاقبة في العهد الملكي كانت كثيرة الهفوات ، التي يستطيع أن يدخل منها المعارضون للحكم .

ولكن مع هذا فقد كانت الصحافة العراقية الحارس الأمين في التعبير عن رأي الشعب وتعلقه بالنظام الديمقراطي ، دافعت عن هذا

---

(١٧) جريدة التقدم عدد ٢٠ سنة ١٩٢٨ .

النظام بكل قوة منذ تشكيل الدولة العراقية وتنصيب فيصل ملكاً على العراق ، فالطريقة التي عين فيها هذا الملك كانت تحمل في طياتها عوامل الشك والريبة . مما أدى بالصحافة العراقية التي صدرت في بداية تكوين الدولة أن تقف موقفاً صريحا ازاء ما يراد بالشعب ، فدافعت عن حقوقه واشترطت وجود صفات معينة في الملك الذي يراد منه حكم البلاد ، قالت جريدة دجلة « كل غايتنا التي نرمي اليها هي استقلال البلاد استقلالاً تاماً وتأسيس حكومة دستورية ذات ملك مقيد بقوانين وأنظمة توافق روح البلاد وتلائم مصلحة الشعب وتأليف مجلس تشريعي له سلطة واسعة يؤلف ممن يعتمد عليهم الشعب ، هذا ما نرمي اليه في اصدار هذه الجريدة » [١٨] وقد استمرت هذه الجريدة في دفاعها عن حرية الشعب حتى بعد تنصيب فيصل ملكاً على العراق . فتعرض صاحبها بسبب صراحته هذه الى مضايقات كثيرة من العائلة المالكة أو من الصحف الموالية لهم ، فاضطر أن يخرج عن اتزانه في أحد أعداد جريدته فقال تحت عنوان « الحر ممتحن بأولاد الزنا » جاء فيه « أخذ بعض من لا خلاق لهم يذيعون بين الأمة الاشاعات الكاذبة ويختلقون الاكاذيب التي لا نصيب لها من الحقيقة فيقولون تارة ان دجلة ترمي الى فكرة جمهورية وأخرى انها تريد تتويج عراقي على البلاد ... إننا نريد ملكاً مقيداً بدستور ، نريد أن نقيد العرش وصاحب العرش بقيود تمنعه من التطاول على الأمة واغتصاب حقوقها ، نريد أن نقيده قبل أن يستبد

(١٨) دجلة عدد ١ سنة ١٩٢١ .

بالشعب : نريد أن تكون بلاد العراق حرة لا يحكم فيها غير القانون ولا يهمنا اسم الملك ... اننا نعلن منذ الآن أن كل ملك يتوج بغير رأي الأمة فهو ملك غير مشروع . وليعرف المغالون أننا لا يهمنا ارضاء الأشخاص بل كل ما نريد . خدمة البلاد العراقية ، وانا اذا طلبنا ملكاً للعراق إنما تطلبه حباً بالاستقلال لا حباً بذات الملك وللأمة العراقية الحرية المطلقة في انتخاب من تريد اجلاسه على العرش » [١٩] وهي صراحة عز نظيرها في الصحافة العراقية ، حتى لقد حصل فعلاً ما توقعته الصحافة العراقية اذ سرعان ما تحول الملك الى حاكم دكتاتوري ينفذ مشيئة الاستعمار الانكليزي في كل ما يطلبه منه .

وحينما تقوم الأحزاب في البلاد تنحمل صحافتها هذه الأعباء بأمانة رغم ما كان يحدث بين صحفها من مهاترات ، ورغم النقص البارز في تصرفات هذه الأحزاب . ويرجع اشتغال العراقيين بالاحزاب الى ما قبل الحرب العالمية الأولى حينما انضم نفر منهم الى التنظيمات السرية المختلفة التي كانت تقوم في الأستانة . وفي خلال فترة الاحتلال الاجنبي نشأت أحزاب سرية كان لها دور يذكر في بث روح الحماس بين سكان المدن تأييداً للثورة العراقية بغية تخليص البلاد من سيطرة المحتلين ، من ذلك جمعية حرس الاستقلال وجمعية الشبيبة اللتان اندمجتا معاً [٢٠] . وكانت العلاقة بين هذا الحزب الموحد وبين حزب آخر يدعى بحزب العهد

(١٩) دجلة عدد ٩ سنة ١٩٢١ .

(٢٠) انظر الحسني — الثورة العراقية الكبرى — ص ٥١ .

العراقي والذي كان صدى للثورة العربية الكبرى علاقه توتر . مع انهما لا يزالان في بداية الطريق وأمام خطر واحد . وبهذا تكون هذه الأحزاب قد بذرت البذرة الأولى للشقاق والاختلاف يقول الدكتور البصير « إنها كانت سيئة جداً فطالما تبادل رجال الحزبين سب بعضهم ، حتى ان الطعن في الأخلاق والمبادىء السياسية صار أمراً اعتيادياً وقد أضر ذلك بالبلاد » (٢١) .

وبعد تأسيس الحكم الأهلي ظهرت رغبة واضحة في تشكيل الاحزاب . وصدر مرسوم بذلك وتشكلت الاحزاب ولم تمض سوى فترة قصيرة حتى حل المندوب السامي الأحزاب المعارضة وبقي حزب الحكومة يعمل لوحده « ماكاد التتويج يتم حتى اشتدت مطالب الجمهور للأحزاب فتم انشاء ثلاثه آحزاب كان اثنان منها معارضان والثالث يؤيد الحكومة النقيبية ويميل الى مصانعة دار الانداب » (٢٢) .

والظاهر أن هذين الحزبين المعارضين قد قاما بواجبهما في انتقاد الانتداب وأعمال الحكومة . حتى اذا غادر الملك البلاد بسبب مرضه حل الحاكم الانكليزي هذين الحزبين وبقي حزب الحكومة في الميدان (٢٣) ، ومن خلال دراستنا لتاريخ هذه الأحزاب لاحظنا أنها كانت تقوم على

(٢١) الدكتور محمد مهدى البصير — تاريخ القضيه العراقيه ص ١٤٥ .

(٢٢) البزاز — العراق من الاحلال الى الانتداب — ص ٦٥ .

(٢٣) انظر مجلة الغري عدد ١٢ ، ١٣ سنة ١٩٤٦ .

الأفراد لا على المباديء في كثير من الأحيان ، وأن مبادئها كانت متشابهة الى حد بعيد ، يكثر تأليفها وقت تشكيل الوزارة ، فهي حكومية حينما يكون رئيسها في الحكم حتى اذا أصبح خارج الحكم تحول الى معارض ، أو حل حزبه على الأكثر . ومن ثم يبدأ أعضاء الحزب الآخرون بالانضمام الى الأحزاب الأخرى وهكذا . وأحزاب هذه طبيعتها وهؤلاء أعضاءوها لا شك أنها تحمل في طياتها الروح الفردية وتجد فيها مجالاً للمهاترات الشخصية كما أن كثرتها ساعدت الى حد ما على تقسيم الشعب العراقي . فظل يئن من التفرقة حتى هذه اللحظة ، ليس هذا فحسب بل اننا لنلاحظ اختلافاً داخل الحزب الواحد . فالحزب الوطني الديمقراطي وهو من الأحزاب المهمة في العراق بعد الحرب العالمية الثانية كان يحمل في داخله أسباب انقسامه « الحزب الوطني الدمقراطي هو أقوى حزب بتنظيمه . لأنه يملك الجذور التي غرست منذ زمن غير قريب ، غرسها . . . . . وجماعته ، وهو البقية الباقية من الحزب الشيوعي العراقي السري . وكان من الممكن أن يكون مركز الحزب غير مركزه الحالي لولا أن ... لأنه أناني بطبعه ... ومن أخطاء الحزب الشنيعة أنه لم يستطع أن يكون لا من اليمين ولا من اليسار ، فان اليساريين يتهمونه بالبرجوازية وانه ضد اليسار . أما اليمين فيقسمون أغلظ الأيمان على شيوعية الحزب . والحزب نفسه يؤيد هذين الرأيين المتناقضين . فرئيسه وبعض كبار أنصاره من الرأسماليين الاستغلاليين أما البقية فمن الشيوعيين وعلى رأسهم . . . أما حزب الشعب

فهو كتلة عائلية انفصلت عن الجادرجي فأسست حزباً ثم نفض الناس عنه بعد معرفته فلم يبق له من الانصار غير الاقرباء »[٢٤] ورغم ما في هذه المقالة من سخرية . إلا أنها مع ذلك تعكس طبيعة هذه الاحزاب والانقسامات التي تقوم بين أعضائها ، وربما كان هذا هو السبب الذي أدى الى نجاح الأحزاب السرية في العراق . حينما رأى الناس أن الاحزاب العلنية غير قادرة على سد هذه الثغرة في تكوينها . لقد كانت هذه الأحزاب مصدر اثارة في كثير من الصحف . تناولت تصرفات أصحابها وسرعة انتقالهم من حزب لآخر سعياً وراء كسب شخصي أو علاقات خاصة . قال كاتب في مجلة العالم المصور تحت عنوان : (مشاهدات بطال) جاء فيه « وما أن وصلت الفقرة الثانية من الاحتفال حتى انتقلت عيني الى مشهد غريب . ونوترت شعرات جسمي . أتعلم لماذا ؟ انها خطبة لعبد الرزاق الرويشدي عضو الهيئة المركزية ، عبد الرزاق الرويشدي بالأمس كان نائب رئيس حزب الأمة . وما هي إلا ليلة وضحاها حتى أصبح الأفندي عضو الهيئة المركزية في حزب الامة ، سبحان مبدل القلوب والاحوال . ثم هدأت ثورتي حين تذكرت أمراً شبيهاً بهذه المسألة . وهو أن والدتي المرحومة كان لها ثوب أبيض أكل عليه الزمان وشرب . فأرسلته الى ملا جاسم الصباغ في اليوم التالي فأتى الثوب بلون أسود قاتم لا أثر فيه للبياض . وأمثال هذه التبدلات والتغيرات الفجائية بين ليلة وضحاها كثيرة فلا يجوز أن يقال أن

(٢٤) مجلة قرندل عدد ١ سنة ١٩٤٨ ص ١٤ .

الرويشدي أتى عملاً منكراً ، لا ، لا بل يجب أن يقال : انه رجل كيس عرف من أين تؤكل الكتف » [٢٥] وغير هذا الكثير ، ولهـذا كانت علاقاتها ببعضها علاقة توتر وعداء . يتجلى دلك في هذه المقالات النزالية التي كانت تقوم بينها . يبحث فيها صاحبها عن كل نقطـة ضعف أنى وجدها . فالعضو الذي يكون في يوم من الأيام في حزب ما ثم ينتقل بعد فسره الى حزب آخر سيكون حربا على حزبه الأول وبخاصة وهو يعرف من أسراره ما يجعله قادرا على تعريته أمام الآخرين .

لقد وصلت بعض هذه المقالات الى درجة من الحطـة والسخف يحس معها القاريء بالمرارة وهو يقرأ هذه البذاءات الخاصة التي تمس الأعراض وكرامات البشر عامـة . انها تسييء الى الاخلاق العامة فضلا عن اساءتها للأحـزاب والسياسة . كتب محرر في جريدة الاتحـاد الدستوري يتعرض لحزب آخر هـو حزب الاسـتقلال تحت عنوان (حزب متفسخ) جاء فيه ما يلي « في كل مجتمع مهمـا تزمت بهذه القيم الاخلاقية وتشدد في حرمتها وأنزل بالخارجين عليها أقسى العذاب وأشد الاهمال نجد نفرا منهم قد أزل وأسف وتمرغ في الدنايا والاقذار دون أن تقوى هذه القيم الاخلاقية عن رده . غير ان المتتبعين لأحوال هذا النفر المثقل بالدنايا والرزايا قد لاحظوا وجود طبقتين من هـذه الزمرة العاقة . الأولى تلك التي تسفر عن عهرها وسفهها فيقوم المجتمع بحجرها وايوائها في محلات خاصة ، ومن ثم يخضعها الى مراقبة صحية

---

(٢٥) العالم المصور عدد ١٢ سنة ١٩٢٥ .

دقيقة وينظم العلاقات بينها وبين الراغبين في تطمين الشهوات العارمة ، وبهذا يأمن المجتمع شرور هذه الطبقة السافرة ، ولكن الخطر الأعظم الذي يتهدد المجتمع انما يتأتى عن طريق العاهرة المتخفية بأردية العفة والشرف لأنه يحسبها طاهرة شريفة الذيل حريصـة على التزام القيم الاخلاقية الرفيعة وهو بهذا الظن يفتح لهـا الأبواب على مصراعيها ، تغشى البيوت الطاهرة العفيفة ولكن سرعان ما يرحم الله بعباده فيتيح للأشراف فرصة الوقوف على سر هـذه العاهر المتخفية ، ليزيـل عن المجتمع الطاهر الآمن رجس هذا الشيطان الماكر . واذا ما حق لأي مجتمع مطاردة العاهرات بصنفيهن . كان من حق المجتمع ان يطارد العهـر السياسي ويعزله كما يعزل البعير الأجرب . فالعهر السياسي أشد خطرا من العاهر اللعوب ، واذا ما اقتصر خطر هذه على من يقع في شباكهـا فان خطر العهر السياسي أعم وأشمل ، لأنه عهر يرتدي لباس الفضيلة ليتسنى له الفتك بالمجتمع » (٣٦) .

وقاريء هذه المقالة تأخذه الرأفة بهذه القيم الاخلاقية التي انحطت الى درجة غريبة من الاسفاف . والأنكى من هذا كله أن يقال مثل هذا الكلام في جريدة سيارة يقرؤها كثير من الناس ويتأثرون بما فيها ، أما رد جريدة الاستقلال فعلى الرغم من أنه لم يكن بهذا الاندفاع الا انه لا يخلو من تعريض واضح وذكر كلمات نابية يعرفها جيدا العراقيون الذين لهم خبرة ببعض مناطق بغداد ، وهي بعد ان تنقل المقال المذكور

(٣٦) جريدة الاتحاد الدستوري عدد ٦٨ سنة ١٩٥٠ .

تعلق عليه بقولها « هذا ماقالته جريدة الاتحاد الدستوري ، فهل يرى القاريء الكريم أن مثل هذه اللهجة يجوز أن تطلق في نقاش سياسي وأن تعلن في صحيفه يقرؤها الناس ؟ وأن تكون الصحيفة لسان حـال حزب ولو كان مصطنما . وأن يكون كاتب المقال وزيرا في الدولـة ومكلفـا بالدعاية وتوجيه الرأي العام ؟ وماذا يقول أعضاء الحـزب المصطنع فيما ينشره الوزير المدلل على لسان الحزب ؟ وهل فكروا ببيان يصدرونه ليتبرؤا من هذه اللهجة وهذا الاتجاه ؟ وماذا يقول الوزراء في حق زميل لهم في مثل هذا المستوى الخلقي ؟ وهل يوجد من غير حملة الشهادات من يرتقي الى التحدث بهـذه اللهجة ، اللهم الا من آلف وسطا معينا في ميدان تبرؤ منه ميادين الخدمة العامة وأوساط السياسة الشريفة ... ولعل اللوم في هذا التدني الخلقي الذي مسخ كل شيء لا يلقى على أحد كما يلقى على السيد نوري السعيد ، فقد تعهـد الكاتب المدلل وحرضه صحفيا على استعمال البذاءات ، حتى أصبحت هذه اللهجة وسيلة من وسائل الوصول لبلوغ غاياته كأن السعيد لم يكفه ما نكب به العراق خلال ثلاثين سنة بل اراد أن يهييء هذا الصنف من المتهالكين على المناصب بالقيم الاخلاقية . فمنح الحزب لسانا بذيئا ليشيع الفساد والتفسخ بين الناس « قل كل يعمل على شاكلتـه » ، وكل اناء بالذي فيه ينضح »[٢٧] وفي كلمة « ميدان » تورية مقصودة والا فالمقـال لم ينزل الى الدرك الذي نزلت اليه جريدة الاتحـاد

(٢٧) لواء الاستقلال عدد ١٠١٢ سنة ١٩٥٠ .

الدستوري .

ذلك هو أنموذج واحد من المهاترات الصحفية التي كانت تقو
بين الأحزاب التي جعلت سوق الشتائم الصحفية بضاعة رائجة ، لكنه
من الناحية الأدبية تثير القراء وتثير الأجواء الراكدة وتسهل اللغـة
وتمنح العقول حـدة ونفاذا . يقول الدكتور طه حسين عن هـذ
الخصومات السياسية وأثرها على الأدب « اما بين الحربين فقـد دفع
أدباؤها الى الأعاجيب وكان أول هـذه الأعاجيب هذه الخصومات
السياسية التي يسرت اللغة تيسيراً غريباً . ومنحت العقول حدة رائع
ونفاذاً بديعاً . واستطاعت أن تشغل الجماهير وتعلمهم العناية بالأمو
العامة والاهتمام لها والتفكير المتصل فيها . لقد أصبح الهجاء السياس
من أهم الألوان في أدبنا العربي الحديث فيه الحدة والعنف وفيه المتع
واللذة وفيه التنوع والاختلاف بتنوع الأمزجة واختلافها » [٢٨] .

ذلك هو جانب واحد من جوانب الصحافة في المجال الداخلي وهو
جانب سلبي ترك أثره على الرأي العام وأوجد انقسامات داخل الشعب
الواحد ، غير أن الصحافة العراقية من ناحية أخرى أدت واجبها في
الدفاع عن حريـة الشعب . وكانت عاملاً مهماً في تثبيت المفاهيـ
الديمقراطية وايصالها الى الجماهير . وبخاصة الصحف الحزبية التي
كانت شوكة في عيون السلطات الحاكمة رغم القوانين القاسية التي
كانت تتعرض لها .

(٢٨) طه حسين — الوان — ص ٢٧ .

ومن المواقف التي عالجتها الصحافة بشكل متواتر وفعال ، ذلك الذي يتمثل بتزييف ارادة الشعب في الانتخابات النيابية التي كانت تجري في العراق . اذ من النادر أن تجد مجلساً أكمل مدته القانونية ، فكل رئيس وزراء يأتي الى الحكم كان يحمل معه مرسوماً بحل المجلس السابق واجراء انتخابات جديدة حتى يؤمن لنفسه الأكثرية المطلقة فتضطر صحف المعارضة ازاء هذا كله الى فضح أساليب التزوير في مراحلها المختلفة التي كانت ترافق هذه الانتخابات .

الحكومة ومن ورائها الأجانب يريدون من المجالس النيابية أن توافق على المراسيم والمعاهدات دون معارضة تذكر . والشعب يريد أن يثبت وجوده وينتخب من يراه أهلاً لتمثيله . وبين هذا وذاك كانت الصحافة تجد مادة دسمة للتعليق على هذه المهازل وتأخذ وقتا كبيرا منها ، لتنظر الى جريدة العالم العربي وهي تسخر من الأساليب التي تتبع في الانتخابات النيابية « قد آخذ طلاب النيابة يتململون ، يقومون ويقعدون . يروحون ويجيئون . يكتبون ويلتمسون . يشدون الرحال من هنا وهناك الى العاصمة بغية الفوز بما يطلب منهم وما هم عليه يتهالكون ، ومن الصلف وصفاقة الوجه والقحة الشنيعة ، ومن الغريب أن يتحرك هذا السيل ممن برزت لكل ذي عين دبذبتهم وبصبصتهم وصعلكتهم واستهتارهم بمقدرات الوطن . وجرحهم عواطف الجمهور ، وانكبابهم على عبادة الأوثان ، وقيامهم بالتهريج والتطبيل لكل من يدهن أيديهم ويشبع بطونهم من السحت ، لا يهمهم أن يهلك الناس وتسفك

دماؤهم سيولاً وتغصب حقوقهم ويكونوا في مهاوي الحرمان والشقاء والعذاب والهوان . على رسلكم أيها النفعيون الصعاليك ، ان ألاعيبكم الرذيلة وحيلكم الدنيئة لم تعد تنطلي على أحد . واذا كنتم تظنون أن هذا الاستهتار يبقى ويدوم كما تشاؤن والى ما شاء الهزل وعدم الحياء والمجون فانكم لمتوهمون . لأن هدا ان دام كما ترومون فلم يبق ادن ادراك ولا شهامة ولا حمية انسانية » (٢٩) .

لهجة كلها ألم بدأها الكاتب بالسخرية والتهكم ثم حولها الى لهجة مؤنب ومتوعد وثائر . لأنه يرى الظلم أمامه ولا يملك غير هذا الشعور يعكسه في صحيفته .

والحكومة من ناحيتها لاتحترم الرأي العام ولا تقيم وزناً لصيحاته، يساعدها في ذلك الجهل المتفشي بين الناس وبخاصة في القرى والارياف التي تتألف من سكانها نسبة كبيرة من الشعب العراقي ، قالت مجلة الاستقلال تصف احدى هذه المجالس النيابية « يجتمع اليوم مجلس النواب العراقي ليمثل دوراً في رواية مسرحية بلغ من اتقانها أنها جمعت في طياتها فصولاً هزلية مسلية . وفي بعض لوحاتها أدوار مكربة للنفس يضيق بها المشاهد درعاً . ويود لو ترك القاعة أو أنه لم يلجها ، فهذه الحكومة وهذا البرلمان يتعرض كل منهما ويستعيد ما لقن من عبارات تجارية واصله او متكررة وفق ما يريد مؤلف الرواية ومخرجها وملحنها، بحيث توفر الربح الأكبر لقاطع التذاكر وللشركة التي تعهدت بالاتفاق

(٢٩) العالم العربي عدد ٣٧٩٥ سنة ١٩٣٥ .

ولا يغفل طبعاً تسديد الأجور المتفق عليها مع الممثلين والمخرجين الداعين الناس الى التفرج على هذه الرواية » [٣٠] .

ويبدو أن الحكومات العراقية قد سئمت هذه الاحتجاجات وضاقت بها ذرعاً فاضطرت أن تقضي عليها باصدار مرسوم ينص على ما يلي « كل من وجه طعناً باحدى طرق النشر المنصوص عليها في المادة (٧٨) من قانون العقوبات البغدادي ضد الانتخابات التي تمت بمقتضى هذا القانون او المقرارات أو الاحكام القطعية الصادرة عن السلطات المختصة في كل ماله علاقة بالانتخابات يعاقب بالحبس الشديد مدة لا تتجاوز السنتين وبغرامة لا تتجاوز (٥٠٠) ديناراً أو بكلتا العقوبتين » [٣١] ولكن مع هذا استمرت بعض الصحف تتهجم على الطريقة التي تجري بها الانتخابات رغم وجود هذا المرسوم .

وقد ترتب على هذا التزييف ان كانت الحكومة تكثر من اصدار المراسيم الاستثنائية التي تكبل حرية الناس وتمنع حرية التعبير ، مع أن دستور البلاد ينص على أن العراق بلد دمقراطي دستوري ، الحكم فيه للشعب .

ومن يتمعن في دراسة تاريخ العراق السياسي يلاحظ أن الحكومات المتعاقبة كانت تحمل وجهة نظر معينة لا تحيد عنها رغم تبدل الظروف ، فاذا لم يكن نوري السعيد في الحكم كان هناك واحد من أعوانه ،

---

(٣٠) لواء الاستقلال عدد ١٤٢ سنة ١٩٤٧ .

(٣١) صوت الاهالي عدد ١٩ سنة ١٩٥٢ .

فالسياسة العامة هي هي لم تتبدل . وهي سياسة فيها الكثير من تأييد الاتجاهات الاجنبية على حساب الشعب العراقي . أما المظاهر الدمقراطية فليست سوى اضفاء الصبغة الشرعية على الحكم « ان من آبرز الظواهر في العراق البلد الدمقراطي هي مدى ابتعاده عن الدمقراطية المزعومة فهو بلد دكتاتوري من غير دكتاتورية كما يصمها الغربيون . ويتجلى انعدام الدمقراطية هذه في عسط الحقوق المشروعة ومصادرة الحريات على مختلف اشكالها . حتى لقد بلغ الأمر من الفظاعة حداً لا يتمكن معها الفرد من ابداء رأيه حتى في الشؤون التي تخصه وتمسه بصورة مباشرة وتتحكم بحياته ومستقبله . ولنا من مرسوم الأعمال الممنوعة على الهيئات التدريسية أقرب مثال على ما تقول . هذه الهيئات تحرم من حق التعبير عما يتصل بصميم حياة البلد والشعب وهي الفئة المعول عليها في بناء حياة هذه الأمة وبناء المستقبل الزاهر لها . ان محاربة هذه الحريات وبالأخص الحرية الفكرية لا تعود على الأمة إلا بالخسران : فهي تحرم الأمة من الآراء المختلفة وتؤدي الى جدب فكري قد يولد التبلد والجمود الذي يقف حجرة عثرة في سبيل سريان تقدم الامة » (٣٢)

والمرسوم الذي تعلق عليه الجريدة مرسوم غريب في بابه فهو يحظر على الهيآت التعليمية حق التدخل في السياسة ، وبهذا تكون الحكومة قد قضت على عنصر نشط وفعال في المجال الثقافي ، اذ لا يحق لهؤلاء ان يعبروا عن آرائهم في المسائل العامة بأية طريقة كانت مع

---

(٣٢) لواء الاستقلال عدد ١١٦٣ سنة ١٩٥١ .

انهم يؤلفون الغالبية العظمى من مثقفي هذا البلد . ليس هذا فحسب بل ان الحكومة قدمت مرسوماً الى المجلس النيابي علقت عليه جريدة الأهالي بما يلي « ان الحكومة الحاضرة تهيىء لائحة جديدة تفرض فيها عقوبة الاشغال الشاقة والحبس مدة سبع سنوات أو بالغرامة أو بهما على كل من يدعو الى ما من شأنه أن يهيىء الرأي العام الى تقبل الرأي الشيوعي بأية طريقة كانت . كالهتاف وترديد الأناشيد او اعداد مناشير او رسائل ذات المفاهيم الشيوعية او لحيازة عليها . . . فأي تشريع هذا وأي ضمير قانوني يتقبل هذه النصوص . فالفرد محظور عليه أن يقرأ بعد اليوم كتابا فيه مفهوم شيوعي . بل أصبح مسؤولا عن كتاب يقتنيه حتى قبل أن يقرأه ويعرف ما فيه . فالمرء قد لا يقر الشيوعية ولكنه يحوز على كتاب ليقرأه . فاذا قبضت الشرطة على هذا الكتاب حوكم » (٣٣) .

والمشكلة برمتها ناجمة عن خوف الحكومه من الشيوعية فأرادت ان تقضي عليها بهذه الاساليب . ولو انها اهتمت بالاصلاحات وهيأت للناس حرية التعبير لما وصلت الحالة الى هذا الحد ، بل اننا نستطيع أن نقول أن الحكومات العراقية المتعاقبة في العهد الملكي ساعدت الى حد بعيد على تكوين الاحزاب السرية وانتشارها بين عدد كبير من الناس وهي التي دفعت الأدباء الى ميدان السياسة فكان أدبهم وسيلة لخدمة آرائهم ، وكلما زاد التضييق على الحرية اشتد ولع الناس بها

(٣٣) الاهالي عدد ٦٦ سنة ١٩٥٤ .

وطلبوها أني وجدت : ان اضفاء القدسية على السياسة والتشكيك بكل ما يكتبه الناس او يقرؤنه أودي بكثير من الجهود في هذا البلد وشد الناس الى السياسة شدا محكما . وقد ظهر هذا في قانون المطبوعات ذاته، ذلك أن هذا القانون يفرق بين الصحف السياسية وغير السياسية ، ويعني بالصحف غير السياسية الصحف الأدبية والفنية والدينية وغيرها ، فهو في الوقت الذي يضع شروطاً للصحف السياسية يجعل الصحف الأدبية تحت رحمة المسئوول الاداري . وقد أدى هذا الامر الى وقوع ملابسات كثيرة وبخاصة في الصحافة الأدبية . فالحكومة حينما فصلت بين الصحف السياسية والصحف الأدبية لم تضع حدوداً معينة لكل منهما . ليس ذلك باستطاعتها . كما ليس باستطاعة أحد ان يفعل ذلك . لأنه بهذا يحصر الأدب في دائرة ضيقة ويجعله تابعاً لتفسيرات خاصة طبقاً لأمزجة المسؤولين وهؤلاء ليسوا أنبياء معصومين من الخطأ ، وليس الأدباء غير بشر من لحم ودم . فكيف بعد هذا نستطيع أن نحرم عليهم الأدب الذي يتناول السياسة . والاجتماع والدين .

الحياة متداخلة بعضها ببعض . وأبسط الناس يعرف جيداً أن الأدب أثر من آثار العصر والمحيط . يتأثر بالزمان وبالمكان وبالنظام العام للهيأة الاجتماعية وأن الأديب واحد من هؤلاء الذين يعيش بينهم . يحس بما حوله ويتأثر به فيكون أدبه صورة لعصره . فكيف يسكن والحالة هذه أن نحدد له الدائرة التي يجول فيها والدائرة التي لا يحق له أن يقترب منها . اننا بهذا نقضي على الحرية التي هي ضرورة لازمة

للعمل الأدبي .

لقد تركت هذه التفرقة أثراً بعيد المدى على الصحافة ، حتى لقد تحول كثير من الصحف الأدبية الى صحف سياسيه لكي لا تتعرض لقانونين في وقت واحد . قالت مجلة الحاصد : « يقولون ان هذا المجتمع بني على عمد . وهذه العمد هي البيت والفرد والحكومة والمصلى . فكيف يخدم الأدب المجتمع اذا لم ينر الطريق أمام هذا البيت والفرد والحكومة والمصلى . وهل كان الأديب يردد ألفاظاً بلا غاية أو قصد ؟ هو مكلف بأن يقود الحياة . ولكن كيف يتسنى له ذلك اذا قيل له هذا جائز وذلك لا يجوز ؟ قد مشى السياسة ومشي الدين مع الأدب جنباً الى جنب في كل عصر وزمان . أو قل ان الأدب كان لسان السياسة والدين في كل عصر ومكان . الأدب قائد السياسة في كل جيل . اذا لا أعرف ماذا تقصد الحكومة من الاديب حين تقول له تكلم في كل شيء ولكن اياك والسياسة والدين : وهل كان الدين والسياسة أمرين تافهين حتى تتجنبهما كل حركة وتطور أثر من آثار الكتاب والأدباء وهؤلاء لا يستطيعون أن يعدوا للحركة والوثوب اذا قيل لهم لا تتدخلوا في السياسة والدين » (٣٤) صرخة أديب يعرف جيداً كيف أن الحياة متداخلة ببعضها وأن كل شيء يمكن أن يكون مجالاً للأدب . ومن يستطيع أن يحدد مجالات الأدب ومجالات السياسة . فالتعبير عن الآراء الدينية والفلسفية والعلمية والسياسية

(٣٤) مجلة الحاصد عدد ١ سنة ١٩٢٩ .

يصبح أدباً اذا أحتوى على الاسلوب .

والظاهر أن السلطة الحكومية تفهم من الادب أنه قصص اللهو والغرام والعبث أو الشعر الذي يسبح الخيال ويغرم بالطبيعة وغير ذلك من موضوعات الشعر القديم كالمدح والرثاء والهجاء أما اذا عالج الادب مشاكل الحياة فهو سياسة وأما اذا أحس الأديب بآلام أمته ووطنه فهو سياسة .

انهم بهذا يريدون ان يحصروا الأدب في مجالات ضيقة كتلك التي رأيناها في أدب الفترة المظلمة . مع أن الأديب يتحمل مسؤولية كبرى في تحمل الأعباء التي يرزح تحت ثقلها شعبه .

لقد وقع الصحفيون والأدباء أمام أمرين كلاهما صعب فهم أمام شعب يريد منهم أن يقدموا له أدباً يعبر عن عصرهم وما فيه من مواقف متناقضة . وأمام سلطة وضعت أمامهم الكثير من القيود التي تؤثر على حريتهم في التعبير ، فاذا عالج أديب مأساة الفلاح مثلاً في ظل نظام اقطاعي قالوا له انك تدخلت في السياسة لأنك تريد هدم الكيان الاجتماعي للدولة . وان سلك هذا خارج عن حدود اختصاص صحيفتك .

واذا أنشد شاعر قصيدة يحث فيها الناس على المطالبة بحقوقهم قالوا له انك هدام تحرض على الثورة .

ان الأدب سياسة وان الأدب اجتماع كما أن السياسة أدب وانها دين وانها اجتماع ، ولا نستطيع أن نفرق ما من حقه أن يكون

متداخلاً . ولا يمكن فصل الأدب عن السياسة . فالأدب يصور لنا العصر الذي نعيش فيه . وان العبث بحرية العقول تعطيل لموهبة العقل وافساد للفطرة . والانسان الحر هو الذي يقول ما يعتقد . فلا أدب بدون حرية . فاذا نحن كبلنا الاديب بقيود خارجة عن ارادته نكون قد ساعدنا على ايقاف نموه وقتلنا فيه مواهبه الفطرية التي تحتاج الى حركة وتمرين وإلا ماتت وكأنها لم تكن . والشعب الذي ينقطع انتاجه يصبح راكد الحس .

لقد كانت هذه التفرقة بين الأدب والسياسة سيفاً مصلتاً على الأدباء والصحفيين . وكثيراً ما أعلنوا استنكارهم دون جدوى فانهم أمام سلطة كانت تعي أهمية هذه الالفاظ حينما تأتي في مكانها المناسب ، انهم لا يفرقون بين هذه الالفاظ والافكار التي تأتي فيها ، وبمعنى أدق أنهم لا يفصلون الكلمات عن الفكر . انهم يعرفون وقعها في الشعب لانها تحولهم الى ثورة على اوضاع فاسده . وعندهم أن هذه الافكار تزيد الناس تنبها ووعيا لتتحول الى أفعال عملية بعد ذلك . الأمر الذي يؤدي الى تغيير نظام يعتزون بدوامه .

لقد تحولت كثير من الصحف الادبية في العراق بفعل هذه التفرقة الى صحف سياسية . فأهون عليهم أن يخضعوا لقانون واحد من أن يخضعوا لقانونين . نذكر على سبيل المثال لا الحصر تحول مجلة الحاصد الادبية المشهورة الى مجلة سياسية . حينما رأى صاحبها ضيق المجال الذي يدور فيه فقال « من مساويء قانون المطبوعات الحالي أنه يصنفه

الصحف تصنيفا نظريا بحتا يتعذر تطبيقه عمليا ، فقد اعتبر من الصحف ما هو سياسي ، ومنها ما هو أدبي فني لا دخل للسياسة فيه ... كيف ينسنى لأقلام محرريها ان تقدم للقراء مشاهد الحياة وحوادثها ما هو أدبي محض وتتحاشى ذكر كل ماله أساس بما يسمى السياسة ، ثم ما هو المقياس الذي يتمكن به الصحافي من قياس الكتابات السياسية والأدبية والفنية وفصل احداهما عن الأخرى ، فلو كان الأدب كما يفهمه قصيروا النظر مقتصرا على وصف الطبيعة والشمس والصحراء والابل لخرجنا من المأزق بالتي هي أحسن ، ولكن ما قولك والأدب يجب ان يتناول الحياة بما فيها من خير وشر ... اذا أرادت الصحف مثلا ان تحث على التمسك بالمبادىء الانسانية ومثل الحياة وتناصر الفضائل المقدسة كالتمسك بالحرية والدمقراطية وغيرهما مما له علاقة مباشرة بحياتنا وافكارنا فهل بامكانها آلا تتطرق لشذب النظم الجائرة كالنازية والفاشية . والخلاصة آننا نعتقد ان ليس بالامكان اصدار صحيفة أدبية غير سياسيه في عصرنا هذا المليء بالاحداث العالمية الخطيرة ولهذا جعلنا امتياز الحاصد سياسيا » [٣٥] . وهناك فرق كبير بين كون مجله الحاصد سياسيه وكونها ادبيه لقد اختفت منها تلك الحقول الرائعة في الشعر والقصة والنقد وغير ذلك .

ومن الموضوعات التي عالجها المقال في الصحافة العراقية منذ ظهورها ، القومية العربية ووحدة مصيرها ومساندة الحركات التحررية

---

(٣٥) الحاصد عدد ٣ سنة ١٩٣٦ .

في الوطن العربي الكبير ، فالمعروف أن البلاد العربية بعد الحرب العالمية الأولى تجزأت الى دويلات صغيرة تحت حماية انكلترا وفرنسا ، وقد ذهبت هاتان الدولتان الى تحطيم كل ما من شأنه ايقاظ الشعور الموحد في البلاد العربية فخلقت في كل جزء من هذه الاجزاء أوضاعا شاذة تلهيها عن المطالبة بحقوقها القومية « اتجهت سياسة الحلفاء بعد الظفر بالحرب العالمية الاولى الى تحطيم الروح العربية وتشتيتها وتنفير الناس منها وخلق شتى الاسباب والعوامل لصرف الناس عنها الى التفكير في شؤونهم الخاصة والمحلية التي ازدادت خطورتها واشتدت وطأتها بعد أن أحكمت القيود واصبح مفهوم القضيه العربيه عند هذه الدول الاجنبية وانصارها وعبيدها في البلاد العربيه هو ان يعزلوا هذه البلاد بعضها عن بعض فتضعف كل منهما بعزلها وتضطر بسبب انقطاعها عن أخواتها أن ترمي بنفسها في احضان الدول الاجنبيه المتحكمة فتربط مقدراتها في هذه البلاد » (٣٦) .

ويبدو ان العراق بحكم ظروفه الخاصة هو الذي حافظ على الشعور القومي بعد الحرب العالمية الأولى من الذوبان والاختفاء ، وانه بقي يتغنى بهذا الشعور وينميه في وقت كانت فيه أوضاع البلاد العربية الأخرى لا تساعد حتى على مجرد ابداء هذا الشعور .

ففي سوريا حيث الاستعمار الفرنسي الذي يمتاز بالشراسة والقوة واحتقار عادات وتقاليد الامم المستعمرة ، كان يحاول بكل قوة طمس

(٣٦) البلاد عدد ٦٤٩ سنة ١٩٣٥ .

كل حركة وطنية أو قومية كما أنه يحاول غزو الشعوب بثقافته وعاداته وتقاليده ، وهذا ما لاحظناه في بلاد المغرب العربي .

في حين كان الاستعمار الانكليزي يحترم عادات الشعوب وتقاليدها وينمي لغتها ولا يتدخل الا حينما يجد تعارضا مع مصالحه الاقتصادية. أما مصر فكانت بعيدة عن البلاد العربية بحكم ظروف الاحتلال الاجنبي وبحكم ظهور بعض النزعات الغريبة التي كانت تظهر حينذاك . ومن هنا وجد العراقيون فرصة ملائمة أكثر من غيرهم في المحافظة على الشعور القومي وبخاصة وأنه حصل على بعض استقلاله قبل كثير من البلاد العربية الاخرى بينما بقيت البلاد السورية مستعمرة حتى أواسط العقد الخامس من هذا القرن فكان كثير من رجالها يهربون الى العراق فيجدون ترحيبا حارا بهم على صفحات الجرائد . وحينما كان يقوم في في بعض البلاد العربية جدل حول المسائل القومية كانت الصحافة العراقية تقف لهؤلاء بالمرصاد فتعريهم وتحدث ردود فعل مختلفة تجد مجالها في الصحافة ذاتها . كما كانت تنقل بعض آراء الكتاب في مصر حول هذه الناحية بالذات وهم يدفعون هذه الشبهة عن بلادهم ، من ذلك ما نقلته جريدة البلاد للدكتور زكي مبارك « مصر هي أعظم موئل للعروبة . ومن واجب العربي الصادق ان يدعو الله لسلامة تلك البلاد من كل عادية . حتى تظل ينبوعا تتفجر منه المعارف العربية ، ومع أن مصر أعظم موئل للعروبة فهناك شبهات يجب تبديدها في هذا المقال . هناك اشاعة تقول أن مصر فرعونية ، ونقول ان الذي اشاع هذه الفكرة

هو كاتب مصري اسمه سلامه موسى . وأؤكد لكم ان هذا الكلام اخترعه أناس في غير مصر وسمع به سلامه موسى كما سمع به غيره من المصريين ؛ ومن هنا ترون أن الدسيسة جاءتنا من الاجانب من المستعمرين وأشباه المستعمرين الـذين ملؤا بدنانيرهم جيوب فريق ممن يكتبون باللغة العربية ... وأجهل الناس يعرف ان العروبه ان انعدمت في مصر فلا تقوم لها قائمة ... ان مصر عربية قبل كل شيء عربية في لغتهـا ودينها وأخلاقها » (٣٧) والذي لا يستطيع ان ينكره منصف ان مصر هي أول دولة عربية حولت القوميه العربية من مجرد شعار يطرح الى واقع عملي ملموس ؛ وذلك عن طريق خدمة اللغة العربية واحياء علومها القديمة ونشر الثقافه العربية الأصيلة في مختلف البلاد العربية ، فكان لذلك أبلغ الأثر في ايجاد رابطة عملية بين هذه الافطار اما هذه الدعوات التي كانت تظهر بين الحين والآخر فلا تمثل الا أصحابها . يقول الدكتور طه حسين وهو يرد على بعض من يذهب هذا المذهب « لست أدري كيف يختصم الناس في هذه المسألة او كيف يجعلونها موضوعا للحوار فهي في نفسي اوضح واجلى من ان تحتمل خصومة او جدلا ، لغـة واحدة تتكلمها امم مهما يكن بينها من اسباب الاختلاف والائتـلاف ومن تباعد الاماكن . واذن فالشعوب التي تتكلم هذه اللغة مضطرة سواء ارادت ام لم ترد الى وحدة ثقافية ، لا يصرفها عن هذه الوحدة الا ان تبدل بلغتها العربية لغة اخرى . فاذا اضفت الى هذا أن هذه

(٣٧) البلاد عدد ١٠٦٨ سنة ١٩٣٨ .

الشعوب لا تشترك في اللغة وحدها وانما تشترك معها في الدين ايضا فكثرتها مسلمة ، كان ذلك داعيا الى اشتداد ما يجب أن يكون بينها من التقارب والتواصل ، فاذا أضفت الى هذا كله أن هـذه الشعوب تشترك في الخضوع لطائفة من المؤثرات الاقتصادية ثم ألوان من التحكم الاجنبي،كان أمر الوحدة أوضح من ان يحتاج الى جدل او حوار»[٣٨]، ولم يعد هناك مجال لامثال هذه الدعوات ، بل اننا نستطيع القول: إن الدعوة الى القومية العربية حملها لأول مرة عربي من مصر هو الاستاذ عزيز علي المصري الـذي كان يترأس بعض التنظيمات السرية في الأستانة نفسها « فقد شرع عزيز علي المصري وهو في الاستانة في تأليف جمعية سرية توحد صفوف العرب وتجمع كلمتهم . فكانت جمعية العهد التي شرع بتكوينها سنة ١٩١٣ وانضم اليهـا لفيف من العراقيـين والسوريين الذين كانوا يدرسون في الأستانة »[٣٩] .

وكانت الصحافة العراقية تتعاطف مع البـلاد العربية في أوقات المحن والثورات فما أن تهب ثورة في قطر عربي حتى تراها تحذر وتنبه وتشجع كقول جريدة الاستقلال « أخي العربي أهديتك بالامس تحيتي يحملها اليك نسيم بلادي العليل واليوم أهديكها ونشيد العروبة ونحن نسير الى الهيجا يحملها ممزوجة بأصوات رصاص أطلقنـاه في سبيل المجد وحياة العرب نشيد (نحن جند الله شبان البلاد) يتصاعد من

(٣٨) البلاد عدد ١١١٣ سنة ١٩٣٩ .

(٣٩) الحسني — الثورة العراقية الكبرى — ص ٤٣ .

أعماقنا وقنابل العدو تتساقط وابلا وأزيز طياراتهم يملأ الفضاء ... ايه يا أخا العرب ان سوريا الثائرة ، سوريا المجاهــدة بحاجة فأعينوهــا وتستصرخكم فلا تخيبوا رجاءها وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر »(٤٠).

وقد جمع كل ما قيل في الصحافة العراقية عن سعد زغلول بكتاب خاص سمي (ذكرى سعد زغلول) .

وحينما تتحرر البلاد العربية من الاجنبي تتحول اللهجة في الصحافة العراقية الى لهجة ساخرة من هؤلاء الحكام الذين يدعون الى الوحدة العربية ومع هذا فهم لا يطبقونها فعليا « مصر تريد الوحدة والعراق يتقدم بمشروع لتوحيد الدول العربية وسوريا تنادي بالوحدة وكل دولة تنادي بالوحدة وتدعو لها ، بل كل مسؤول عربي في كل بلد عربي لا يتحرج حين يجيء ذكر الوحدة ان ينظم الشعر تغزلا بها وغناء فيها . فمن الذي يحول اذن دون قيام هذه الوحدة ؟ . ان الذي يحول دون قيامها جمع غفير من المصالح المتشابكة التي تربط أعداء البلاد في الداخل بأعداء البلاد في الخارج ليقفوا صفا واحدا في وجه هذه الأمة، يفتوا من عضدها ويفرقوا كلمتها لأنهم مقتنعون بأن وحدتها خطر على جشعهم ومراكزهم وانهم لا يستطيعون احتلالها اذا ما اجتمع شملها وتآلفت أقطارها»(٤١)

أما ما قيل بسبب مأساة فلسطين فهو كثير لا يمكن حصره ، فقد رافقت الصحافة العراقية هذه المسألة منذ وعد بلفور حتى حرب حزيران وهي

(٤٠) الاستقلال عدد ٩٢٦ سنة ١٩٢٦ .

(٤١) لواء الاستقلال عدد ١٧٧٥ سنة ١٩٥٤ .

في هذا كله كانت تعي دورها ، تحذر وتنبه وتثور وهي لا تملك أكثر من ذلك أيضاً ، من ذلك هذه اللهجة الساخرة في جريدة اليقظة « لا بأس عليك يا فلسطين فإن وراءك أمة قد ملأت الدنيا صراخاً وعويلاً ، وقوماً يحسنون ذرف الدموع وشق الجيوب وزعماء يخطبون ويقولون فلا تسرفي في طلب المزيد . فقد عظمت التضحية على القوم ولم تهنأ الليالي على السادة هددوا الدنيا بأجمعها من أجلك ولكن هذا هو الأمر الواقع فماذا يعملون ؟ ومن أجدر بهذه التضحية من هذه الأمة الكريمة ؟ ومن يفتح بلاده على الرحب والسعة اذا لم نفتح بلادنا نحن ؟ أليست الصحراء جزءاً من بلادنا نستطيع أن نضرب فيها الخيام ونعيش مشردين لا نلوي على شيء! هذا قضاء وقدر ونحن نؤمن بالقضاء والقدر . فماذا تصنع الأمة أكثر مما صنعت يا فلسطين . اصبري يا فلسطين فإن هذه الحياة زائلة وان لك بعدها الجنة التي عرضها السموات والارض »[٤٢].

ولو جمع كل ما قيل في سبيل قضية فلسطين لملأ الكثير من المجلدات وهو على الأغلب أدب كله ثورة وحقد يجمع بين طياته تطورات هذه القضية منذ أن وجدت حتى اليوم . ليكون بعد ذلك سفراً خالداً في مجال الأدب الثوري المعاصر . فقد تأثر أغلب الأدباء العرب بهذه النكبة وتدفقت في نفوسهم الخواطر وفاضت في قلوبهم المشاعر معبرة عن صدى الكارثة في نفوس جيلها . وأغلب هذا الأدب موزع في الصحف العربية وربما كان في جمعه خدمة هامة لتطورات هذه القضية بالاضافة

(٤٢) اليقظة عدد ٧٠٩ سنة ١٩٤٨ .

الى خدمة الأدب العربي الحديث .

هذه هي الاتجاهات العامة التي رافقت المقال الصحفي في جرائدنا ومجلاتنا منذ وجودها حتى اليوم : المسألة الوطنية ثم الدفاع عن حرية الشعب والمواطن والمسألة القومية ؛ وما عدا هذا كله فموضوعات وقتية تأتي في حينها وتزول بزوال اسبابها .

والحقيقة التي يلاحظها من يدرس الصحافة العراقية بامعان ، أن هذه الاتجاهات السياسية الثلاث . استهلكت الأديب العراقي لا في المقال فحسب بل في جميع الفنون الأدبية الاخرى من قصة وقصيدة وغيرهما وجعلته يدور في هذه الحلقة ولا يبتعد عنها . وانه جعل من هذه الفنون وسيلة الى خدمة آرائه السياسية . الأمر الذي أثر الى حد بعيد على الناحية الجمالية والفنية في أدبنا . بعد أن تحول عندهم الأدب الى رسالة تخدم افكاراً سياسية بعينها .

ومن هنا طغى الجانب السياسي على ما عداه في كثير من صحفنا، مع أن هناك جوانب أخرى قد لا تقل أهمية عن السياسة ذاتها وذلك كالناحية الاجتماعية التي أولاها المقال أهمية أقل مما يمكن ؛ ولهذا فإنه لم يشغل سوى جزء ضئيل من اهتمام الصحافة . ويمكن ارجاع ذلك الى اعتقاد الناس ان في حل المشاكل السياسية حلاً لجميع مشاكل الحياة الاخرى . كما ان الروح المحافظة أثرت على هذه الناحية بالذات فكانوا يفسرون كل حركة مطالبة بأنها مخالفة للدين ، يضاف الى هذا كله ندرة وجود كتاب لهم قابليات خاصة في معالجة النواحي الاجتماعية .

وأهم مشكلة اجتماعية اهتمت بها الصحافة ، هي موقف الكتاب من المرأة وحريتها من حيث التعليم والزواج والتوظف ، فهناك كتاب وقفوا الى جانبها يؤيدون حريتها وآخرون ينظرون اليها نظرتهم الى قطعة أثاث ، فهم يجردونها من الاحساس والشعور ويرغمونها على البقاء في بيتها .

وأول جريدة أولت المرأة عنايتها هي جريدة الرقيب ، فقد ذكرت عنها ما يشير الى أنها كانت تعيش في جهل مطبق : لا حرية لها في التعليم أو الخروج من البيت او في الزواج قالت « ان حالة المرأة في مدينة بغداد حالة يستحي القلم من تحريرها لأنه لا يوجد بينهن واحدة من عشرة آلاف ممن يحسن القراءة . والسبب الاعظم هو تعصب سادتنا المسلمين ضد تعليمهن . حتى ان شاعرنا الرصافي ما نظم قصيدته النسائية التي تناقلتها الجرائد السورية . حتى تبادر الشعراء بالرد عليه وتفنيد رأيه في ذلك ، بتحريم تعليم المرأة شيئاً من العلوم والمعارف وأنهن لا يصلحن لذلك وأنهن من سقط المتاع . . . ولكنهم تساهلوا الآن فرخصوا تعليم المرأة تلاوة القرآن العظيم بشرط عدم تناول القلم لخط شيء لأن لذلك محظور » [٤٣] .

فهم يعتبرون تعليم المرأة من المحرمات ، كل ما هنالك تعليمها تلاوة القرآن على أن لا تمس القلم وتخط به شيئاً : ولا ندري من أين جاءوا بهذه التعاليم مع أن الاسلام لا يفرق في التعليم بين المرأة والرجل ،

(٤٣) الرقيب عدد ٧٤ سنة ١٣٢٧ هـ .

وربما كانت هذه الروح المحافظة هي السبب في أن كثيراً من أنصار المرأة في العراق كانوا يرسلون آراءهم الى الصحف العربية في مصر وسورية (٤٤) .

ويبدو أن انصار المرأة كانوا أكثر توفيقاً من غيرهم فقد بدءوا يضربون على وتر حساس يلائم طبيعة الفترة التي وجدوا فيها ، يتمثل في المطالبة بتعليم المرأة ، حتى لا يتعرضوا لغضب العامة أو نقمتهم ، وتعليم المرأة يعني حل كثير من مشاكلها بعد ذلك . فاندفعوا يطالبون بفتح المدارس وتعليم البنات لأن المرأة المتعلمة خير من المرأة الجاهلة في تربية الاطفال . ومن الخير أن ينشأ الطفل في أحضان متعلمة من ان ينشأ في أحضان جاهلة . وأن التربية الوطنية السليمة انما ترضع مع الحليب فحيثما تكون المرأة يكون طفلها « لقد كتب على المرأة الشرقية أن تعيش خاملة الذكر وضعيفة القدر أحقاباً طوالاً بينما أودعت الطبيعة في حجرها أسرار التربية الخلقية . وهي بمركزها السامي وتأثيرها العميق في مستقبل الأمة تبقى عندنا مجهولة المكانة مهضومة الحقوق . قالوا وكتبوا ولم يعرفوا أن جهل المرأة داؤنا فهذبوها ان أردتم نهضة حقيقية، لا ينكر العاقل ان تربيتنا البيتية ناقصة ولا يرجى اصلاح هذه التربية من دون ان نسعى في تهذيب الام ... هذبوها يا ابناء دجلة والفرات تهذب لكم النشيء الصالح . الوطنية الحقة ترضع مع الحليب ، وحب الوطن درس يلقن في حضن الام . نحن لا نطمع اليوم في نزول نسائنا

---

(٤٤) الرقيب عدد ٧٤ سنة ١٣٢٧ .

الى السياسةوأن يجلسن على مقاعد الحكم والادارة في سراي الحكومة بل كل ما نريد أن نرى فتاتنا عارفة بوظيفتها وأن خير وسيلة هي الاكثار من المدارس ، ومن العار والفضيحة أن لا يكون في العراق غير مدرسة أناث واحدة بين المدارس الاميرية » (٤٥) .

وقد استمرت هذه النغمة حتى في العقد الرابع من هذا القرن . ورغم ظهور صحف أولت مشاكل المرأة أهمية خاصة كمجلة الزنبقة ، فقد جاء في عددها الأول « تبحث في كل ما يؤول الى تثقيف المرأة بالوسائل التي اشتهرت بها في الاقطار الراقية وفي الاقطار الغربية عموماً » لكنها مع هذا لم تذهب الى أبعد من زميلاتها بل استمرت تضرب على نفس النغمة حتى لا تثير عليها الاهواء . وفي هذه الفترة بالذات ظهرت صحيفة نسائية لأول مرة في العراق خدمت المرأة خدمة صادقة وأولتها عنايتها الأولى . تلك هي مجلة ليلى الصادرة سنة ١٩٢٣ لصاحبتها بولينا حسون وهي « مجلة نسائية شهرية غايتها نهضة المرأة العراقية» وكانت بارعةفي تجسيم مشاكل المرأة وبخاصةفي التعليم بينما كانت حذرة في أمور أخرى لأنها كانت تخشى إثارة الرأي العام الذي يحسب له ألف حساب حينذاك . حتى ان الكثيرين من هؤلاء المحافظين بدءوا يثبطون عزيمة صاحبتها واعتبروا صدور مجلة نسائية في العراق من الأمور الكمالية السابقة لأوانها . لاعتقادهم بأن المرأة من الخمول بحيث أن جميع وسائل الانهاض تبدو قاصرة أو كأنها نفخة في

(٤٥) العراق عدد ٤٧٧ سنة ١٩٢١ .

في رماد كما يقولون . وقد ردت عليهم هذه المجلة فقالت « يفتكر بعضهم أن ظهور مجلة نسائية في العراق من الكماليات التي لا حاجة اليها الآن وأن المناداة بنهضة المرأة في العراق نفخ في رماد . هؤلاء وأمثالهم معتادون اطفاء الأرواح ولعلهم من بقايا الوائدين . ولكن مالنا ولفكرهم الرجعي . وأنى يسمع صوتهم الخافت بين رعود الأصوات الحية الداعية الى التجدد المنعش . لله أنتم ايها المنادون بالحياة والساعون الى خير البلاد أنتم روح العراق انتم قلب العراق . قلب العراق شاعر بأنه لن يشفي غليله ما لم تشمل النهضة فتياته فيستوفين حقهن في التجدد الاجتماعي لتصلح أحوالهن وأحوال الامة بهن » (٤٦) .

وقد راحت هذه المجلة في سبيل الغاية التي أنشئت من أجلها ، تتخذ من قصص الفتيات العربيات المشهورات في تاريخنا العربي مثالاً يحتذى ووسيلة للوصول الى أهدافها .

كما دعت المرأة الى توحيد جهودها ونشاطها وتكوين نواد خاصة بها . وفتحت صدرها لكثير من المقالات التي يكتبها أنصار المرأة ، وعالجت طرق الزواج وطالبت بأخذ رأي الفتاة في هذه الناحية . لننظر اليها وهي تحاول التأثير على عواطف الآباء والأمهات وتلفت نظرهم الى خطورة الزواج القسري على لسان فتاة مكلومة « ليتني آخر ضحية ، أني للبلبل الشحرور ليحس بأني تائهة في وحشة غابة الحياة . لا أنس لي إلا بترديد صدى أشجاني الأليمة . يموت كل جزء مني وقلبي

(٤٦) مجلة ليلى عدد ١ سنة ١٩٢٣ ص ٤ .

هادىء في نفسي ولا تتوقع روحي عونا من أحـد أنا ضحية من كانوا سبب حياتي فسمموها أنا ضحية أولياء نعمتي ، قد كنت مثلك أيها العندليب أغنى للطبيعة والطبيعة تبسم لي لأقوم صباحاً فأقبل السماء وأحيي حمائم الأيك . ولكن أي نعيم على الأرض دام وأي يوم أبيض لم يعقبه يوم اسود . أقبل الي اليوم الاسود وأنا في الربيع السادس عشر من عمري . ويا ليت ذلك الربيع كان خريف عمري فما كنت اذوق مرارة حقائق الحياه . تباً لذلك اليوم يوم زفافي يوم وأدي . حينما كبلت السلطه القهارة يدي ورجلي وأنا بريئة ضعيفة وزجتني في دار شيخ طاعن السن كأبي ناداني الشيخ الهرم بامرأتي . فنفثت في نفسي سماً قاتلاً وأحال قلبي صخراً جلداً » (٤٧) .

وتتغير الظروف وتفرض نفسها على الواقع ويخف صوت المعارضين ، فلم تعد المرأة ترضى بهذه المكاسب فحسب بل راحت تنادي بحريتها في التوظيف والشعور والاستقلال عن الرجل في شؤونها الخاصة ، فحضرت المؤتمرات ودخلت الحفلات وبدأت شخصيتها في الظهور الأمر الذي أثار حفيظة ذوي العقليات القديمة فملؤا أعمدة الصحف بلهجة قاسية وبخاصة في مسألة ظهور مشكلة السفور والحجاب ، ذلك أنهم كانوا يفسرون كل حركة تقدمية على أنها مناهضة للدين وتؤدي بالتالي الى انهيار أسس الاخلاق العامة ، وهذا ما نلاحظه على لهجة الصحف الدينية والتي تسير في ركابها ، ومن ذلك قول مجلة الناشئة الاسلامية عن

(٤٧) مجلة ليلى عدد ٤ سنة ١٩٢٤ ص ١٧١ .

السفور « أجل ان المجندين للسفور أناس لا يهمهم من الأمر شيء لأن نساءهم وأخواتهم سفروا أو أنهن سافرات . فلذا يودون تعميمه لئلا يبقوا في معزل . انما نناشد هؤلاء الذين سفرت نساؤهم وأخواتهم ونقول : ما الذي جناه الوطن من وراء ذلك هل تريدون أن تقضوا على البقية الباقية من عفاف نسائنا . أما يكفيكم السفور الذي نشاهده والمفاسد الكثيرة التي ظهرت ولم يكن يعرفها العراقيون بها من قبل ، لقد انحطت أخلاق الشباب وذلك لمطاردتهم للسيدات والفتيات في الأزقة والطرقات . هل تريدون أن يجتمع الرجل الاجنبي بالمرأة المسلمة بدعوى المدنية التي تزعمونها اللهم لا يقبل بهذا الحال إلا من هو مجرد من كل حمية وشهامه . كما أنه أقل غيرة من الحيوانات البهيمية لأن الحيوانات تغار على أناثها من الاختلاط مع غيرها إلا الخنزير » [٤٨].

وتبدو آراء هذه الزمرة ونظرتهم الى المرأة من خلال هذه المقالة التي نشرتها نفس هذه المجلة وفي نفس هذا العدد فقالت « غريب أمر ذلك الرهط من المتجددين والمتجددات . وغريب أمر هاتيك الصحف التي ملأت أعمدتها بالكلام الجوف والهذيان الذي ليس منه فائدة ولا يأتي بطائل . هل المرأة مظلومة لا العياذ بالله . هل المرأة مرزأة ؟ العياذ بالله . اذن ماذا بها وماذا دهاها ؟ يقولون انها تتبرم بالحجاب وتستعين بالله من هذا الحجر الذي سيقت اليه مكرهة انها تطلب الخلاص وتسأل الحرية فما تستطيع . خلقت المرأة اما ترضع طفلها . وجاءت لتكون

(٤٨) الناشئة الاسلاميه عدد ١٠ سنة ١٩٢٦ ص ١ .

انساً تفرج عن كربها وتفتحت لأن تكون زهرة تؤرج بيتها . لم تخلق لتكون في ميدان العمل تسابق الرجل وتضايقه . ولم تجد بها الطبيعة إلا لتكون معواناً للرجل في أداء مهمته وحافزاً للقيام بما حباه الله من مواهب وقابليات يستعين على رسالته . أما غير ذلك فخروج على الطبيعة وشذوذ عن الاجتماع » فمهمة المرأة عند هؤلاء هي أن تبقى في بيتها لكي تخدم الرجل الذي خلقه الله لأمور ليس في مقدور المرأة ان تتحملها .

وقبل أن تترك هذا الجانب لابد من التعريج على علم بارز ادى خدمة كبيرة للمرأة في العراق . ذلك هو الزهاوي الشاعر المعروف . فقد كان السند الرئيسي الذي اعتمدت عليه المرأة في نيل كثير من حقوقها في العراق رغم ما كان يلاقيه من مضايقات ومشاكل بسبب آرائه حتى ان المحافظين استطاعوا في كثير من الحالات أن يألبوا عليه الرأي العام ويحطوا من قدره وينهشوا عرضه ويرموه بالزندقة والالحاد، بل لقد مرت عليه فترات كان لا يستطيع معها أن يخرج من بيته خشية على حياته . قال كاتب في مجلة المقاصد السامية يبين فضل الزهاوي على المرأة « ظلت المرأة في المشرق قروناً طويلة تعاني من العسف والويل من الرجال ، بقيت آلة مسخرة بيد الرجل وتعد من سقط المتاع حتى هيأ الله لها رجالاً أنار الله عقولهم وقلوبهم بنور الايمان والرحمة والهداية ومنهم الزهاوي ولم يبلغ أحد مكانه في ذلك فتقبله بصدر

رحب » (٤٩) .

وحينما تضيق به سبل النشر في العراق كان يبعث بآرائه الى الصحف العربية لما فيها من صراحة لا تناسب الجو العام في العراق .

وحينما كان العراقيون يقرؤن هذه الآراء في الصحف العربية كانوا يثورون عليها وعلى الزهاوي فيضطر هذا الى التراجع والتنصل من بعض ما كتبه وربما أنكر كثيراً من آرائه في أوقات الشدة .

لنقف أولاً على رده الذي بعث به الى مجلة العلم النجفية يحاول ان يتنصل فيه من مقالة بعث بها الى جريدة المؤيد القاهرية . قال الزهاوي « قد كان بمرأى من سيدنا ومسمع . ما أصابني قبل أيام من الاضطهاد والذي أثاره بعض المتعصبين بتفكيره لمقالة اجتماعية نشرت باسمي دفاعاً عن حقوق النساء قبل أن يتحقق الأمر فيعلم أأنا كاتبها أم هي مكذوبة عليّ من قبل عدولي في العراق . على أن ظاهر المقالة وان لم تكن مني لا يفيد — معاذ بالله — طعناً في الشريعة الطاهرة بل كل ما فيها شبهات استفهامية كثيراً ما يأتي الكتاب بمصر وسوريا بأمثالها ... » (٥٠) .

ويبدو أن التيار المضاد لهذه الآراء كان من القوة بحيث اضطر الزهاوي معه أن يتنصل مما كتبه في جريدة المؤيد القاهرية وإلا فان في مقالته تلك من الآراء أقل ما يمكن أن يقال فيها انها لا تلائم عصرها وانه

(٤٩) المقاصد السامية عدد ٣ سنة ١٩٤٨ .

(٥٠) مجلة العلم عدد ٩ سنة ١٩١٠ ص ٤١٥ .

دخل في أمور كان عليه أن لا يدخلها لأنها تمس صميم الدين ، لقد حفزنا هذا التراجع من الزهاوي الى محاولة البحث عن المقالة المذكورة في المؤيد لأن الصحافة العراقية لم يكن في مقدورها أن تنقل مثل هذه الآراء الصريحة في صفحاتها . قال الزهاوي تحت عنوان (المرأة والدفاع عنها صوت أصلاحي من العراق) ومما جاء فيه « ... الرجل بدون المرأة قياس عقيم لا ينتج . هي وحدها تعزية الرجل واعتماده وساعده فما بال الرجل الذي هو ناقص بدون المرأة يدأب في اهانتها وهضم حقوقها . يقول الرجل : أنا أقدر من المرأة واغلظ منها رقبة واحد مخلباً واكثر ارتقاء . فيجب أن أتمتع وحدي بالحرية . وأما المرأة فهي متاع الرجل . خلقت للذته . فاذا قضاها جاز له ان يستبدلها بمتاع آخر يجدد ما طاب له مثنى وثلاث ورباع ... أجاز المسلمون أن يقسو الرجل فيطلق المرأة ويستبدلها بغيرها كسقط المتاع راداً الى حضنها أطفاله الذين هم نتاج شهوته غير راحم لدموعها ولا مصغ لنشيجها . ما حيلة المرأة اذا منيت برجل شرس الاخلاق فقط بل بوحش ضار يسبها في وجهها ويرفسها برجله ... لماذا لم يجز المسلمون أن تطلقه لتنجو من شراسته وقد قال تعالى (ولهن مثل الذي عليهن) [٥١] لماذا لايكون لها هذا الطلاق مثلما هو عليها لتعم المساواة . أسألك ايها الرجل من أين لك الحق في أن تطيعك المرأة طاعة عمياء ؟ أترضى لو كنت امرأة ان

(٥١) لم يكمل الزهاوي الآية وهي « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم » سورة البقرة الآية ٢٢٨ .

يتزوج عليك زوجك بأخرى ... وليست المرأة المسلمة مهضومة من جهة واحدة بل من جهات عديدة فهي مهضومة لأن عقد الطلاق بيد الرجل ، وهي مهضومة لأنها لا ترث من أبويها إلا نصف ما يرثه الرجل، وهي مهضومة لأنها تعد نصف انسان وشهادتها نصف شهادة ، وهي مهضومة لأن الرجل يتزوج عليها ثلاثاً أخريات . وهي مهضومة لأنها مقبورة في حجاب ... وليست المرأة المسلمة مهضومة في الدنيا فقط بل هي مهضومة في الآخرة لأن الرجل المصلي يعطى من الحور العين من سبعين الى سبعين ألفاً . وأما المرأة المصلية فلا تعطى إلا زوجها ... »[٥٢].

آراء خطيرة كان من شأنها ان تحدث ما أحدثته من ضجة في العراق . بل ان جريدة المؤيد نفسها أرادت ان تتخلص من هذه اللهجة الغريبة في آرائها فكتبت تعليقا على هذه المقالة بقولها « تكلم حضرة الكاتب المصلح عن الحجاب ولم يقل أي حجاب يريد أن يرفعه عن المسلمين . فاذا كان الحجاب الشرعي الذي نزلت به آيات القرآن فذلك لا يوافقه عليه مسلم وقف عند حدود الشريعة الغراء . ونحن لا نظنه يريد هذا ولعله يحارب هذا الحجاب المعطل عن الارتقاء الملي خصوصاً في بلاد الشام والعراق » .

تلك هي الموضوعات التي تناولها المقال في الصحافة العراقية ، اكتفينا بما كان غرض الكاتب منه الاثارة واتخاذ موقف معين من المواقف التي تعج بها الحياة .

---

٥٢) المؤيد الاسبوعي عدد ١٤٤ سنة ١٩١٠ ص ٣ .

الفصل الثاني

الفن القصصي [1]

قامت الصحافـة العراقية عـلى أكتـاف الأدباء الذين كونتهم الدراسات الخاصة على الاكثر في وقت لم تكن وسائل التعليم الحديثة منتشرة انتشارا كافيا . فاعتمدوا على انفسهم في تحصيلهم الثقـافي وتكوين شخصياتهم الأدبية . مجرد بذرة صغيرة في الجوامع أو المساجد والكتاتيب ؛ تركوها حينما لم يجدوا فيها ما يشبع نهمهم من الثقافـة الحديثة ؛ وراحوا ينمون هذه البذرة عن طريق القراءات الخاصة التي هيأتها لهم مطابع مصر و سوريا .

والنهضة الأدبيه في العراق مدينة للرواد الذين مهـدوا السبيل لجيلنا الحاضر : نذكر منهم صاحب جريدة الرقيب عبد اللطيف اثنيان، وابراهيم صالح شكر صاحب الناشئة الجديدة ؛ واحمد عزت الاعظمي

---

(١) جل اعتمادنا في هذا الفصل على الصحافة . وهناك كتب تبحث في هذا المجال صدرت قبل طبع هذا الكتاب فمن أراد المزيد فعليه بها واهمها فن القصص العراقي المعاصر للدكتور علي جواد الطاهر ونشأة القصة وتطورها في العراق للاستاذ عبد الاله احمد والقصص في الادب العراقي الحديث للاستاذ عبد القادر أمين .

صاحب مجلة المعرض ، وابراهيم حلمي العمر صاحب جريدة المفيد ولسان العرب . وجعفر الخليلي صاحب جريدة الهاتف وغيرهم .

ويبدو أن الظروف أرادت أن تخدم البلاد وتهيء لها نهضة في مختلف فنون الأدب : فكان لكل واحد من هؤلاء موهبة معينة في فن من هذه الفنون . ففيهم اللغوي البارع وكاتب المقال الممتاز والقصصي والناقد .

والقصة القصيرة من الفنون الأدبية التي كانت ثمرة من ثمرات الصحافة عرفت بها وتطورت معها . ومن النادر أن نعثر على قصة لكاتب عراقي نشرت في غير نطاق الصحافة . والظاهر أن شيوع القصة القصيرة في الصحافة العراقية أكثر من غيرها يعود الى وجود صلة فيما تضمنه التراث العربي القديم من مقامات وأحاديث وحكايات امتلأت بها كتب الأدب العربي القديم . ومن هنا كان السبيل ممهدا الى القصة القصيرة . في حين تحتاج القصة الطويلة الى تركيب فني خاص قد يسوغ لنا معه أن نقول انه لا عهد لأدبنا العربي به . اذ المعروف أن القصة الأدبية الطويلة انما نشأت في وقت متأخر يمكن ان نرده الى القرن السابع عشر الميلادي بقصة دون كيشوت . التي تعتبر المظهر الحقيقي للقصة الطويلة في الآداب الاوربية الحديثة .

واتصال أدبنا العربي الحديث بالقصة جاء عن طريق الترجمة أولا . وهذا ما نلاحظه في بعض البلاد العربية التي سبقت العراق الى النهضة الحديثة كمصر والبلاد السورية ، وأما القصة المؤلفة فقد

تأخرت في ظهورها بعض الوقت ريثما تتاح الفرصة لمعرفة خفايا هــذا الفن ودقائقه ، وهكذا سارت القصة المترجمة والمؤلفة بعد ذلك جنبا الى جنب . يقول الاستاذ يحيى حقي « فلا ضير أن نعترف أن القصة جاءتنا من الغرب . وان أول من أقام قواعدها عندنا أفراد تأثروا بالادب الأوربي والأدب الفرنسي بصورة خاصة بالرغم من أن روائع الادب الانجليزي كانت قد ترجمت الى العربيــة الا أن الادب الفرنسي كان منبع القصة عندنا »[٢] ولعل رواية زينب للدكتور هيكل أول قصة مصرية تأثرت بالادب الغربي .

اما اتصال العراق بالقصة الحديثة فربما تهيأ عن طريق الصحف العربية التي كانت تصل الى العراق بعد النصف الثاني من القرن الماضي كمــا نجد ذلك في مجلة الجنان وبعض الصحف المصرية . وقد جاء أثرها متأخرا . ذلك . لم نلاحظ في جــريدة الزوراء ما يشير الى اهتمامها بهذا الفن الجديد رغم حياتها الطــويلة . ولم يظهر اهتمام الصحف العراقية بهذا الفن الا بعد ظهور الصحافة الشعبية التي إهتمت بالترجمــة عن اللغات الأجنبية . وربما كان سبب تأخر ظهور القصة في العراق عن غيره من البلاد العربية أن العراق قد تأخر حصوله على الاستقلال عن الدولة العثمانية حتى الحرب العالمية الأولى ؛ وكانت اللغة الرسمية خلال هذه الفترة كلها هي اللغة التركية . ثم ابتعاد العراق عن الحضارة الغربية بحكم بعده عن منطقة البحر المتوسط الــذي يعتبر

---

(٢) يحي حقي — فجر القصــة — ص ٢٠ .

وسيلة اتصال الشرق بأوربا ، كما أن انتشار الجهل وانعزال المرأة عن المجتمع والنظر اليها نظرة لا تخلو من الشك والريبة ، كانت من العوامل المساعدة على تأخر الفن القصصي في العراق عن غيره من البلاد العربية.

وقد ظهرت في بعض الصحف العراقية التي كانت تصدر في نهاية العقد الأول من هذا القرن ما يشير الى شيء من ذلك ، كقول جريدة صدى بابل وهي تنصح المرأة بالابتعاد عن قراءة القصص « لا أشور عليك أن تقرئي الروايات الخيالية لأنها غالباً ما تحرك القلب حراكاً شديداً تخرجه عن طور المحبة المقدس الى الاحساس الشديد لا بل الى الهيجان العصبي فتتولد الاوهام ويؤسر القلب الحر برباطات خيالية لا تجدي نفعا » (٣) .

ومن المحتمل جدا أن تكون هذه النظرة الى القصة نظرة عامة. لأن أصحابها يخالونها ضربا من العبث واللهو لا يليق بالرجل المتزن والمرأة المحصنة .

ويذكر الاستاذ جعفر الخليلي صاحب جريدة الهاتف والتي كان لها أثر مهم في تطور الفن القصصي واشاعته . أن مفهوم القصة « عند الطبقات العالية وأهل العلم وأرباب الأدب في العراق كان عبارة عن لهو وتسلية . لا يجب أن يلهو بها غير الأطفال والنساء والعجزة . ومع ذلك

---

(٣) صدى بابل عدد ٥٩ سنة ١٩٠٩ .

فقربت من القلوب شيئا فشيئا ، حتى صار يقرؤها كثير من الناس دون أن يجهروا بقراءتها ، وكأنهم يقرون كتبا الحادية أو زندقة أو تجنبا للعار لأنهم يخالونها عبثا ولأنهم يعدونها متعة : وما زال بعض الناس يعتبر قراءة القصص شيئا لا يستحق العناية » (٤) .

وقد اهتمت الصحف الرائدة التي كانت تصدر في العقدين الأول والثاني من هذا القرن بالقصة المترجمة فحسب ؛ وكانت تكتفي بالاشارة الى مصدر الترجمة فتقول انها عن الانجليزيـة أو الفرنسية دون أن تذكر اسم مؤلفها أو عنوانه بل ان المترجمين في كثير من الاحيان كانوا يضعون لها العناوين من عندهم . وتجاوزوا هذا الى محتويات الرواية نفسها . فحذفوا واختصروا مع الابقاء على الخطوط العامة للروايـة.

والذي يلاحظ على هذه التراجم ان اصحابها كانوا يقصدون من ورائها إلى اثارة العواطف الخيرة في الانسان . كما كانوا يغلبون الناحية التعليمية على ما سواها . ويدعون من خلالها الى التمسك بالخصـال الحميدة والدين وحب الخير والعمل من أجل الآخرين هذا جانب وجانب آخر هو أنهم كانوا ينظرون الى القصص على أنها ترويح للنفس من عناء التعب أو تفكهة للعقول بعد الجد . قالت مجلة الناشئة الجديدة « لما كان القارىء أول ما يتعلمه بعد مطالعة المقالات الأدبية والاجتماعية والنبذ المفيدة قراءة الروايات ترويحا للنفس لما فيها من لهو الحديث وحلو الفاكهة عندنا عمدنا الى نشر رواية مستقلة في كل عـدد من

(٤) الهاتف عدد ٦١٧ سنة ١٩٤٩ .

الناشئة الجـديدة » (٥) .

ويذكر الاستاذ محمود تيمور أنه « لم يكن للقصة في مطلع هذا القرن شأن يذكر ؛ إذ كانت على ندرتهـا لا تلقى من الحفاوة ما هي أهله ، فما كان للقصة من مدلول في الاذهان الا أنها أحدوثة أو طرفة أو سمر ، وحسبك دليلا على مبلغ تقدير العصر الماضي للقصـة أن احدى المجلات الرفيعة في ذلك العهد كانت تفرد لبعض القصص المترجمة بابا عنوانه بالخط العريض (فكاهات) ولعل هذا الانتقاص من قـدر القصة هو الذي حمل الدكتور هيكل على أن ينشر قصة زينب بتوقيع فلاح مصري . ولعله لم يجاهر باسمه في ذلك العهد ترفعا عن أن يعده أدباء عصره راوية حوادث وفكاهات » (٦) .

وهذا هو ما ذهبت اليه بعض الصحف الرائدة في العراق فقـد جاء في جريدة صدى بابل « ونعرض أبكار الاخبار ما سيكون عرضة للنواظر وبهجة للخواطر وترويحا للأذهان . وتفكهة العقول بألذ أطايب الروايات وأصحها استنادا » (٧) .

وقوله « واصحها استنادا » عبارة ذات مغزى مهم تضـاف الى ما سبق أن قلناه حول تصورهم للقصة . اذ الظـاهر أنهم ينظرون الى القصة باعتبارها حادثة تاريخية فيها شبه كبير من تصور العرب ؛

(٥) الناشئة الجديدة عدد ١ سنة ١٩٢١ ص ٨ .

(٦) محمود تيمور — فن القصص — ص ٤٧ .

(٧) صدى بابل عدد ١ سنة ١٩٠٩ ص ٤ .

لها ، تشفي النزعة التاريخية الكامنة في محيطنا العربي ؛ أي أنهـــم ينظرون الى الرواية من حيث الحقائق التاريخية ، على نحو ما يظهر في سير الملوك وأخبارهم التي كثرت في الأدب الشعبي . دون التنبيه الى ما هناك من جمال فني في طريقة العرض والأداء واعتبار القصـــة من الفنون الأدبية الجديدة . وهذا بدوره يشبه الى حد ما ، النزعة التي سادت من أول عهد العالم العربي بالقصة . فقد كانت في جملتها قصة تاريخية . كالتي نرى كثيرا منها فيما كتبه جرجي زيدان ، ولرواياته تلك أثر كبير في جذب اهتمام القــراء في العراق الى الفن القصصي فأقبلوا عليها وقرؤها وتذوقوها .

وقد ظهر هذا التصور كذلك بصورة واضحة في الروايات التي كان يترجمها الأب الكرملي . ذلك أنه قد وعد قراء مجلته منذ عددها الاول بأن يهتم بالرواية قال « وسنكتب في كل عـــدد من أعدادهـــا رواية تاريخيه أو خيالية أو خيالية تاريخيـــة معا يكون موضوعها أحد أبناء العرب . أو جرت واقعتها في بلاد العرب . أو لها تعلق بهذهالديار الكريمة أرضا وماء وسماء وسكانا وعمرانا » وفي هذا كله ما يشير الى انهم كانوا يتصورون القصة على أنها أكثر التصاقا بالناحية التأريخية التي ألفها العرب في كتب السير المعروفة . ويبدو هذا أكثر وضوحا في الرواية التي ترجمها الأب الكرملي في العدد الاول من مجلة لغـــة العرب تحت عنوان « أحـــدوثة اسلامية » وقد أتبع هـــذا العنوان بهامش له مغزاه وهو يعلق على لفظة أحدوثة « للافرنج egened

ويريدون بها رواية حكاية يتناقلها الخلف عن السلف : تتعلق برجل كبير الشأن امامة أو قداسة أو فضلا أو شهرة مهما كانت ، وأحسن لفظة تقابلها بالعربية كلمة حدوثة لأنها مشتقة من الحدث ، ويراد بها ما يتحدث به ويتناقله الخلف عن السلف . ومن هذا القبيل الأحدوثة التي عربناها عن الفرنسية وهي عربية النصاب اسلامية السرد حسنة المغزى » (٨) ذلك هو مفهومهم للقصة . سرد حادثة وقعت في التاريخ تتناول شخصية مرموقة . وتمتلىء بالوعظ والنصح والارشاد والتمسك بالخصال الحميدة والعمل من أجل الاخرين . ولم نعثر على نص لهذه الرواية بلغتها الاصليه . والا لاستطعنا من خلال هذا كله ان نعرف الاختصار والعنوان وطبيعة الترجمة .

والرواية المذكورة من حلقتين . كل حلقة في عدد . ننقل الجزء الاول منها « كان في دمشق الشام في سالف الأيام رجل قد اشتهر بالمال والغنى ولاشهرة قارون أو ثروة هارون . وكان الناس يقولون عن مبارك هذا . لقد وافق الاسم المسمى . فان مبارك قد بارك الله في ثروته . وكان بيده كنوز الهند وديار العرب . ويسكن دارا مفروشة بأبهى الفرش وأفخره . وكان الله قد من عليه بامرأة حسناء ذات فضل وفضيلة . وأولاد عددهم عدد نجوم الثريا (أي سبعة) ومع هذا لم يكن الفرح من نصيبه لأنه كان قد بذل معظم همه وراء زيادة زهو بيته . مقتنيا النفائس مزينا بها داخل مسكنه . وكان كلما حصل

(٨) لغة العرب عدد ١ سنة ١٩١١ ص ٢٧ .

على شيء ، طلب شيئاً آخر وهو لا يعلم أين المنتهى ، ولا متى يبلغ موئل السعادة القصوى ، اذ لا يزال في تعب ونصب . وكلما فاز بالمبتغى تولدت في قلبه رغائب كلها غرائب . ومن ثم كان يطوي بساط أيامه وهو يعلل النفس عند النوم بأنه ينال الراحة عند الصباح ، واذا لاح جبين الفجر يقول في نفسه : لعلي أنال المنى عند غياب الشمس وهو لا يعرف ما هذا المنى كما لا يزال على هذا التعليل . والنفس تفيض بالكآبة لا يسليه مسل ولا يضحكه مضحك ولا يستطيب لذة من اللذات . وكانت امرأته ترى هذا الحال فتحزن لحزنه . كما كان أولاده يغتمون لغم الوالد . والجميع من كبار وصغار يفرغون ما في وسعهم وطاقتهم لارضائه أو لتطييب مر أيامه وهو لا يزداد الا تبرما من الحياة وتأففا من العيشة وقد ضجر من هذه الدنيا وما فيها لشبعه منها بل لتخمه . وكان يود ان يموت والموت لا يزداد منه إلا هرباً وبعدا . فسمع ذات يوم أن في بلدة منف من ديار مصر رجل عالم بل حكيم لا بل نبي يستطيع أن يحل أعقد المسائل وأعضلها ويصف الدواء الناجح لأي مرض كان . فعقد مبارك النية على الذهاب اليه واستفتائه أو استشفائه ، فدعا وصيفه مالكا وكان يثق به كل الثقة وأمره أن ينتخب له من ابله أحاسنها وأن يحمل على واحد من نجبها أسفاطا يملؤها ذهبا وفضة ويحمل على مهر آخر أنواع الطيوب . طيوب بلاد العرب ويركب كل منهما مهرا ويظعنان الى منف مقر الوالي العظيم»[٩]

(٩) لغة العرب عدد ١ سنة ١٩١١ ص ٣٧ .

ويدور الشطر الاخير من الرواية حول وفاء العبد لسيده وتجشمه المهالك في سبيله .

وقد كانت الصحف العربية وما فيها من فن قصصي المجال الأول لكثير من أدباء العراق ، حتى ليمكننا القول ان اتصال العراقيين بالثقافة الغربية والفن القصصي انما جاء عن طريق الصحف العربية وبخاصة الصحف المصرية ، قبل أن يتعلم العراقيون هذه اللغات ويترجموا عنها مباشرة . وهذا ما نلاحظه في القصاص العراقي الاول ، الذي يدلنا دلالة لا لبس فيها على أن الفن القصصي العراقي تأثر بالفن القصصي في مصر . وأول من عرف في العراق بالتوفر على هذا الفن هو محمود أحمد السيد . وبه استهلت حقبة جديدة في تاريخ القصة أشار اليها الاستاذ بير روس مدير المعهد الثقافي الفرنسي في بغداد سابقا قال « ان حركة أدبية جديدة تماما تشغل القصة المحل الممتاز تبدو الآن في العراق قوية بحيث لا يستطيع المجتمع الغربي تجاهلها ورفض جاذبيتها ... والقصاص الأول . وهو محمود أحمد السيد ، لم يكن سوى الابن الأمين للمصريين » (١٠) .

والسيد محمود احمد انما تعاطى هذا الفن في الصحافة التي فتحت له صدرها . فوضع اللبنة الأولى ، في صرح البناء القصصي العراقي .

لقد بدأ ينشر قصصه لأول مرة في جريدة العراق البغدادية ، ثم

(١٠) البلاد ــ عدد ٥٢٣٣ سنة ١٩٥٨ .

تحول عنها الى جريدة الاستقلال . وهاتان الجريدتان كانتا تصدران في بداية العقد الثالث من هذا القرن الذي شاهد ميلاد القصة العراقية المؤلفة ، واستمر السيد على ذلك حتى ظهرت جريدة العالم العربي فأولت القصة عناية خاصة ونافست زميلاتها في هذا المجال . ودفعت لكتاب القصة أجورا مغرية استطاع معها أن نغري القصاص الأول ليعمل فيها بالاضافة الى غيره ممن توفروا على تعاطي هذا الفن . كما كانت تنقل عن الصحف المصريه قصصا كثيرة من دون استئذان حتى ن القاريء العادي ليحس وكأن الكاتب العربي قد خصها بهذه القصة أو تلك .

ولم يكتف رائد القصة العراقية بذلك . بل راح يبشر بهذا الفن ويدعو له . ويحض بعض الادباء ممن كانوا يتعاطون فنونا أدبية أخرى على معالجة هذا الفن الجديد . كما اهتم بترجمة القصص الأجنبية الى اللغة العربية . وبخاصة من اللغة التركية التي كان يجيدها . وكان أول من دعا الى الاهتمام بالأدب الروسي . وهو اتجاه انفرد به بين كتاب القصة فيما أعلم . حيث عكفوا في مصر وبعض البلاد العربية الاخرى على الأدبين الفرنسي والانكليزي ، أما القصص التركي فلأنه يمثل أدبا اسلاميا وأما القصص الروسي فلأنه يمثل أدبا شرقيا . قال « انني أرى ان من واجب الادباء عندنا تمهيدا لادخال القصة في أدبنا، ان يعرضوا علينا نحن القراء نقلا أو تلخيصا أو تحليلا نماذج مما شاع وانتشر في الآداب المختلفة وعلى الاخص الشرقية من روسية وتركية

فانها تتفق وأذواقنا ولا تكون بعيدة عن نفسياتنا كالقصص الافرنجية التي أسرف في نقلها كتاب لا يفقهون . وكنت أرغب أن انقل بقلمي من اللغة التركيه بعض القصص الكبيرة فلم أوفق لذلك ، لانني مقصور على اضاعة وقتي الثمين في سبيل الرزق بيد أني اختلست بعض الساعات في أيامي الماضية فترجمت وأوجزت قصصا مختلفة صغيرة نشرت بعضها وأخرت بعضها الى حين » (١١) .

وقد نشر دعوته هذه في جريدة الاستقلال قبل أن يضمنها كتاب الطلائع ، فكان بهذا أول من لفت انتباه الناس الى هذا الفن .

ومحمود أحمد السيد يحدد سلفا وجهة القصة العراقية ، فهو يتصورها على أنها وسيلة يحقق بها الأدب رسالته ، وهي رسالة تشبه أن تكون اجتماعية ، ومن هنا جاءت قصصه تحمل الطابع الاجتماعي الذي دعا اليه صراحه فقال « لا يخفى عليكم ان القصة هي العنصر الأهم من عناصر الأدب العالمي في هذا العصر ، وان واجب كل أديب عربي أن يمارس كتابتها . وانها يجب ان تكون لغاية واحدة وهي تصوير الحياة الاجتماعية الشعبية . لتظهر للعيان الجوانب الكاملة والجوانب الناقصة التي يسعى المصلحون الى اصلاحها » (١٢) .

وكثيراً ما كان يستشهد بطريقة أميل زولا وشيخوف وتولستوي ،

(١١) محمود احمد السيد ـ الطلائع ـ ص ١٠٨ .

(١٢) ن . ف ـ ص ٦٧ .

مما يدل على اعجابه بأدبهم . وعنده ان التطرق الى جوانب النقص في حياتنا الاجتماعية يزيدنا اندفاعا نحو الاصلاح . ولكي يتسنى لنا معرفة الفضيلة . علينا أن نعرف الرذيلة ونشهدها . وهذا ما نلاحظه وهو يعلق على قصته التي تحمل عنوان (السكران) حيث يقول « وهذه القصة ستؤلمكم لأنها صورة من أرذل حياة يحياها نوع من الناس في هذا البلد . الحكيم يقول : لكي تكون ذا فضيلة عليك أن تعرف الرذيلة وتشهدها ولكي تعالج المريض عليك أن تكشف الغطاء عن دائه . وقيل لأميل زولا القصاص المعروف : لماذا لا تنزه قلمك عن تصوير رذائل الحياة الاجتماعية ? فأجاب : نزهوا هذه الحياة عن رذائلها أولا . وبعد فاني أقول : اني احتذيت حذو أميل زولا والكتبة الروس أمثال شيكوف وتولستوي » ولهذا كانت قصته هذه تمثل جانبا قاتما من جوانب الحياة التي يحياها بعض الناس ، تدور حول فتى قروي يهجر قرينه ليعيش في بغداد ذات المظاهر الخلابة والحياة المعقدة . التي تتسم بها حياة المدن الكبيرة التي تغري البسطاء والسذج بمظاهرها ومفاتنها فيقعون ضحية لهذه المغريات ويندفعون في سلوكهم الشائن دون مبالاة . يعاقرون الخمر . ويرتادون بيوت الدعارة حتى تغدو هذه جزءا من حياتهم يقتطعون ثمنها من طعامهم وشرابهم ومع أن بطل القصة هذا مصاب بداء السل ، يحتاج معه الى رعاية خاصة ، فانه لم يبال بشيء من ذلك ، وأخيرا يتعرف هذا القروي باحدى

المومسات التي تقع في شباكه . فلا يلبث أن يستغل هذا العلاقة الى أبعد حد مسكن في الحصول على المال .

أما مسرح القصه فهو « غرفه صغيره من غرف نزل حقير يعد للغرباء في الميدان . كان يحتله قاسم أفندي وهو فتى في الرابعة والعشرين . تنظر اليه فتحسبه لقصر قامته وضخامته صبيا . كان ذات يوم جالسا في غرفته . المائدة من خشب عادي . يدخن . وفوق المائدة زجاجة خمر وزجاجة صودا . وكأس قدرة من البلور يدنيها الى فمه بين دقائق ودقائق فيرتشف منها الخمر بنهم شديد » وهكذا يستمر في وصف الغرفة وأثاثها . وهو وصف دقيق يتحرى فيه عن كل صغيرة وكبيرة . فاذا انتهى من ذلك عاد مرة ثانية الى وصف الفتى « كان لون الفتى أبيض ضاربا الى الحمرة . ينم عن علة مزمنة فيه ، وكان مزهوا فرحا يفكر في هذه الامرأة التي عرفها قبل أسبوعين في المحل العام » . وتنتهي القصة بعد حوار قصير بين بطلها وخادم عشيقته الذي يحمل اليه رسالة منها كلها شوق وغرام .

ومن الذين تأثروا بالسيد محمود في اتجاهه القصصي أنور شاؤل الذي أولى القصة عنايته الكبيرة تأليفا وترجمة وتشجيعا « وكانت تربط السيد بأنور شاؤل رابطة صداقة أحكم الأدب روابطها ، ورغم إعداده ليكون شاعراً ــ وقد كان ــ فقد ألفى نفسه تميل الى كتابة القصة فتأثر أنور بهذه الدعوة وساعده على ذلك المامه باللغة الفرنسية

فأصبح الرائد الثاني » [١٣] .

واذا كان محمود أحمد السيد ينشر انتاجه القصصي في الصحف المختلفة . فان أنور شاؤل أصدر مجلة الحاصد بعد أن كان كصاحبه ينشر قصصه في الصحف العراقية الاخرى .

وأنور أديب كبير يشهد له بذلك انتاجه الأدبي في الشعر والقصة وثقافته حديثة أخذها من مدارس طائفته اليهودية وبها تعلم اللغه الفرنسية . وقد ترجم الكثير من القصص الأجنبية بدأها بترجمة (عشرة قصص من الغرب) كانت مثار الاعجاب في حينها . ضمنها « أربع قصص روسية وخمساً فرنسية وثلاثاً انكليزية وقصة واحدة لكل من ايطاليا وألمانيا وتركيا » [١٤] .

وقد بدأ أنور حياته الصحفية بالكتابة في صحف العاصمة وبخاصةفي جريدة العالم العربي حتى أصدر الحاصد سنة ١٩٢٩ التي يقول فيها : « أجيل نظري متكلما باحثا فلا أجد أمامي سوى صحراء قاحلة اعوزتها الأيدي لتعمل في خدمتها ؛ والمياه تروي عطشها والبذور تنمي فيها الخير العميم فأقف حائرا والمنجل في يدي لأردد قولي : ماذا أحصد ؟ أسنابل ملئى بالغذاء أم عاقولا وعوسجا ؟ في هذه الأيام التي يجتازها

---

(١٣) الهاتف — عدد ٦٢٢ سنة ١٩٤٩ .

(١٤) الزمان — عدد ١ سنة ١٩٣٧ .

العراق محدقاً بالاخطار السياسية جئنا بصحيفتنا الحاصد رغم ما هي عليه في بدء تكوينها تدعو أبناء العراق الى أن يبحثوا عن القوة والحكمة والجمال ... تلك حياتنا الأدبيه ان جار لنا الادعاء بأن لنا حياةأدبية فما قولك فيها ؟ أهي حياة الأدب السامي الذي يدعو الى العظمة والحق والى الحب والفن أم هي حياة أدبيه ضعيمه نكاد لا نشعر بكيانها ولا نسمع لها حفيفاً ، واذا ما استثنينا الشعر شذرات يلقيها علينا بين الموسم والآخر أحد شاعرينا الكبيرين ومقالات تعد على الاصابع ينشرها في فترات متعاقبه بعض عشاق الكتابه فما هي حصيلة الأدب عندنا يا ترى ؟ إنه لخليق بنا أن نعلم ان طموحنا على الاقتصاد في ميادين السياسة . وضربنا صفحا عما عدا ذلك لمن الهفوات التي قد تفضي بنا الى الفشل لأن علينا أن نحرز قصب السبق في السياسة والأدب والاجتماع والاخلاق » (١٥) .

وقد كانت هذه الصرخه بمثابة صيحة الاحتجاج على الأدب العراقي الذي أخذت السياسة بتلابيبه منذ فشل الثورة العراقية ، ومن هنا قصر أنور مجلة الحاصد في حياتها الأولى على الأدب فاهتم بالشعر والمقال والقصة . غير أنها لم تلبث أن تحولت عن هذه الخطة بحكم الظروف وجعل منها مجلة سياسية حتى لا يقع تحت رحمة قانون الصحافة الادبي وقانون الصحافة السياسي .

---

(١٥) الحاصد ــ عدد ١ سنة ١٩٢٩ .

وقد أولت مجلة الحاصد القصة عنايتها الكبيرة وشجعت كتابها ورصدت لهم الجوائز الثمينة عن طريق المسابقات .

ويروج سوق القصة في العقد الرابع من هـذا القرن ، وتمتلىء الصحف بهذا الفن اذ قلما تخلو جريدة أو مجله من قصة أو اكثر وهي قصص ليس فيها غير سرد الحوادث . وتدور أكثرها حول حرية اختيار الزوج أو الزوجة . اما الناحية الفنية فذلك شيء بعيد عنها اذ يبـدو أن كثيرا من الناس أقحموا أنفسهم على القصة دون أن يعرفوا طرائقها الفنيه حتى صرنا نجد تشابها في موضوعاتها وطريقة عرضهـا ، قالت مجلة الحاصد تتهكم من هذا الفيض الغزير من القصص تحت عنوان (من فضلكم) جاء فيـه « أصبحت كتابة القصة موضـة آخر زمان ففلان وعلاّن وفلتان كلهم يسودون الصحائف بالقصص ، وعنـدما يجلسون الى أوراقهم ليكتبوا القصة يملؤونها بالكلام الفـارغ ، وقصصهم دائما تكون لفتاة بوجه مشرق وضاء كالشمس في رابعة النهار وعينين ينطلق منهما (المترلوز) يحبها فتى يجب أن يكـون وسيما كطلعة البدر وهي تموج وتذوب في حبه . ولكن أباها ، ولعنة الله عليه وعلى أجداده يكون دائماً طماعاً شرها يريد أن يزوجها رغم أنفها الصغير من شيخ غني ، هذه القصص قرأناها ألف مرة ومرة ... ياأيها المتطفلون على موائد الأدب أكرمونا بسكوتكم من فضلكم » (١٦) .

(١٦) مجلة الحاصد ـ عدد ١ سنة ١٩٣٥ ص ٨ .

ولم يكن هذا غير تهكم من تلك الصحف التي كانت ترى أن عليها ان تنشر قصة في كل عدد من اعدادها دون الاهتمام بالناحية الفنية، كما أنه يدل من ناحية أخرى على اهتمام القراء بفن القصص باعتبارها من الفنون الأدبية التي تعد عنصراً مهما في الصحافة وقرائها .

وتبقى القصة العراقية موجهة تدور في خدمة آراء معينة يغلب عليها الطابع الاجتماعي ومعالجة قضايا ذات مساس بالجو العام وتقاليد البلاد . وتأخذ قضايا المرأة والمشاكل المتعلقة بحريتها في الزواج والعمل وقتاً طويلاً . الأمر الذى أدى الى وجود مسائل مثل في كثير من هذه القصص . فالأب يحمل عقلية قديمة يتصرف بابنته كيفما يريد ويجبرها على الزواج ممن يريد وحينئذ يقع المكروه تنتحر الفتاة أو تموت غماً وكدراً . دعوة الى أخذ رأي الفتاة في الزواج وهذا ما نجده في قصة جريمة الآباء (١٧) . وينظر أصحاب العقلية القديمة الى المرأة نظرة فيها الكثير من الشك والريبة ولهذا راحوا في كثير من قصصهم يشككون الناس بالحرية وانها تعني الفساد والمجون والعبث ، فاحسان طالب مستهتر له في كل يوم ضحية يلاحق فتاة محتشمة ويغريها بمعسول كلامه . لكن الفتاة لا تلين له في باديء الأمر حتى يخاطبها بلهجة تستشف الفتاة أنه جاد في الزواج منها كقوله لها « ان حديثك ينم عن فضيلة وخلق . إلا أنك فتاة تعوزك المرونة تعوزك مجاراة المدنية ، اطرحي

(١٧) انظر مجلة العالم المصور عدد ٣ سنة ١٩٢٦ ص ١٠ .

عنك التقاليد الشرقية البالية ليس عريباً أن تكوني صديقتي ، اطرحي عنك وساوسك . افتحي قلبك لنسيم الحب العذري ، انا بشر مثلك ولست ذئباً مفترساً » فتلين له الفتاة ولكنها تقول « لا يا احسان أنا واثقة منك كل الوثوق ولكني أخشى . أخشى الفضيحة » (١٨) .

وهكذا يقع المكروه وتنتحر الفتاة . دعوة صريحة الى تقييد حرية المرأة حتى في مجال التعليم .

ولم يكد يحل العقد الرابع من هذا القرن حتى قصرت مجلة الهاتف أكثر نشاطها على الفن القصصي ، تأليفاً وترجمة ، ويعتبر صاحبها جعفر الخليلي رائداً من رواد هذا الفن . فهو قصاص ماهر وله انتاج غزير في هذا المجال . كما اتاح الظروف لظهور مواهب شابة في الأدب القصصي بما كانت تهيؤه لهم هذه المجلة من سبل النشر والتشجيع .

وجعفر الخليلي نشأ في بيت علم وأدب ، تولى غير واحد من أسرته المرجعية الكبرى للزعامة الروحية الشيعية . . كان والده رجلاً فاضلاً وأستاذاً للمنطق ، يتقن العربية والفارسية ، وكان من أوائل المقبلين على ارسال أولاده الى المدرسة العلويةفي النجف وكانت فيمستوى المدارس الثانوية ، (١٩) ثم راح يؤم المكتبات النجفية يقرأ ما فيها من كتب الأدب ودواوين الشعر حتى تهيأت له ملكة أدبية راسخة ، وكان يحضر

(١٨) مجلة الرحاب عدد ١١ ، ١٢ سنة ١٩٤٧ .

(١٩) انظر لمحات عن الخليلي — مسكور الاسدي — ص ٤ .

كثيراً من الحلقات والمساجلات التي يكثر وجودها في هذه المدينة المقدسة ، روى طرفاً منها في مقال كتبه في الراعي قال : « قبل خمس عشرة سنة كنت اذا يمم جانب القبلة من الصحن الشريف في النجف وجدت طائفة من الشيوخ وطلاب العلم قد اختارت كل طبقة منها وكل حزب من أحزابهم مجلساً يجمعهم فيه تقارب الآراء والأفكار أو مبادلة النفع واتحاد الذوق . فتلك حلقة تتحدث في الأدب والشعر ، فتستحسن قصيدة وتستهجن أخرى كان كل هؤلاء الاعضاء من الشبان الذين سئموا حديث الكوفيين والبصريين وملوا سماع الاختلاف بين تميم في الصرف والنحو . ومالوا الى التطور والتكيف بصيغه جديدة في الحديث والرأي والعمل . فلم يكن يدور حديثهم ساعة الفراغ إلا على الجرائد والأخبار والمجلات والمقالات . وكان هذا الشعور مما يحبب اليهم مراسلة الصحف ومكاتبتها بقصد التدريب والتعليم »[٢٠] .

وربما كان هذا هو الذي حبب اليه العمل في الصحافة . فما كانت تغلق له صحيفة إلا ليعود الى اصدار آخرى غيرها . حتى ليمكننا أن نقول ان صحف جعفر الخليلي تمثل الى حد بعيد تطور النهضة الأدبية في العراق منذ بداية العقد الرابع حتى أواسط الخمسينيات ، فهي لا تمقت القديم لأنه قديم ولا تكره الحديث لأنه حديث ، ولهذا جاءت صحفه ملتقى الآراء والمشارب والاذواق فتحت صدرها لكل لون وفن، وأولت القصة عنايتها الكبرى . بل اننا نستطيع أن نقول ان دراسة

(٢٠) مجلة الراعي — عدد ١ سنة ١٩٣٤ .

النهضة الأدبية الحديثة في العراق تبدو ناقصة اذا نحن جردناها من الخليلي وصحفه . فالخليلي أديب صحفي خلق للصحافة والأدب وأولع بهما وكانتا جزءاً مهماً من حياته رغم الصعوبات التي كان يلاقيها ، سأله مرة أحد أصدقائه « لو أتيح لك أن لا تكون صحفياً فماذا كنت تكون ؟ قلت : سأكون صحفياً ... صحيح أن الصحافة في هذا البلد مهنة بائرة كاسدة . احترفها غير أهلها فشوهوها وأنزلوها من عرشها الرفيع . حتى ذلت وهانت . ولكن ما حال المغرم بها والعاشق لها ، وما حال هذا الذي يستسهل كل شيء في سبيل الظفر بها . انه عشق أكثر منه شيء آخر . ولا سبيل الى ايقاف العشق عند حد . وإلا فأي عاقل لا ينتبه الى هذا المصير . وما هي درجة عقل الذي يلدغ من جحر عشر مرات .. » (٢١) .

لقد تحمل بسببها الكثير من الخسائر المادية والجهد الأدبي وكان بامكانه أن يحصل على الرزق من موارد أخرى . غير أن حبه للصحافة والأدب جعله يستسهل كل صعب .

وأول صحيفة أصدرها هي جريدة الفجر الصادق سنة ١٩٣٠ وهي جريدة يومية لم يصدر منها غير ثلاثين عدداً ، توقفت بعدها عن الصدور . ولم يكن يخلو عدد منها من قصة أو أكثر . وكانت أول جريدة اهتمت بأدب المذكرات كالذي أعتاد أن يكتبه صاحب (مذكرات أسير) ولا عهد للصحافة العراقية به من قبل .

(٢١) الهاتف عدد ١٣٨ سنة ١٩٣٨ .

ثم أصدر الراعي سنة ١٩٣٤ وهي جريدة أسبوعية جامعة تناولت مختلف الموضوعات الفكرية ، وفتحت صدرها لكثير من الادباء الشباب كما اهتمت بنقل كثير من الآراء الحديثة لأدباء مصر .

على أن أهمية الخليلي كرائد من رواد النهضة انما تظهر في جريدة الهاتف التي عاشت عشرين عاماً . وسوف نقف عندها وقفة خاصة نظراً لما لها من أهمية في مجال الفن القصصي .

وأول ما نلاحظه من ذلك أن هذه الجريده أنزلت الأدب من مراسيمه وطقوسه في هــذه المديــه المحافظه الى حيث يحيا الناس ويعيشون . وبهذا تكون من الصحف التي ساعدت في القضاء على الاشكال الجامدة التي كان يعج بها الأدب النجفي حينذاك . وعندها أن الادب لا يكمن في تلك الموضوعات التقليديه التي لا تخاطب إلا قلة من الناس . ان الأدب الحق هو الذي يعيش على الارض . ومن هنا راح صاحبها يتخذ أبطاله من سواد الناس بعد أن ينفخ فيهم من الروح الجديدة . وهم بسطاء سذج . دجالون متعودون . يحكى على لسانهم قصه الحياة بأسلوب يلائم الصحافة ومستوى الجماهير الثقافي ، وربما اتخذ من الأساطير وسيلة لعرض آرائه في الحياة كما هو الحال في قصة (السعلى) الحيوان الخرافي المشهور . وهي تدور حول صياد لم يحالفه الحظ لأن يصطاد شيئاً في ذلك اليوم . ومن فرط ضجره رمى بالشبكة الرمية الأخيرة فاذا بداخلها جسم غريب حمله معه الى البلد فاشتراه منه أحد المارة . وتبقى هذه السعلى ثمان سنوات ، حتى اذا أشتد عليها أذى

الأطفال تهرب لتعود مرة ثانية الى البحر . فيعجب أهلها بذلك بعد أن قطعوا الأمل من عودتها . ثم تعقد معهم جلسة تحدثهم فيها عما شاهدته من الحيوانات الأخرى . وهنا تبدأ السعلى في السخرية والتهكم ، تقول « واذا بي أمام حيوان غريب يختلف عنا شكلاً وجنساً . فذيله كائن في ذقنه وهـو ما يسمونه باللحيـة ••• وجئت الى بيتـه واذا بسكانه يختلفون عنا في الخلقة فهناك واحد بلا ذيل أيضاً شكله محبوب يعلق في أذنه بعض الحلقات الصفراء . وفي بعض الأحيان كان يدهشني عملها فقد تذهب الى علبة خاصه وتتناول منها مسحوقاً يشبه الدقيق فتطلي به وجهها وكنت أحسب هذا شيء لذيذ . وقد عملته مرة خلسة عن سكان البيت فلم أجد فيه ما يدل على لطفه ولذته ••• يخرج صاحب الذيل من البيت صباحاً فاذا هم بالخروج جاء الشخص المدعو بالمرآة تملى عليه الأوامر : اليوم يجب أن نشتري لحماً ونشتري طماطة ونشتري قرعاً وباذنجاناً . ولا تنسى أن تجيء لنا بالسمن . ولا يجيب بغير الايجاب ثم يأتي دور الصغار ••• وبعد ساعتين يأتي ومعه كل ذلك فتصرخ المرآة بالرجل : ها انك لا تزال تأتينا بالفاسد من المأكول فهذا اللحم رديء يجب أن يرد ••• وفي بعض الأحيان يكون الرجل كالأسير الذي يقوم بهذه التكاليف مرغماً ولا يستطيع أن يرفض هذه الاوامر التي تملى بها المرأة والاطفال • فأعترضت هنا احدى السعليات وقالت : لم لا يفر هذا أو يهرب ما دام بامكانه أن يخرج من البيت • قالت : انه مقيد بقيود غريبة لا تدعه يفلت من هذه الأيدي ، اما قيوده فلا

تزيد عن كلمة بابا يفوه بها الصغار . فهذا البابا هي التي تغريه على العودة الى الدار . أو هي القيد الثقيل الذي لا مناص منه . فقالت السعالي : انه أحمق . أحمق لله ما اكبر غباوة هذا الانسان » [٢٢] .

والخليلي يرى أن كل شيء في هذه الحياة صالح لأن يكون موضوعاً للكتابة . وأن الكاتب هو الذي يضفي على موضوعه صفات الحركة والبقاء والتأثير . حينما ينفخ فيه روحاً جديدة .

على أن اكثر قصصه يغلب عليها الطابع الصحفي مع ما يتضمنه من نقد اجتماعي . وهو أيضاً ما يظهر عند كثير من كتاب القصة في مجلة الهاتف اذ كانوا يؤثرون عرض الحوادث والآراء أكثر من اهتمامهم بالناحية الفنية .

ولم يقدر لصاحب الهاتف البقاء على خطته هذه فحولها الى جريدة سياسية وانتقل بها الى بغداد . ثم أغلقت سنة ١٩٥٥ طبقاً لمرسوم المطبوعات الجديد فكان مجموع عمرها يقارب العشرين عاماً بعد أن صنعت للأدب في وادي الرافدين ما صنعت سنوات طويلة على ما ذكرت مجلة الثقافة الفرنسية [٢٣] .

وظهرت بعد ذلك صحف أدبية كثيرة أولت القصة عنايتها منها مجلة : المجلة والثقافة الجديدة والكاتب والملاحق الأدبية لبعض الصحف اليومية إلا أن أكثر قصص هذه الصحف كان يدور حول

---

(٢٢) الهاتف عدد ١ سنة ١٩٣٦ .

(٢٣) انظر لمحات خاطفة ص ١٤ .

الموضوعات السياسية التي أوغل فيها الكتاب والشعراء على اختلاف مذاهبهم واتجاهاتهم . وأبرز كاتب ظهر في هذه الفترة هو ذو النون أيوب الذي كان ينشر قصصه في الصحف العراقية المختلفة وفي مجلة المجلة الموصلية . وهو من الكتاب الذين تشيع في قصصهم معاني الحرية والديمقراطية (٢٤) .

---

(٢٤) ظهرت دراسات اخرى فى القصة قبل طبع هذا المؤلف منهـا (القصص في الادب العراقي الحديث للاستاذ عبد القادر حسن امين وفن القصص العراقي المعاصر) للدكتور علي جواد الطاهر وكتاب (نشأة القصة وتطورها في العراق) للاستاذ عبد الاله احمد فمن اراد المزيد فعليه بها .

الباب الرابع

الصحافة والشعر

الفصل الاول

التجديد فى القصيدة العربية

تحاول الصحف جاهدة رضاء قرائها بما تهيؤه لهم من معين فكري متنوع يلائم أذواقهم وعقولهم . والشعر من هذه الناحية ضرورة ملحة لكثير من الصحف . وبخاصة تلك التي يغلب عليهـا الجانب الفكري والأدبي . وربما يصل الامر الى حد التنافس فيما بينها لكسب هذا الشاعر او ذاك الى جانبها ، وقصة تنافس جريدتي الاهرام والسياسة المصريتين على المرحوم شوقي غير بعيدة عنا ، فالصحافة من ناحيتهـا تريد أن تكسب أكبر عدد مسكن من القراء ، وهؤلاء يقبلون عـلى الصحيفة التي يجدون فيها ما يغذي أرواحهم وعقولهم ، وبهذا تكون الصحيفة قد قامت بعملية مزدوجة الى حد بعيد وخاصة بالنسبة للشعراء الناشئين الذين يريدون أن يشقوا طريقهم الى الحياة الادبية الواسعة ،

فهي وسيلة من وسائل التعريف بهولاء الشعراء ، تكشفهم ومن ثـم تقدمهم الى قرائها . وبهذا تضيف الى قائمة الشعراء الاخرين شاعرا جديدا يستطيع آن يثبت وجوده كرائد من رواد الفكر والادب .

فالصحافة منذ وجودها — ما زالت — السبيل إلا مثل الى ديوع كثير من الشعراء وتعريف القراء بهم . بل ان شهرة الشاعر رهن بقراءة الصحيفة . وهناك فرق بين شاعر وجد فبل ظهور الصحافة وآخر وجد بعد ظهورها ، فالشاعر القديم كان يخاطب صفوة من التاس يوقف أدبه في سبيل خدمتهم . وهو بهذا يعبر عن مرحلة فكرية وثقافية معينــة . أما الشاعر الحديث فصار يخاطب ملايين الناس في بلده وربما في غير بلده فان فهمه الناس ووجدوا فيه انفسهم ربح الشاعر وصـــار جزءا منهم يبحثون عنه آنى وجدوه والا كان شيئا آحر .

فالصحافة منذ وجودها — وما زالت — السبيل الأمثل الى ديوع في صالح القصيدة الشعريه من الناحية الفنية ؛ لان الشعراء أنغمسوا بالصحافة وأصبحوا اسرى بريقها الوهاج الامر الذي انساهم أنفسهم فلم يعودوا يعنون بالفن لذاته ؛ وانما صاروا يجولون في دوامة هده الاحداث المتغيرة ولا يكادون يبتعدون عنها . بل لقد تحولت القصيدة الى مقال صحفي ، سارت معه في نفس الاتجاه ، فكانالشعراء كاخوانهم من الكتاب يستجيبون بسرعة لهذه الحوادث المتغيرة ، حتى ان الذي يتمعن في دراسة الصحافة العراقية يلاحظ تعادلا في هذا المجـال رغم اختلاف طبيعة الفنيين وطريقة تناولهما لهذه الحوادث ، وليس العنوان

في القصيدة الحديثه عبر اثر من آثار هذه الحوادث المتغيرة التي رأيناها في المقال الصحفي .

فالموضوعات التي عالجها المقال في الصحافة العراقية هي نفس الموضوعات التي عالجتها القصيدة الشعريه في الصحافة العراقية . بل ان القصيدة ذاتها تحولت الى مقال منظوم لبس فيها ما يميزها غير هذا الوزن وتلك القافية التي تلحق بآخرها وسوف يبدو لنا هذا واضحا بصورة عملية بعد قليل ونحن ندرس اتجاهات القصيدة والموضوعات التي عالجتها . اما ما ذكره الاستاد منير بكر في كتابه (الصحافة العراقية واتجاهاتها السياسية والاجتماعية والثقافية) حينما جعل القصيدة رائدة للمقال في الصحافة العراقية ، وأن مهمة المقال هي شرح هذه القصيدة أو تلك ، فليس له سند من الواقع يؤيده . قال الاستاد منير « فاذا ما حدثت في المجتمع حالة سياسية انبرت القصيدة للخوض في هذا الموضوع ، وتهافت الشعراء على نظم ما يبرز هذه الناحية واذا ما حدثت حادثة اجتماعية قامت القصيدة للتعبير عن ذلك على صفحات الصحف . ثم يأتي دور المقالة بعد ذلك معلقة وشارحة ما تهدف اليه القصيدة . من هذا يتضح أن القصيدة في الصحافة العراقية كانت أقوى تعبيرا وأعمق تأثيرا من المقالة » [1] .

وعبارته الاخيرة (من هذا يتضح ...) توحي للقاريء ان الاستاذ

(١) منير بكر — الصحافة العراقية واتجاهاتها السياسية والاجتماعية والثقافية — ص ٢٢٤ .

المذكور استطاع أن يصل الى حقيقة علمية من خلال أمثلة عملية توصل اليها بعد البحث والاستقراء حتى وصل الى هذه النتيجة الحاسمة . في حين لا يدل واقع الحال على وجود شيء من ذلك ، فالباحث لم يكلف نفسه عناء البحث عن حقيقة اعتقد جازما أنه توصل اليها . وليس في الصحافة العراقية شيء يشير الى ذلك البتة كما أن المنطق يرفض هـذا الزعم ويأباه . ولو كان الامر كذلك لتحولت الصحافة الى مجرد شعر، ولأصبحت وظيفة الكتاب في أن ينتظروا ما يقوله هذا الشاعر او ذاك ومن ثم يأتي دورهم كمعلقين وشراح ويكتفون بهذا فحسب .

ان أبسط الناس يعرف جيدا ان قراء الصحف ليسوا على مستوى ثقافي واحد . واننا لكي نفهم القصيدة الشعرية نحتـاج الى مستوى ثقافي وفكري اكثر مما قد نحتاجه لفهم مقالة نثرية حتى ولو تشابه غرض المقالـة مع غرض القصـيدة .

وفي كثير من الاحيان يتعذر علينا ان نعثر على قصيدة واحدة في اعداد كثيرة من صحيفه بعينها ، فهل معنى هذا ان صاحب الجريدة يجب ان يغلق صحيفه او يتفرج على ما يجري حونه لانه لم يجد قصيـدة يعلق عليها . ؟

اننا لا نستطيع ان نتصور في يوم من الايام ان تتحول المقالات الافتتاحية الى قصائد شعرية فيها الكثير مما يريده الناس عن هـذه الحوادث المتغيرة بين لحظة وأخرى والصحافة العراقيه ذاتها هي خير رد عملي على هذا الرأي وذلك منذ صدور الزوراء حتى آخر صحيفة

صدر في العراق . ومن منـا يستطيع أن يأمر شاعرا بعينه لكي يقول قصيدة في كل وقت وفي كل حادثة . فاذا اضفنا الى هذا كله ان جل الشعراء الذين يعيشون في الفترة التي درسها الاستاذ المذكور هم من الشعراء الذين أصطلح الناس عـلى تسميتهم بالشعراء الكلاسيكيين أدركنا خطل هذا الرأي ومدى بعده عن الواقع .

فالقصيدة الشعرية اذن ليست طليعة للمقال في الصحافة العراقية أو غير العراقية ، كما لا يمكن ان تكون المقالة ذيلا تابعا للقصـيدة الشعرية همهـا الشرح والتوضيح . ذلك أن الحـوادث التي تؤثر في الكاتب هـي نفسها التي تؤثر في الشاعر . ومن ثم يعبر كـل منهما بطريقته الخاصة أو باسلوبه الخاص .

ومن ناحيتنا كقراء فاننا نحتاج الى كليهما . مع ان الاثر الـذي يمكن ان تتركه هذه القصيدة أو تلك المقالة يختلف بالنسبة لميولنـا وأذواقنا وتكويننا الفكري والثقافي .

وليست الصحيفة سوى وسيلة ثقافية عامة تلتصق بحياة الجماهير أكثر من أي شيء آخر . وهؤلاء يختلفون في ثقافاتهم وأذواقهم ، فمنهم من يتذوق الشعر ويعجب به . ومنهم من لا يوليه تلك العناية المهمـة وحتى هؤلاء الذين يقرؤن الشعر أو يتذوقونه يختلفون في مـــدى الفائدة التي تترتب على هذه القراءة . لقد تركت الصحافة آثاراً بعيدة المدى على اللغـة والأسلوب . فمن غير المعقول أن لا يتأثر بها الشعراء

في أساليبهم وموضوعاتهم (٢) .

ويبدو أن هذه النظرة جاءت كنتيجة طبيعية لتفسير الشعر تفسيراً تاريخيا متعلقا بالحوادث الاعتيادية اليوميه . مع أن للشعر لغة خاصة تختلف عن لغة النثر . فقائل اللغة العاديه يعرف جيدا أن الفاظه تتحول الى افعال محسوسة اكثر ما تكون التصاقا بحياة النـاس عن طريق الدلالات الكامنة فيها لانها تعبر عن المعايير والاعراض العمليـــة . أما الشعر فان له لغة خاصة به والا كان عبثا لا طائل منه . فليست مهمة الشاعر في أن يعبر عن الامور العمليه التي يحيـاها الناس حيث هي ليتحول بعد ذلك الى ما يشبه التاريخ ويبقى يدور في هذه الحلقـــة التي لا أول لها ولا آخر .

اننا بهذا نصرف الشعر عن منزلته التي وجـد لها الى متاهات معوجة من الحوادث المستمرة .

أما أحكام الجمهور فلا يمكن الالتفـــات اليها من هذه الزاوية لانهم ينظرون الى الشعر نظرة خاصـــة يأخذون منه ما يريدون حتى

(٢) لقد فطن الى هذه النقطه الاستاذ الدكتور عبد اللطيف حمزه في المقدمة التي كتبها للاستاذ منير بكر في كتابه المذكور . جاء فيهـــا : « انني اخالفه في نقطة واحـــده وهو انكاره ما للصحافه على القصدة الشعريه في كل اتجاهاتها ، وعندي ان الشعراء كانوا ينظمون اشعارهم في نفس الاتجاهات التي كان الكتاب يكتبون فيها مقالاتهم هذا فضـلا عن التغير الواضح في الالفاظ والاساليب الشعريه بتاثير الصحافه فقد كانت هذه الاساليب مخالفة كل المخالفة لالفاظ الشعراء القدماء » .

اذا اعترضت سبيلهم فكرة لا قدرة لهم على تصورها نبذوها دون ان يبحثوا عن السبب . هم يهربون من الشعر الذي يحمل في ثناياه افكاراً عميقة لانهم غير قادرين على تصورها . الامر الذي يضطرهم في الحكم على قصيده بعينها بمقدار ما فيها من أبيات هي بمستوى نظرهم . بل وربما كانوا عاجزين عن ايجاد صلة بين اجزاء القصيدة الواحدة مع ان قيمة البيت لا تظهر الا في هذه الصلة ذاتها .

لقد أدخل الكثيرون من الباحثين القدماء والمحدثين في الشعر أمورا ليست منه وشوهوا محاسن وجهه . كل ينظر اليه من زاويته الخاصه والميدان الذي يجول فيه .

يقول الدكتور لطفي عبد البديع في مقدمه كتابه التركيب اللغوي للادب « لقد ارهقته البلاغة بمنطقها الصوري الذي فتنت فيه الحقائق الشعريه وأغرقه طوفان التاريخ والجغرافية في متاهات السهول والجبال والعصور والاجناس والتوى به علم النفس الى غير غايته . وافضى به علم اللغة والنحو الى طريق مسدود ثم توزعته الأهواء فلم تصح فيه قضية ... واذا قيل لهم ان البشرية تتلمس في شعر شعرائها اصواتها الخالدة التي تتجاوز حدود الزمان والمكان هز كتفيه وقال : وجهة نظر لها عندنا ما يعدلها في أبواب العلوم والمعارف »[٣] .

ان الشعر لم يفقد قيمته الروحية الا حينما نزل الى مستوى هذه الاحداث ليتحول الى مجرد مقطوعات منظومة تعكس عصراً بعينه لا

---

(٣) انظر مقدمة التركيب اللغوي للادب للدكتور لطفي عبد البديع .

نأى عن هذه الحوادث العابرة التي تظهر بين لحظة وأخرى . وسوف يبدو لنا بعد قليل كيف أن كثيرا من الشعراء العراقيين انهمكوا في زحمة هذه الاحداث ليأتي شعرهم بعد هذا أكثر تعبيراً عن تطور الاحداث السياسية والاجتماعية في العراق منه الى شيء آخر .

ولكن نعطي صورة صادقة عن الشعر في صحافتنا العراقيه علينا أن نتذكر ما سبق أن قلناه في الفصل الثاني من الباب الاول . من وجود اتجاهين ثقافيين يتمثل أحدهما بالثقافة العربيه الأصيلة التي وجدت مكانها في الجوامع والمدارس الملحقه بها . واتجاه آخر تأثر بما كان يجري في البلاد العربية المتقدمه أو في عاصمة الدولة العثمانيه . وهو اتجاه ثقافي حديث تأثر به العراقيون فظهر دلك على اتجاههم الادبي .

لقد ترك هذان الاتجاهان آثرهما على القصيدة العربية التي ظهرت في الصحافة . بل اننا لنلاحظ غلبة القصيده العربيه التي تنحو منحى تقليدياً على الصحف التي كانت تصدر قبل الحرب العالمية الاولى . وبعبارة أوضح غلبة الاتجاه الذي ما زال يعيش كما لو أنه وجد في القرن التاسع عشر .

أما الاتجاه الآخر والذي تأثر بالتيارات الفكرية الحديثة فانه حافظ على الشكل الهندسي للقصيدة العربية ولم يغير إلا في الموضوعات فحسب . وهؤلاء هم المجددون على رأي بعض مؤرخي الادب العربي الحديث .

لقد احتفظت الصحافة العراقية بهذين الاتجاهين في وقت واحد ،

فقــالت عن الشعر الدى يهتم بالموضوعات الجديدة ويراعي أحوال العصر ، انه شعر عصري . تمييزاً له عن الشعر الذي لا يعير هــذه الموضوعات اهتمامه .

أما ما دهب اليه البعض من تعميم حينما اعتبر الشعر العراقي حتى نهاية الحرب الأولى سسرارا لحا ة الشعر في القرن التاسع عشر ، فليس له نصيب من الواقع . لأنه نسى الموضوعات الحديثة التي طرقها بعض الشعراء . وحكمهم هدا مبنى على أساس انعزال العراق عن العالم الخارجي حتى هده الفترة المذكوره . وهدا ما اثبتنا خطله في فصــل سابق . كما ان الصحف العراقيه التي كانت تصدر في بداية هذا القرن حفلت بالكثير من شعر الرصافي والزهاوي وغيرهما ممن كانوا ينحون منحى عصريا (٤) .

أن مسألة القديم والجديد في الشعر العراقي ، تلك التي شغلت الصحافة زمناً طويلاً مسألة ولدها التطور الذي طرأ على الحياة العربية،

---

(٤) ومن اصحاب هذا الرأى الدكتور يوسف عز الدين حيث ذكر في كتابه (الشعر العراقي المعاصر) ما نصه « هده الثماني عشرة سنة من حكم الاتراك في العراق لم تكن الا استمرارا لحالة العراق في القرن التاسع عشر وتكاد تكون جزءا لا يمكن سره عنه .. والاسلوب الذي سار عليه الادباء هو نفس منهج القرن التاسع عشر . العناية باللفظ عناية تخرجها الى حد البرونق الممجوج الذى يمله النفس . اضافة الى الموضوعات التي طرقها الشعراء كانت موضوعات تافهة يبالغ فيها الى حد الاسفاف ولاسيما في المديح والرثاء » .

بير ان القديم ــ وهذا امر طبيعي ــ لا يمكن القضاء عليه بجرة قلم، والحرب التي أعلنت عليه لا تبررها ظروف البلاد ومقدار حظها من الثقافة الحديثة . مع ان هذا القديم يمثل حركة فكرية لها دورها . ولعل اصحابه لم يجدوا في هذه الحياة الجديدة ما يمكن أن يغريهم بها •

والنهضة ما زالت في بدايتها . وتغيير ما تعارف عليه الناس بهذه السرعة أمر ليس باليسير •

لقد حملت الصحافة وكتابها حمله شعواء على كل شعر يسبق فترة الدستور . ووصفته بأنه شعر تقليدى يحمل طابع التشابه في اغراضه وفي صنعته . وان اصحابه كانوا يعيشون في غير عصرهم، ومع ما في هــذا من تحامل كان من أثره على المدى البعيــد تهيئة جيــل من الشعراء استمروا يعكسون الحوادث المتغيره فحولوا الشعر من مجرد فن جمالي الى مجرد وسيلة من وسائل الدعايه والاعلام لخدمه هذه الفكرة او تلك . حتى اننا نستطيع أن نقول ان الموضوعات التي طرقها شعراء ما قبل الدستور كانت اقرب الى الموضوعات الشعريه من تلك التي طرقها الشعراء العصريون . والتي أصبحت مملـه بعــد ان تناولتها أيدي كتاب المقــالة وكتاب القصــه بالاضافة الى القصيده الشــعرية •

أما مسألة الصنعه . هذه النغمة التي يرددها الكثيرون ممن درسوا شعر ما قبل الدستور . فلا تعدو أن تكون تقصيرا من جانب واحــد حينما نردد احكاما ارتجالية لا تعبأ الا بالظواهر يرددهــا الخلف عن

السلف كحقيقة مسلم بها .

ليس الادب مسألة تافهة حتى يشغل الشاعر نفسه بتجميع هذه الزخارف يلهو بها ويضحك منها على نفسه وعلى الآخرين . وقديما قالوا عن أبي تمام هذا الفون مع أن للرجل عبقرية تحتاج الى دراسة خاصة لكي يعرف الآخرون من هو أبو تمام .

فنحن لا نسلك الحق في ادانة فترة كاملة بما فيها من ادباء ونجردهم من صفة الشعور بالمسؤولية لمجرد وجود سمات معينة في القصيدة .

أدباء الفترة المظلمة — كما سموها — لم يكونوا مغرمين بهذه الصنعة لذاتها . انهم يعيشون في عصر غريب . ليس فيه ما يغريهم به . وفي كثير من الاحيان يظهر شعراء يلهون بهذه الاشكال وهم الى هذا كله يقصدون حسب لا يجدون في عصرهم ما يستحق ان يعيشوا له، فيكون عندهم من خلال هذا كله نظرة خاصة فيها الكثير مما يعبر عنهم ويعبر عن عصرهم ذاته وبهذا يستطيع الباحث أن يعتمد على هذه الظاهرة الغريبة في دراسة العصر والاتجاهات المختلفة فيه .

أدباء ما قبل الدستور متشائمون . وهذا ما يبرره انهم لم يروا في هذه الحياة التي يحيونها ما يدفع عنهم هذا التشاؤم فعاشوا لأترابهم وليس التشاؤم غير احساس نحو حياة أفضل ولكن لا قدرة لهم على ذلك . هم يحسون أنهم عاجزون ويحسون أنهم متخلفون ويحسون أن في نفوسهم عالما قائما في ذاته يريدون ان يحققوه دون جدوى ، انهم غير قادرين على ان يحدثوا تغييرا فالظروف المحيطة بهم أقوى منهم ،

ومن هنا راحوا يبحثون في دخيلة أنفسهم عن كل ما يسد هذه الثغرة، وحينما لم يجدوها في عصرهم . وجدوها في حياة العرب الاولى . فاستلهموا الماضي وأعجبوا به . وذهبوا الى حد تقديسه ، وجعلوا منه مثالا يحتذى في كل ما يقولون . ذلك هو منتهى الاحساس والشعور بالمسؤولية وهو لا يخرج في اصطلاحنا الحديث عن الادب الثوري . ونحن لكي نحث الآخرين على الثورة قد لا نستعمل الاسلوب المباشر لما قد يكون فيه من محاذير . ولهذا نختار طرقا آخرى ربما تكون اكثر فاعلية من أسلوب الزجر والحث . واحدى طرق الوعي والحث لتغيير حالة من الجمود الى الحركة هي التاريخ. والتذكير بهذا التاريخ ومافيه من امجاد . والعرب صفات معينة في آدبهم تعاطوها أيام قوتهم وصولتهم فلا بأس من اعادتها اليهم أيام ضعفهم ففيها ذكرى تنفعهم لتحدث حالة من التغيير نحو الأفضل .

وفوق هذا وذاك فهم يعيشون في بيوتهم آو في مساجدهم . ومعنى هذا أن غذاءهم الفكري واحد لم يتبدل أدب عربي صميم وعلوم دينية أو شرعية ولا شيء غير هذا . وحتى هذه قد لا تكون متوفرة الى ذلك القدر الكافي بحيث يسهل تناوله وتداوله . كما ان الطباعة لم تنتشر بعد ، ولذلك فهم معذورون وما جاء منهم ففيه الكفاية .

لقد حفلت الصحافة العراقية بنماذج كثيرة من هذا الشعر ، وبخاصة في الربع الاول من هذا القرن ، لتدل على أن رواده كثيرون وعلى أن قراءه كثيرون . وهذه ظاهرة أخرى تستحق الاهتمام في وقت

فنحت فيه أبواب العراق على العالم الخارجي المتقدم ، الامر الـذي يجعلنا نعتقد أنهم ما زالوا يعيشون في عالمهم الخاص وأنهم لم يروا في هذه التبدلات سوى مظاهر خادعة ليست لها تلك القوة التي تغريهم بها ليعيروها اهتمامهم . فأوضاع البلاد ما زالت تئن تحت وطأة دخيل حيث كانت يريد أن يستل روح هذه الأمة ومقدساتها . ولهذا فلا داعي لأن يعيروا اتجاههم . ومن هذا الشعر نأخذ المقطوعة التالية التي نشرتها مجلة لغة العرب :

يا ربـة الخلخـال والبرقـع ... أوعي لمـا أقولـه واسمعي

فان حـلا لك القـلى مـرة ... وغرك الواشي بمـا يدعي

كنت بأيام الصـبا غـادة ... فهـل لأيامك مـن مرجـع

عودي الينا بعـد فرط الجفا ... كالشمس مذ عادت الى يوشـع

قفي وطلي دمعـة عنـدما ... على طلول العرب والاربـع

واستنطقي الاحجـار عنهم أما ... جنوبهم ملت من المضجـع (٥)

هـذه المقطوعة . من الشعر التقليـدي على رأي بعض مؤرخي الادب لمجرد وجود ألفاظ معينة كالخلخال والبرقع والاطلال والاربع وغيرها من الألفاظ التي يجعلونها قاصرة على العهود القديمـة ، اننا لا نستطيع أن ننظر الى هذا الشعر من هذه الزاوية ، فالشاعر هنـا يخاطب ذلك المجد الذي هجر هذه الربوع منذ أمد بعيـد ويناشـده أن يعود بعد هذا الجفا الطويل ، انه يتذكر تلك الايام الزاهرة أيام

(٥) لغة العرب عدد ١٠ سنة ١٩١٤ ص ٥٠٥ .

الصبا يوم كانت امته عزيزة الجانب ترفل بالعلوم والمعارف فعم خيرها مختلف الأصقاع . حتى اذا كان هذا الواشي وكان هذا الغريب هوت الأمة في حالك الظلام . لتتحول تلك الحضارة الأصيلة الى مجرد معالم تنطق بها وأطلال تنبيء عنها . فاذا انتهى الشاعر من هذا كله تحول الى تاثريحث قومه ويبعهم من هذا الرقاد الذي ملت منه حتى المضاجع فلماذا لا يكونون مثلهم اذن وهم ورثة تلك الحضارة وذلك المجد .

ان هذه الزمرة من الشعراء ارادت احياء الأمة عن طريق بعث أمجادها . ووسيلتهم الى ذلك انما تكمن في حياتهم للرموز اللغوية القديمة التي كثر تداولها أيام مجد العرب . يقول الاستاذ الدكتور لطفي عبد البديع في كتابه الشعر واللغة وهو يتحدث عن دور البارودي في هذا المجال « ونحسب ان التقدير الصحيح لصنع البارودي ينبغي أن يتجه الى لغته الشعرية . ولم يكن عمله في هذا الباب الا احياء للرموز اللغوية القديمة التي عرفتها العربية في عصورها الزاهرة ...»[٦]. وهذه هي سبيل الشعراء الذين يوصف شعرهم بالشعر التقليدي .

ليست الصحيفة من السذاجة بحيث تنقل شعرا لا يستسيغه الناس ولا يقبلونه ، ان كثيراً من القراء ما زالوا يجدون في أمثال هذه النماذج مثلهم العليا . ففيها ما يشبع تطلعهم الى العظمة التي افتقدوها منذ زمان .

ويبقى هذا الشعر يلح على القديم ، حتى وهم يصفون المظاهر

(٦) الدكتور لطفي عبد البديع ـ الشعر واللغة ـ ص ١٠٢ .

المادية الحديثة . هم يستلهمون الماضي ويقدسونه مع انهم يصفون الاختراعات العصرية التي هالتهم بدقة صنعها وتركيبها . بل أنهم ما انفكوا يعلنون بين آونة واخرى ان هذه الاختراعات وهذه الحضارة الجديدة لم تكن إلا حضارة آبائنا وأجدادنا أخذوها عنا ليعيدوها الينا ، وفي الوقت الذي قعدنا نحن . بهواهم سائرون . لننظر الى هذه القصيدة التي يصف فيها صاحبها القطار . وكيف جعل منه وسيلة لان يتذكر فيها أيام عز العرب ومجدهم . بل ويعقد مقارنة بين هذا الاختراع الحديد . وبين الابل التي نفاخر في الصحراء . ويشبه سرعته مرة بقطيع من الغزلان ومرة أخرى بالنوق المراسيل دون ان ينسى الغزل . هذه الظريفة المألوفة في شعرنا العربي القديم . قال الشاعر :

أنفت ان تمس وجه الصعيد فتغشت محجة من حديد

وغدت تنهب السباسب ركضا فغدا للقريب كل بعيد

كلما هزها الى السير شوق أخذت في الحنين والتغريد

فهي طورا ضئر أضلت فصيلا وهي طوراً كقينة ذات عود

وهي حينا ذات الخلاخل خود وأوانا كراسف في قيود

فكأن الغناء والصدح والبغـ م روته والبأس عن داود

كلما أنحل المسير قواها جددوها بالنار ذات الوقود

لو تبارى النوق المراسيل فيها ساريات من غيب وشهود

لأرتها في ساحة السبق ممشى عرش بلقيس في يد التأييد

وأرتها بساط ريح سليما ن عيانا محشداً بالجنود

ورشا يفصح العيون بصـــد   وعزال النقـا بعين وجيـــد
من نحيـــل الاعطـاف يهتز فسرا   عطفه لاضطراب ورد الخـدود
مثـل سرب القطا تجر فضـارا   نظمته الأسلاك نظم العقـود
ان نشب من بأسهـا نرجف الارض   حـذارا منها فيا أرض ميـدي
واذا نوديت بهـا لا امتـلاك   فناديهم بهـل من مزيــد
عودتها عليــه حكـمـه (وطـ)   ياعميدا فديتــه من عميــد
ذاك علامهـا اماه هداهـــا   عـلم سرد بعـير نديـد [٧]

ومع أن الشاعر يصف آلة حديثة فانه لم يستطع أن يتخلص مما هو كامن في ذاته ويعيش معه . فكانت الناقة والغزلان . ليعكس بهما وبغيرهما ثقافته وروحيته وهذا ما لا حظناه وهو يكثر من ترديد بعض الآيات القرآنية . في عدد غير قليل من أبياته . ولا مجال بعد ذلك لأن نحكم بالصدق والكذب على هذا الشعر لأن المسألة مسألة خلق فني ؛ فللشاعر عالمه الخاص الذي يتصوره هو لاما يتصوره الآخرون .ويستمر هذا الشعر حتى الحرب العالمية الثانية رغم ما أصاب البلاد من تطورات مختلفة في مجالات السياسة والثقافة والفكر بفعل اتصال العراق بالثقافة الحديثة ونشوء المدارس والكليات المختلفة . إلا أن أهميته تبدأ بالخفوت بعد العقد الرابع من هذا القرن بفعل تناقص أصحابه من الشيوخ لينشأ بعدهم جيل من الشباب تلقى دراسته في هذه المدارس الحديثة التي وجدها ميسره له فتأثر بها ولم يعد يهتم بهذا الشعر بل صار ينظر اليه

(٧) لغة العرب عدد ٦ سنة ١٩١١ ص ٢٠ .

نظره أخرى فيها الكثير من الأزدراء .

ذلك جانب واحد من الشعر اهتمت به الصحافة . والى جانبه لون آخر يسمونه بالشعر العصري . اهتمت به الصحافة واحتضنت أصحابه واحتفت بهم أكثر من احتفائها بالشعر الذي ذكرناه . منذ العقد الاول من هذا القرن . وسوف نقف عنده وقفه خاصة لما للصحافه من أثر على هذا الشعر .

ولعل أول ملاحظة يراها الباحث وهو يقارن بين هذين الأتجاهين هي أن الشعر القديم أقرب الى روحية الشعر من هذا الشعر الذي لا يعدو في كثير من الاحيان عن وصف ظاهري حسي ليس فيه ما يميزه عن الكلام العادي سوى هذا النظم الذي فيه .

ويبدو أن الموضوعات التي طرقها الشعراء العصريون هي العلامة الفارقة بين كون الشعر قديما تقليدياً وبين كونه حديثا عصريا ، أما الناحيه الفنيه فلم تكن في الحسبان فالزهاوي والرصافي . هذان الشاعران اللذان شغلا الصحافه منذ اعلان الدستور العثماني حتى الحرب العالمية الثانية . هما شاعران عصريان لأنهما تناولا موضوعات حديثة ذات مساس مباشر بالحياة العصرية . كما يقولون ، ولكنهما مع هذا لم يتخلصا من القديم بالمرة كما كانا يدعيان بل اننا لنجد في شعرهما ما يدل على القديم بعينه وهذا هو الزهاوي يفتخر على طريقة الاقدمين .

انني اليوم شاعر   وبشعري أفاخر
أنا في الشعر أول   أنا في الشعر آخر

آنا كالصبح صـــادق   آنا كالبحر طاهــــــر
لست آخشى سريرني   يوم تبــلى السرائر (٨)

ويقول الرصافي :

الشعر متنفر مني لمبتكر   ولست للشعر في حال بمفتقــر
دعوت غر القوافي وهي شارددة   فقبلت نحوي مشي معتـــذر
وسلمتني عن طوع مقادتها   فرحت فيهن آجرى جرى مقتــدر
اذا أتيت أقامت وهي من خدمي   وآينما سرت سارت تقفتي آثرى
طابقت لفظي بالمعنى مطابقة   خلوا من الحشو مملوء من العبر
اني لأنتزع المعنى الصحيح على   عرى فأكسوه لفظاً قد من درر
سل المنازل عني ان نزلت بها   ما بين بغــداد والشهباء في سفر
ما جئت منزلة إلا بنيت بها   بيتا من الشعر لا بيتا من الشَعَر (٩)

والنماذج على هذه الطريقة كثيرة شغلت الصحافة ردحاً طويلاً من الزمن . الأمر الذي يدل على آن هؤلاء العصريين ما انفكوا يعيشون كثيراً من لحظات حياتهم مع القديم وان الروح الفردية ما زالت تجد سبيلها الى نفوسهم .

لقد حملت الصحافة وكتابها حملة شـــعواء على كل شعر يسبق الاساليب النثرية وعالجوا موضوعات لا تختلف عن تلك التي عالجها المقال في الصحافة العراقية بل ان الزهاوي نفسه والذي كان محور

(٨) مجلة الاقلام عدد ٤ سنه ٩٢٨ ص ١٣٦ .
(٩) لغة العرب عدد ٦ سنة ١٩١٢ ص ٢٨١ .

الحركة في هده الفتره بالداب . ادخل في الشعر أموراً ليست منه ، فجاء شعره نثرياً علمياً يطغى عديه جانب العقل والنظم •

وهذه الظاهرة عامه نغلب على شعر الزهاوي دون ان تقتصر على شعره الذي يتناول فيه العلم والفلسفة وهو مع هذا يقول « ••• أما أنا فلا يهدأ خاطري إلا ان يرجع ابناء الطبيعة الى الطبيعه وشعرها وأخذت العنادل تصدح في رياض الأدب ••• واني ما نظمت الشعر في الغالب إلا بسائق من المحيط فلم أقله إلا بعد أن كان يجيش في صدري لداع خارجي » (١٠) •

ولكي نتأكد من غلبه الطابع النثري على شعر الزهاوي نتعرف جوانب من شعره في المرأه . وهو موضوع حديث شغل الصحافة نثراً وشعراً . والزهاوي نفسه كان زعيم هذه الحملة في كلا الفنين . قال الزهاوي عن السفور والحجاب :

أسفري فالحجاب يا ابنة فهر هوداء في الاجتماع وخيم
أسفري فالحجاب قد شل نصف الشعب حتى طمى فليس يريم
أسفري فالحجاب للعرب اليو م جميعاً تأخر مذموم
كل شيء الى التجدد ماض فلماذا يقر هذا القديم
ولماذا تخفين وجهك عن نا س يحبون الوجه وهو وسيم
لقد أعوج بالحجاب لعمري أمر دنيانا فهو لا يستقيم
انزعيه ومزقيه فقد انكره العصر ناهضاً والعلوم

---

(١٠) جريدة العراق عدد ٥٢٩ سنة ١٩٢٢ .

لــم يقل في الحجاب في شكله هــــدا نبي ولا ارتضاه حــكيم
هو في الشرع والطبيعه والأدوا ق والعقــل والضمير ذميــم
هو سجن لهن من غــير ذنب وهو حرمانهن وهو الهمــوم
زعموا أن في الحجاب حفاظـ كذبوا فهو في الحقيقــه لــوم
زعموا أن في السفور انثلاما كذبوا فالسفور طهر سـليم
لا يقي عفــه الفتــاه حجاب بل يقيها تثقيفها والعــلوم[1]

ومع أن الضجه التي أثارتها هذه القصيده في الصحافه العراقيه كانت قويه ومؤثرة لما فيها من صراحه يبدو أنها كانت غريبة في حينها إلا أنها لم تكن ذات قيمه من الناحيه الفنيه . فالطابع النثري هو الغالب عليها . وكان من الممكن ان يعرض الزهاوي رأيه في مقاله حتى لايدخل في الشعر أمورا ليست منه . ومن ناحيه أخرى فان القراء لم يكونوا لينظروا الى هذه القصيدة وأمثالها وينقدوها نقدا فنيا قريبا الى روح الشعر . بل نظروا اليها من حيث خطوره الموضوعات التي تناولتها ومدى قربها مما كان يشغل بال الرأي العام . ومن هنا فان الرد على الزهاوي لم يكن منصبا على الجانب الفني وانما على الآراء التي جاءت فيها هذه القصيدة . يتمثل في هذه القصائد الكثيره التي جاءت ثمرة ونتيجة لقصيدة الزهاوي . ومن ذلك هذه القصيدة التي نشرتها جريدة العالم العربي :

خل عنك السفور يا ابن الزهاوي فهو داء في المسلمــين وخيــم

(١) جريدة العالم العربي عدد ٧٣١ سنه ١٩٢٦ .

هتك العرض في البلاد وحلت فوق رأس العباد منه هموم
كم عزيز في الناس أضحى ذليلا من سفور النساء وهو الملوم

ان أهمية الزهاوي تكمن في كونه مصدر آثاره دينية . لما هو معهود عنه من صراحة عربية لا يملكها أحد من الادباء في عصره . فهو مجدد لأنه كان يخالف كثيرا من آراء عصره . وكان هذا كافياً لتحريك الهمم وحث الآخرين على الكتابة . وبخاصة هؤلاء المحافظين الذين كانت ديرهم أمثال هذه الآراء الجديدة . نشرت مجلة النجف قصيدة لأحد شعرائها تحت عنوان (الحجاب الحجاب) يعارض فيها الزهاوي . نأخذ منها الابيات التالية .

كل يوم للدين يبدو خصيم وعراضاً على الحجاب يقيم

. . . .

غير أن السفور باب افتتان للكهولة وللشبيبة شوم
وخصوصاً اذا تعالى جنان وتسلمت قوائم ورسوم

كيف يستطيع أن يمانع نفساً من أتاه من الغرام سموم
والفتى والفتاة عند اجتماع منهما الطبع للفساد يروم
ولهذا قضى الكتاب (وقرن) (واسألوهن من ورا)يافهيم
وحديث اجتماع اثنين شخص لهما ثالثاً يكون الرجيم
وعجيب من الجميل جحود لنصوص لحكمها التسليم
زاعماً أنه لعمر أبيه لم يقل مرسل به وحكيم

غير أن الجميل فدرك الفرآ ن شبابة وآشغلته عموم
فالحجاب الحجاب أيها الدهر دفي غيره لظى وجحيم
ولنا اسوة بعبرة بيت طهرتهم مما يشين العلوم
من رأى بصعه الرسول عيانا سفرن واستفاد منها كليم (١٢)

لقد تحول الشعر في امثال هذه القصائد الى وسيلة من وسائل الدعاية والاعلام لشرح رأي معين في مسألة من المسائل . حجج وبراهين وأدلة وآيات قرآنية وأحاديث نبوية . كلها في سبيل اثبات حجة في رأي من الآراء . ولهذا يأتي هذا اللون من الشعر وهو يحمل الاسلوب التقريري الذي يميل الى الناحية النثرية .

لقد شغلت المرأة وحريتها ومطالبها القصيدة الشعرية . كما شغلت المقال وآخذت هذه المعارضات وقتاً طويلاً في الصحافة العراقية وقد حفلت جريدة البلاد البغدادية بعدد غير قليل من هذه القصائد استمرت حتى النصف الثاني من هذا القرن (١٣) كما حفلت الصحافة العراقية كذلك بلون آخر من هذا الشعر الاجتماعي يميل الى معالجة مشاكل المرأة بأسلوب قصصي ويتناول حرية المرأة في اختيار زوجها وطريقة الزواج القسري التي كانت شائعة في العراق حينذاك ، هذا الشعر الاجتماعي لون لا يختلف في حقيقة امره عن القصص التي تحدثنا عنها في فصل سابق ، وأهم ما في هذا الشعر احتفاله بالوحدة

(١٢) مجلة النجف عدد ٥٤ سنة ٩٢٦ ص ٤ .
(١٣) انظر جريدة البلاد عدد ٤٥٥٣ سنة ٥٦ .

التي تجمع بين أجزاء القصيدة كلها ثم هذا التسلسل المنطقي في الحوادث التي تكون القصة . ومن ذلك هذه القصيدة التي نشرتها مجلة لغة العرب لمصطفى جواد وقد علق عليها بما يلي : « هذه القصيدة تصور حالة الزواج في العراق . يعهد الى سمسارة ان تختار البنت التي تراها مناسبة للشاب فتذهب من دار الى دار تبحث عن ضالتها ، فاذا وقعت على ضالتها واستحسنتها أخذت في مدح الشاب وأعارته محاسن قد لاتكون فيه، وهكذا هي مع الشاب .. » ومن ثم تبدأ المجلة بنشر هذه القصيدة:

دهبت نجوب مساكن الأحياء ونسير بالأوصاف والأنباء
دهبت ترود لعبرها بتثاقل والزاد أحمال على الايلاء
دهبت لتبحث روجة مأمونة وجميلة وكريمة الآباء

ومن ثم يصف الشاعر تنقل هذه السمسارة من بيت الى آخر . حتى اذا عثرت على ضالتها راحت تكيل المدح لفتاها فتصف أخلاقه وطباعه وغناه وكل صفة يمكن أن يمدح بها انسان :

عدته في أخلاقه وطباعه ملكاً يعوم لطهره بسماء
ثم انبرت تخفي عن البنت التي قد نال أهلوها جديد رجاء

فيصدق أهلها كلام هذه السمسارة ، أما الفتاة فلا أهمية لرأيها حتى اذا انتهت من هذا كله أعادت الكرة مع أهل الفتى ومن ثم يبدأ التعاقد بهذه السرعة فمن مصلحة الجميع أن يسرعوا :

فتعاقدوا وجرى الملاك بسرعة وتأدبوا كتأدب الفضلاء
ومشوا بأمتعة الجهاز بأطرق عن ذات خطبته بكل دهاء

يتسمّع الأخبار كل هيبهة ينشسم الأوصاف من غرباء
فكأنه صياد أسماك رمى حبل الشباك مجررا في الماء
قد أنبؤوه بحزمها وجمالها لكنما الأذواق غير سواء

حتى اذا انتهى الناظم من عرض الواقع الذي يشيع بين الناس انتهى من هذا كله الى تبيان رأيه واستهجان هذه الطريقة التي ستؤدي حتما الى الفشل لأنها لا تقوم على علاقات الحب المتبادل .

بئس الزواج زواجنا ولنعم ما سارت عليه عوائد الغرباء
ما ضر أن يتعارف الخلان في زمن اللقاء ومجمع الآراء
زفوا العروس الى الحليل وانها دخلت فجوج حياتها العمياء
وكذاك زفوه اليها حائرا لا آملا لمعيشة السعداء (١٤)

هذا الشعر أثر من آثار الصحافة . حيثما بات الشاعر يرى أن من واجبه أن يشارك غيره من الأدباء في الأمور العامة التي تشغل بال الرأي العام وقد برع بهذا اللون من الشعر معروف الرصافي . كما في قصيدته أم اليتيم والأرملة المرضعة وغيرهما الكثير .

ان انشغال الشعراء بالحوادث الجارية . ربما كان السبب الذي ألهاهم عن الاتيان بأعمال أدبية تثير في القراء أفكارا جديدة . فصارت الحوادث هي التي ترغم الشاعر على أن يعبر عنها . أو انه يجد نفسه مسوقا بعامل أو بآخر الى التعليق على هذه الحوادث ومن هنا كان الشعر وصفا حسيا يتناول الظواهر المألوفة التي يعيها حتى

(١٤) مجلة لغة العرب عدد ٦ سنة ١٩٢٩ ص ٤٤٨ .

بسطاء الناس •

لقد تحولت القصيدة الشعرية في الصحافة الى مجرد عرض لما يعالج الرأي في مسألة من المسائل . يغلب عليها الأسلوب التقريري الذي يحدد للناس القصيدة لكي يتصرفوا على أساسها •

ان أكثر هذا الشعر يصلح لدراسة النهضة السياسية التي مرت في البلاد طيلة النصف الأول من هذا القرن . فهو أكثر التصاقا بالناحية التاريخية من أي شيء آخر • ففي العقد الاول من هذا القرن مثـــلا نلاحظ شيوع القصيدة التي تدعو الناس الى التعليم والأخذ بأسباب العلوم الحديثة . وكأن الشعراء رأوا أن عليهم دورا يجب أن يؤدوه لبلادهم ولمواطنيهم . يرودون لهم الطريق ويدلونهم على مواطن الضعف ويعالجوا موضوعات خطيرة لها مساس مباشر بحياة شعبهم •

لقد برزت هذه الظاهرة بوضوح منذ ظهور الصحافة الشعبية في البلاد . فأصبحت القصيدة تلتصق بحياة الجماهير لتجد بالتالي اعجابا من القراء . حتى لقد صار المعيار . اذ الشاعر الوطني الحق هو الذي يشارك الجماهير في آلامهم وآمالاهم بصرف النظر عن الناحية الفنية او الجمالية التي تهتم بخلق افكار جديدة ترتفع بالناس عن مستوى النظر الذي يراه الآخرون • هم مجددون لا انهم كانوا يخلقون اشكالا فنية جديدة . ولا لأنهم يرتفعون بالقاريء او يعطونه افكارا فيها الخلـــق والأبتكار . ولا لأنهم اوجدوا أساليب جديدة فغيروا من الأشـــكال المعتادة في شعرنا العربي . وانما لأنهم أحدثوا موضوعات جـديدة لم

تألفها القصيدة العربية قبل ظهور الصحافة . في وقت كان مجرد التصريح بهذه الموضوعات يعرض صاحبها لأفدح المخاطر . ولأنهم أمام محافظين متزمتين يفسرون كل شيء على أنه مناف للدين ؛ ولهذا فهم لايسمحون بأي تغيير فيما اعتادوا عليه . لننظر الى هذه القصيدة للاستاذ كاظم الدجيلي وهو يعكس لنا فيها صدى دعوته للعلم وما كان يلاقيه من هؤلاء المحافظين .

لعمركما اني فتى بين قومه ... غريب يقاسي منهم أعظم البلوى
أخو فكرة لم يلف وسعا لنشرها ... يجامل من يسوى ومن لم يكن يسوى
يحاول اصلاح البلاد وأهلها ... وتهذيب اخلاق العباد ولا يقوى
ويدعو لنشر العلم أخلاق قومه ... هلموا بني قومي الى جنة المأوى
فلم يلف الا شاتما اثر ناقم ... عليه وقوما كفروه بلا دعوى
وقالوا طبيعي يريدون كافرا ... وما عرفوا سر الطبيعة والفحوى
بني قومنا مهلا فلست بكافر ... ولكن دعائي للسعادة لا الشقوى
أبثكم نصحي وان ضاق بعضكم ... فأوسعني من خبث طينته هجوا(١٥)

هذه هي نظرة أهل ذلك العصر الى العلم ، فهم يعتبرون كل دعوة اليه بدعة وضلالة موجهة الى صميم الدين ، ومن هنا ترتفع منزلة الشاعر في نظر المتحررين من أبناء وطنه ، فاذا أضفنا الى هذا كله أن الثقافة الحديثة لم تنتشر انتشارا كافيا بعد ، وان غذاء الشاعر الفكري ما يزال بسيطا ، ادركنا سر غلبة الناحية التقريرية على كثير

(١٥) مجلة العلم عدد ٦ سنة ١٩١١ ص ٢٨٢ .

من شعرهم . فهم مقلدون في الشكل مجددون في الموضوعات . تغلب الاوزان الطويلة على شعرهم . واستعملوا الكلمة بمعناها الشائع دون الاهتمام بقواها الكامنة . وكان يشجعهم الى هذا كله قراء في هـذا المستوى أو دونه ينظرون الى اعمالهم على أنها أعمال عباقرة ، وشعراء مجددين . ورفعوهم الى منزلة كان من الممكن أن لا يصلوا اليها لـو أنهم وجدوا في غير هذه الفترة . والصحافة من جانبها كانت تلح على اتجاهم الجديد الذي يوافق خطتها في اشاعة الموضوعات الحديثة التي لها اتصال مباشر بحياة الجماهير فرفعت اصحابه وشجعتهم على المزيـد من هذا الشعر فراح الشعراء يملؤون الصحف بهذه النماذج الجديدة، بل ان الكثيرين من الشعراء الذين ظهروا في فترة الحكم الاهلي كانوا يمتهنون الصحافة ويعرضون فيها قصائدهم ، فالزهاوي أنشأ جريدة الاصابة والرصافي أنشأ جريدة الأمل وعبد الرحمن البناء جريدة الاخلاق أما الجواهري فكان صحفيا مزمنا أصدر عدة صحف فما أن تغلق لـه جريدة حتى يعود لاصدار أخرى وهكذا هو شأن اصحـاب الصحف النجفية فما فيهم الا شاعر ، اتخذ من الصحافة وسيلة لنشر شـعره وشعر أمثاله .

وفي أثناء الاحتلال البريطاني للعراق قامت القصيدة الشعرية لتعبر عن المرحلة الجديدة ، فأندفعت تعري الحكم العثماني وما جره على البلاد من دمار وخراب ، وتمتدح السياسة الجديدة التي فتحت أبواب العراق على العالم الخارجي ، فتعاون عدد غير قليل من الشعراء مع

السلطات الاجنبية ومدحوا سياستهم دون أن يندفعوا ذلك الاندفاع القوي لتأييد هذه السياسة . ولهذا نجد أن جل القصائد التي نشرت في جريدة العرب لا تحمل اسماءهم الصريحة . بل كانوا يكتفون بالاشاره والتلميح ، كقول أحدهم وهو يكني نفسه (ابن الفراتين) . يقارن بين عهدي الترك والانكليز قبل ظهور هؤلاء على حقيقتهم :

بشرى لبغداد مهد العلم والادب حصن الخلافة والسلطان والحسب
لاغرو ان أخلقت بالرغم جدتهــ ـا بيوم فدعوضت من لبسها القشب
وصعرت خدهــا للترك معرضه عن المظالم والارزاء والــكرب
وصافحت سنن الاصلاح وابتدأت بلثــم عزة عصر زاهــر خصب
وحسبها أن جند الشر غادرهــا والخــير يطرده في جحفل لجب
هــذا يحاول تحرير الرقاب وذا لشنقها كان قبلاً ضارب الطنب

نحس لهجة المقال التي تعرفنا عليها في فصل سابق ، فالحوادث التي مرت بالبلاد كانت من القوة بحيث جعلت الشعراء يلتصقون بهــا فجاء شعرهم يعبر عن متطلبات آنية تقتضيها ظروف البلاد . كالدعوة إلى الأخذ بالعلم الحديث والحط من قيمة الأتراك ومدح السياسة الانكليزية قبل أن تظهر على حقيقتها .

وتتبدل القصيدة بعــد ثورة العشرين في الصحافة العراقية ، وينغمس الشعراء أكثر من أي وقت مضى بالسياسة ، ذلك أن هذا الحدث التاريخي هو الذي ميز الادب العراقي بفنونه المختلفة عن سائر الاقطار العربية الاخرى ، وتبدو هذه الظاهرة أكثر وضوحاً في القصيدة

الشعرية من أي اتجاه فني آخر . فاذا كان الحكم التركي لم يتح للشعر السياسي الذي يحمل روح الثورة بالظهور ، واذا كان الحكم الأجنبي خلال احتلاله المباشر لم يتح هو الآخر للشعر السياسي بالظهور فان ثورة العشرين وضعت حداً فاصلاً لهذا كله وأوجدت مناخاً ملائماً لنمو هذا الشعر . فجاءت القصيدة تحمل طابع الهجوم والحماس والثورة في المجال الوطني وتحول الشعراء الى واجهات اعلامية تأييداً لهذا الرأي أو ذاك . ووقفت القصيدة في صميم المعركة وفضحت تصرفات المحتلين وعرب الحكومات السائرة في ركابهم . ودعت الى ازالة القيود التي تكبله . فوقف الشاعر فيها محذرا . وناصحاً وقائداً .

والذي ساعد على نمو هذا الشعر وانتشاره وشيوعه هو أن فترة الحكم الأهلي في العراق كانت طويلة جداً استمرت ما يقارب الأربعين سنة دون تغير يذكر في السياسة العامة للحكومات المتعاقبة ودون تغير يذكر في نظرة هذه الحكومات الى الحياة وما فيها من تطورات . ولهذا بقي الشعراء يجولون في هذا الميدان لأنهم كانوا يرون أن الأسباب التي تدفعهم الى هذا كله لم تتبدل . بل أصبح المعيار الذي يقاس به الشاعر انما يكمن في تناوله هذا الغرض السياسي والا وجهت له ألف تهمة وتهمة أقل ما فيها أن شعره لا يخرج عن مجرد عبث أو لهو لا يليق بالأديب الوطني الغيور على مصلحة بلاده وأمتـه ان يشغل نفسه بهذه الملهيات التي لا طائل تحتها .

ومن هنا انغمس الشعراء بهذا الجانب بعد أن وجدوا أن سوقه

رائجة بين جماهير القراء ، وأن صحافة معينة ما كانت تنشر إلا الشعر الذي يعالج الموضوعات الوطنية ولهذا كان عليها ان تبحث عن أصحابه مراعاة لرغبة قرائها .

لقد ارتفع كثير من الشعراء في هذه الفتره الى أكثر مما يستحقون والى أكثر مما يدل عليه واقع أدبهم . لا لشيء إلا لأنهم كانوا يملكون الجرأة والصراحة في التعبير عن واقع حياة شعبهم ، ويعرون الحكومات السائرة في ركاب الأجنبي رغم الجو الأرهابي الذي كانوا يعيشونه . ومن هنا فقد آخذ الشعب بأيدي هؤلاء الشعراء ورفعهم الى منزلة الأبطال وجعل منهم رمزاً للنضال والكفاح بعد آن تحملوا الكثير من العذاب بسبب صراحتهم هذه . فكم من شاعر قدم الى ساحات المحاكم بسبب بيت قاله . وكم من جريدة أغلقت بسبب نشرها قصيدة لهذا الشاعر أو ذاك . حينما نشرت جريدة الاصلاح قصيدة الرصافي ومنها :

لقد ساءني علمي ببحث السرائر وأني على تطهيرها غير قادر
تصفحت أعمال الورى فوجدتها مخازي غطوها بشتى السرائر
وفتشت عما استحدثوا من مناقب تروج من أطماعهم ومفاخر
فكانت حساناً في المناخر خدعة على أنها كانت قباح المخابر

فكان من جراء نشر هذه الأبيات « أن أغلقت الجريدة سنة كاملة وأقيمت الدعوى من قبل وزير الداخلية على صاحبها وأحيل رئيس التحرير بسببها الى لجنة انضباط في وزارة المعارف » (١٦) وحينما نشرت

(١٦) جريدة الانقلاب عدد ١١ سنة ١٩٣٦ .

جريدة لواء الاستقلال قصيدة للشاعر طالب الحيدري ومنها :

سيري جموع الشعب سيري وعلى عهود البغي ثوري
وتحكمي في الانجاه وقرري لون المصير
باسم الرعية حاسبي الحكام في اليوم العسير
جوري اذا جاروا فان من العدالة أن تجوري
الحق يسلبه القوي فسوريه بألف سور [١٧]

قدم صاحب الجريدة للمحاكمه بسبب هذه الأبيات وحدد « يوم الاربعاء القادم موعداً لمحاكمة الاستاذ قاسم حمودي المدير المسؤول لجريدة لواء الاستقلال لقيام الجريدة المذكورة بنشر قصيدة للمتهم طالب الحيدري ، واعتبر بعض أبياتها بأنها تحرض ضد السلطة واهانة للنظام المذكور » [١٨] .

ونشرت جريدة الاستقلال قصيدة تتعرض فيها لتمثال مود القائد الأنكليزي الذي فتح بغداد ومنها :

لمن التمثال في الكرخ تباهى وتبختر
وازدرى بالشعب لما أن تعالى وتجبر
ألمن قاد جيوش العرب في النصر المؤزر
أم لمن قد دحر الأعداء بالجيش المظفر

فما كان من الحكومة إلا أن أوقفت المدير المسؤول للجريدة

(١٧) لواء الاستقلال عدد ١٨٨٥ سنة ١٩٥٤ .
(١٨) صوت الاهالي عدد ٢٧٢ سنة ١٩٥٤ .

وفتشت ادارتها بحثاً عن أصل المقطوعة . وبعد اجراء المحاكمة « عطلت الجريدة لمدة سنة بسبب بضعة أبيات نشرتها تلك الجريدة . فسرتها الحكومة بأن المقصود هو تمثال الملك فيصل وليس تمثال مود » (١٩) .

كل هذا كان كافياً لأن يحتضن الشعب أمثال هؤلاء الشعراء ويشجعهم على المزيد منه . لأنهم راحوا ضحية التعبير عن أحاسيسه ومشاعره . وهذا كل ما كانوا يتطلبونه منهم . كما ساعدت الأحزاب الوطنية على نمو هذا الشعر فدعت له وفتحت صحفها لأصحابه ورفعت من مكانتهم وبهذا تكون هذه الأوضاع العامة قد حصرت الأدب في مجال ضيق . وجعلته لاصقاً بهذه الحوادث المتغيرةالتي لاتعرف السكون والاستقرار . ومعيارها في هذا كله . أن كل أديب لا يخدم الجماهير ولا يعبر عن ظروفهم وحياتهم انما هو أدب لذة ومتعة . وبهذا يكونون قد أودوا بكثير من قيم الفن والجمال . وتحول الشاعر الى مجرد صورة لرسم الحوادث . كما نقع . لأن الدافع لم يعد تلقائياً ينشأ من داخل أعماق الشاعر ، وقد كونه التفكير المتزن المبنى على خلاصة من الآراء المختلفة التي استقاها من خلال جولته في عالم الفكر والخلق ، الحوادث هي الدافعة فحسب . ويستطيع ان يجدها في كل وقت . وبهذا تحول الشعر في الصحافة الى سلاح بيد الجماهير ووسيلة من وسائل الهاب العواطف الآنية التي تزول بزوال الحدث ومن ثم تختفي بعد ذلك ، بل ان الشاعر نفسه أصيب بغرور العظمة حينما صار اسمه يتردد على لسان

(١٩) صوت الاهالي عدد ١٤٠٢ سنة ١٩٤٧ .

هؤلاء الدين يتلاعب بأهوائهم وعواطفهم الأمر الدي شجعه على المزيد والمزيد . فتحولت القصيدة الشعرية الى مقال مطبوع ليس فيها ما يميزها عنه إلا هذا الوزن والقافية التي فيها يقول الدكتور عبد اللطيف حمزة :

« وعلى هدا فالقصيده الشعرية في أدبنا الحديث انما هي مقال مطبوع يخاطب الشاعر الجماهير ويكون صدى لمشاعرهم وعواطفهم وبدت على القصيدة وكأنها خطبه من الخطب ... ولدلك أصبحنا لانفهم الشاعر الحديث إلا اذا كانت لنا ثقافه سياسيه وتاريخيه » (٣٠) .

ولم يكن هدا إلا بسبب التصاق الشاعر بهده الحوادث السياسية المتغيرة في حياتنا الاعتياديه . حتى انا لو تحرينا عن الموضوعات التي عالجتها القصيده في الصحافه العراقيه بعد ثورة العشرين لرأيناها لاتخرج عن تلك التي عالجها المقال الصحفي . محاربه المحتلين . تعرية الحكومات العميله . القومية العربيه ومشاكلها . الانتخابات . حرية المواطن ، الدستور . القوانين الاستثنائيه . حلقات متكامله بعضها يأخذ برقاب البعض الآخر . ومع اننا لا يمكن أن ننكر أهميتها وخطورتها في الحياة العامة إلا أنها مع ذلك حولت الشعر وأبعدته عن غرضه الاساسي ليغدو مجرد شعر مناسبات أو شعر حوادث تاريخية .

كل ما يمكن أن نذكره لهذا الشعر هو أنه كان وسيلة وعي ووسيلة اثارة . الأمر الذي أدى الى ايجاد احساس مشترك بين أبناء الشعب الواحد ، لأن الشعر نزل الى مستواهم وخاطبهم باللغــة التي

(٣٠) الدكتور عبد اللطيف حمزه ـــ الصحافة والادب في مصر ص ٩٦ .

يفهمونها وعبر عن واقعهم . فأوجد قاعدة جماهيرية مشتركة تستطيع أن تترك آثرها في آوقات الأزمات بعد آن آوجد هؤلاء الشعراء ثقة متبادلة بينهم وبين قرائهم .

كما تحولت بعض الأغراض انقديمه في شعرنا العربي بفعل الصحافة الى آغراض جديدة فيها الكثير من الاختلاف عما كانت عليه وأهمها المدح والهجاء . فقد ابتعد الشعراء المعاصرون بهذين الغرضين عن كل ما يمت الى العامل الشخصي بصلة وآصبح الشاعر فيهما يقوم على المشاركه الوجدانية في العقيدة والمبدأ آو على الاعجاب والاختلاف في وجهات النظر ازاء مواقف معينة .

فالشاعر والزعيم السياسي قد يذهبان نفس المذهب ويعتقدان نفس الاعتقاد .كما قد يختلفان في وجهتي نظريهما، هذا الاختلاف وذاك الاتفاق لا يخصان طرفي المدح والهجاء بل يتعداهما ليشمل الجماهير صاحبة المصلحة المباشرة في هذه البلاد . ومن هنا فان الشاعر ينظر الى هذا الزعيم من خلال نظرة الشعب اليه . فتراه يمدح حيناً ويذم حينا آخر وربما لزعيم واحد : لقد اختفت تلك الصفات القديمة في المدح والهجاء من شعرنا الحديث فلم يعد الكرم والبخل والجمال والقبح والشجاعة والجبن الصفات التي تقال في عصرنا هذا على أساس فردي بحت ولكل وقته . بل حلت محلها صفات أخرى تدخل في صميم العمل الوطني .

والخلاصة ان القصيدة في الصحافة نزلت الى مستوى الجماهير فأصبحت سهلة في لغتها وألفاظها وأفكارها ، ولم يعد الشاعر يجد فسحة من الوقت لكي يتأنق في شعره ، لأن سرعة الحوادث وتغيرها المستمر حرمت الشاعر من التأني والتأنق في الشكل والمضمون ، وبهذا أصبحت لا تختلف في لغتها وإسلوبها وموضوعها عن المقال الصحفي ، معاني نحس بها ونراها أمام اعيننا ، وألفاظها من تلك التي نستعملها في حياتنا اليومية . لا هي بالعامية المبتذلة . ولا هي بالتي تستعصي على القاريء العادي الذي يملك ثقافه سياسية ولغوية معتدلة حصل عليها بفعل شيوع التعليم الحديث،وانتشار المدارس، فخاطبهم الشاعر باللغة التي يفهمونها، ويبدو أن هذا الشعر قد بدأ يفقد سلطانه وقوته على النفوس بعد الحرب العالمية الثانيه بفعل تطلع العراقيين على آداب الامم الاخرى والتأثر بالثقافات الأجنبية فسئموا من الشكل الهندسي القديم للقصيدة العربية والأفكار الشائعة التي استمرت تلح عليها هذه القصيدة فكان الشعر الحر الذي جاء يحمل ثورة على الأساليب التقليدية القديمة التي لا تعبأ إلا بالشكل . يقول الدكتور داود سلوم « كان موت الرصافي إيذاناً بموت المدرسة القديمة التي كان يسرف شعراؤها في الشكل أكثر من المعنى وبالالفاظ أكثر من المضمون ، وبالرغم من وجود من يمثل هذه المدرسة من الشعراء من أصحاب الشهرة الضعيفة أو المتوسطة فان أدب هذه المدرسة لم يعد يلق التشجيع الذي كان يلقاه من قبل ، وكانت

نهاية الحرب الثانية إيذاناً بميلاد مفاهيم شعرية في العراق تنج عن الوعي السياسي والاجتماعي في العراق وعن ازدياد تأثر الشباب بالثقافات الغربية » [٢١] • وهذا ما سنتعرف عليه في الفصل القادم •

---

(٢١) الدكتور داود سلوم ـ الادب العراقي المعاصر ـ ص ٥ .

الفصل الثاني

حركة الشعر الحديث

الصحافة وسيلة هامة من وسائل التعبير عن الرأي العام ، وذات صلة مباشرة بالقضايا العامة التي تتعلق بحياة الأمة ومستقبلها ثقافة وفكرا . كما أنها المجال الطبيعي في إثارة كثير من هذه القضايا ومناقشتها للوصول الى نتيجة حاسمة من خلال الاراء المختلفة .

ولما كان الشعر الحر طريقة جديدة غايتها الخروج على الوزن والقافية التي ألفهما العرب طيلة تاريخهم الادبي . فانه والحالة هذه يدخل في صميم القضايا العامة التي تتعلق بتراث هذه الامة ، الامر الذي استدعى الصحافة لأنها المجال الطبيعي لتناول هذه القضايا وعرضها على الرأي العام . وعلى هذا الاساس فان دراسة هذه الطريقة الجديدة في الشعر تبقى ناقصة اذا نحن أغفلنا الصحافة جانباً ، بل ان كثيراً من نماذج هذا الشعر وبخاصة في مراحلها الاولى كانت تجد طريقهـا الى الصحافة قبل ان يحتويها مجال آخر ، وكان من الممكن ان تضيع أو تختنق في نفوس أصحابها قبل أن ترى النور ، فالصحافة كانت وما زالت المجال الطبيعي لكثير من نماذج هذا الشعر والدراسات التي قيلت فيه ،

والجدل الذي أثير حوله بل اننا سنجد ان الضجة التي أثارها بعض المحدثين ممن تعرضوا لدراسة بعض جوانب هذا الفن والقضايا المتعلقة به ينقصها التمحيص والتدقيق . ولو انهم رجعوا الى الصحافة لغيروا وجهة نظرهم في كثير مما ذهبوا اليه .

هم يذهبون مثلاً الى أن هذه الطريقة الجديدة من الشعر ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية . ومعنى هذا انهم ينسون تلك الحركة الوليدة التي ظهرت في بداية العقد الثالث من هذا القرن والتي أحدثت أثراً مهماً في وقتها ، حتى ان كثيرا من القضايا المتعلقة بهذا الشعر لم تكن غير صدى لتلك الحركة التي وجدت في الفترة المذكورة .

فمشكلة الوزن والقافية وما يترتب عليهما من حرية التعبير كانت مثار مناقشة وجدل لا بين هؤلاء المحدثين فحسب بل بين اولئك الرواد من جهة ومعارضيهم من جهة أخرى . كل ما هنالك اختلاف الزمن وتبدل النظرة . كان المحافظون في العقد الثالث من هذا القرن من القوة بحيث يستطيعون التأثير على تلك الاصوات التي يظنونها نشازا في سبيل ان يوقفوها عند حدها لتبقى محصورة في مجال ضيق تتحين الفرصة للظهور . وكان المجددون في العقدين الخامس والسادس من هذا القرن من القوة بحيث يستطيعون اسكات كل صوت نشاز يقف امام حريتهم ، ولهذا خفت صوت أولئك الرواد . فبقي يبحث عن متنفس فوجده بعد الحرب العالميـة الثانية فشاع وانتشر بين كثير من الناس ، بعضهم استطاع ان يبدع في هذا الفن الجديد ، في حين تعاطاه الكثيرون

لا عن معرفة به وبأصوله وانما لانهم يعتقدون انه يتيح لهم حرية أوسع من تلك التي تتيحها لهم الطريقة القديمة فأضاعوا الصفقتين كما يقولون وأساؤا الى هذا الفن اساءة بالغة فأوجدوا ورقة رابحة سلمت الى اعدائه الذين يبحثون عن كل نقطة ضعف ليحطوا من قدره .

المحدثون يختلفون مثلا حول الرائد الاول الذي تعاطى هـــذا الشعر ، بعضهم يرى ان نازك الملائكة كانت اول من تعاطى هذه الطريقة الجديدة . في حين يرى الاخرون أن المرحوم بدر شاكر السياب هـــو أول من حاول هـــذه المحاولة . وهكذا يتخذ الحوار شكل الجـــدل ، احتفظت به الصحافة العراقية التي كانت الوعاء الطبيعي لكل ما قيل في هذا الفن الجديد . لا بين دارسيه فحسب بل بين هؤلاء الرواد أنفسهم، كل يدعي انه صاحب المحاولة الاولى . والذي لا شك فيه ان لهذين الرائدين انتاجا يذكر في هذا المجال وانهما وضعا أسس هذه الطريقـــة الجديدة . ليضاف اليهما علم بارز هو الاستاذ عبد الوهاب البيـــاتي والذي لا يمكن ان ينكر أحد فضله في هذا المجال ، يذكر الاستاذ عبد الرزاق عبد الواحد وهو من الشعراء الذين تعاطوا هـــذه الطريقة أن السياب كان أول من تعاطى هذا الفن [١] وهو حكم ينقصه التتبـــع التاريخي لهذه الحركة في الصحافة ذاتها ، بصرف النظر عن الاجـــادة

(١) « والسياب كان ابرع واجرأ من عالج الشعر الحر وهو من رواده الاوائل ان لم نكن الرائد الاول » جريدة البـــلاد عدد ٦٠٧٧ ســـنة ١٩٦١ .

الفنية بين هؤلاء المحدثين وأولئك الذين تعاطوه لأول مرة ، لعلمنا بأن أول الامور لا يمكن ان تكون كاملة ، وان تطور الزمن وتعدد مصادر الثقافة كفيلان باضافة اشياء جديدة وتثبيت الاسس من خلال النواقص التي تظهر بين حين وآخر . ذلك رأي وله مؤيدوه . وهناك آخرون يرون ان نازك الملائكة هي صاحبة أول قصيدة حرة وانها أول من وضع اسس أركان هذا الشعر . وهذا ماذهب اليه الاستاذ عبد الرضا صادق في جريدة اليقظة (٢) .

وفي مجلة النجف رد معقول كتبه الاستاذ مصطفى جمال الدين. على مقالة نشرتها نازك الملائكة في مجلة الاديب اللبنانية ومما جاء فيه « كتبت الشاعرة الفاضلة نازك الملائكة بحثا فى الاديب اللبنانية يشعر أنها أول من قاد المعركة في قصيدة لها عنوانها الكوليرا ثم تقول : ان السياب نشر ديوانه أزهار ذابلة في النصف الاخير من الشهر الذي نشرت فيه قصيدة الكوليرا وله في هذا الديوان قصيدة حرة الوزن بعنوان (هل كان حيا) وهذا الكلام يشعر أنها سبقته في التجربة . ولكن بدر في مقدمة ديوان أساطير يقول : وأول تجربة لي من هذا القبيل كانت في قصيدة (هل كان حيا) في ديوان أزهار ذابلة ، وقد صادف هذا النوع من الموسيقى قبولا عند كثير من شعرائنا الشباب أذكر منهم الشاعرة نازك الملائكة . والحقيقة أن نازك لم تكن أسبق من

(٢) « واذا جاز تأريخيا ان نعين منطلقها فهو التاريخ الذي بدأت فيه نازك الملائكة بنشر مقالاتها فى معركة الشعر الحر » اليقظة عدد ١٩٥٥ .

بدر في الشعر الحر فقد صدر ديوانه ببغداد في الوقت الذي عنته الشاعرة ، ولكنه طبع في القاهرة قبل هذا الوقت وقد ديل الشاعر القصيدة بتاريخ ٢١ / ١١ / ١٩٤٦ » (٣) .

وقد دهب بعض مخالفي هذه الطريقه الجديده الى ان المعاصرين من الشعراء الشباب كانوا مسبوقين فيها . وان هذا الشعر قديم قدم الشعر العربي بل واعتبر بعضهم النثر الجاهلي من جملة الشعر المنثور وأن الامم الشرقيه كانت السباقة في هذا المضمار وأن الغرب أخذه عن الشرقيين ومن ثم عاد العرب فأخذوه عن الغرب « لو رجعنا الى تاريخه لوجدناه منتشرا بين الأمم الشرقية قبل العربية ••• ووجد عند العرب داخلا في زمرة الكلام المنثور كنثر بعض أعراب الجاهلية ••• وفي الامم المظلمه غادره الشرقيون حتى عاد اليهم من الغرب ••• »(٤).

اما الاستاذ مصطفى جمال الدين فكان يرى ان الاندلسيين أول من خرج على أوزان الخليل بن احمد في موشحاتهم « فاذا كان الخروج على ما وضعه الخليل بن أحمد للبيت والقصيدة من قواعد الشعر الحر . فهذا شيء وضعه الاندلسيون قديما في موشحاتهم كأبي بكر بن زهر وابن سناء الملك المصري في موشحته المشهورة :

كللي

يا سحب تيجان الربى بالحلى

---

(٣) مجلة النجف عدد ١ سنة ١٩٥٦ ص ٢٠ .

(٤) لغة العرب عدد ٥ سنة ١٩٢٩ ص ٣٦٩ .

واجعلي

سوارها منعطف الجدول ... » (٥)

لقد اتخمت هذه الطريقة الجديدة من الشعر الصحف واشبعتها بحثا وتدقيقا منذ ظهور أول نموذج في الصحافة العراقية .

وأول محاولة عثرنا عليها في هذا المجال جاءت في ملحق جريدة العراق البغدادية التي تحمل تاريخ سنة ١٩٢١ وتحت عنوان (نظـم طليق) وبتوقيع مستعار هو (ب . ن) .

ومن هـــذه القصيدة :

آتركوا نعشي فهلاك الهجر يحملني الى
حضرتي
هو يحملني اليها
انـــــه
حمل الهم الي
طـــول عمري
وسيسقيني المنيـــة
أنا أدري
فاتركوه ليتمم فعــله نحوي ولا
تزجروه

---

(٥) مجلة النجف عدد ١ سنة ١٩٥٦ ص ٢٠ .

بعـــد موتي ... » (٦)

اما لماذا آثر الشاعر الايماء على ذكر اسمه الصريح ، فالظاهر انه بصدد تجربة جديدة خاف عواقبها . وبخاصة والتيار المحافظ ما زالت له السطوة الكبرى في الميادين العامة .

ولم نعثر على تعليق واحد حول هذه القصيدة في جميع الصحف التي كانت تصدر في تلك الحقبة ، ويبدو ان القراء لم يأخذوها مأخـذ الجد ولهذا لم تثر انتباههم .

وبعد فترة قصيرة تبدأ اولى المحاولات الجادة في هـذا الفن . وذلك حين زار أمين الريحاني العراق . فقد احتفى به أدباء بغداد احتفاءا يليق به كأديب عربي مشهور . وكان ينتقل من حفلة الى أخرى وهـو في خلال ذلك كله يتحف معجبيه بهذه الطريقة الجديدة ، ومن ثم تنقله الصحافة بعد ذلك وتشيعه بين الناس .

بالاضافة الى هذا فان بعض الصحف العراقية كانت تنشر شعر الريحاني الذي قاله قبل قدومه الى العراق ، وكانوا يسمون هـــذه الطريقة الجديدة حينذاك (الشعر المنثور) . من ذلك هذه المقطوعـة التي نشرتها مجلة الزنبقة للريحاني نفسه تحت عنوان (نبوخـذ نصر الشحاذ) معلقة عليها بما يلي « زار العـراق حضرة الكاتب النابغـة والشاعر الفيلسوف الاستاذ أمين الريحاني في رحلته العربية التيابتدأها بمصر والسعودية ... وقد رأينا بهذه المناسبة أن ننشر قصيـدة من

(٦) ملحق جريدة العراق رقم ٢٣ سنة ١٩٢١ .

الشعر المنثور لهذا الاديب الكبير وقد كتبها قبل الحرب الكبرى ببضع سنوات » ومن ثم تبدأ المجلة بنشر هذه القصيدة نكتفي بنقل شيء منها:

« ولم تنبح الكـــلاب

من ذا الـــذي في البــاب

ان في الباب مليكا دوخه الزمان .

ان في الباب شيخا محنيا تحت وفاضـــه . منكئا على هرواته . يسد يده باكيا . ويهيم شاكيا . شيخ محيف يرتعد كالمحموم . لا يعرف أمن البشر هو أم من فوق او تحت طبقات البشر . طيف من أطيـــاف الاعياء والمذلة . نهب داء وفاقه . يطوف البلاد كفارة عمـــا اقترفه من الآنام ســـواه .

ان في الباب شيخا يستنبح الكلاب

ان في الباب مليكا دوخه الزمان ... » [٧] .

أما فكرة المقطوعة فغريبة على العراقيين . اولئك الذين يميلون الى الخطابية في كثير مما يقولون . وأما كونها من الشعر فالظاهر أنهم ما يزالون يقفون من هذه النماذج موقف اللامبالاة ولم يعيروها أي اهتمام ، لانهم ينظرون الى الشعر باعتبار ما فيه من وزن وقافية وبدونهما لا يكون الشعر شعرا وبدليل هذا الرد الذي عثرنا عليه في مجلة الناشئة الجديـــدة والموجه الى أديب بصري يعتبر الريحاني ناثرا ليس الا . « قال أديب بصري في الريحـــاني : وللريحاني نثر طرزه أجمل كثيرا

(٧) مجلة الزنبقه عدد ١ سنه ١٩٢٢ ص ٣ .

من طرز شعره وهو كاتب ليس الا . نفهم من هذا ان الكاتب من أبناء المدرسة العتيقة الذين لا يتذوقون عذوبة الشعر ولا يجتلون روعة الفنان الا اذا كان مثقلا بسلاسل من الاوزان مصفدا باغلال من القافية وكان فيه كل غريبة شرود من غرائب اللغة وأحجية معماة من أحجية المعاجم . والا فلا يقال للريحاني كاتب باطلاق المعنى وهو الشاعر نثره السهل وشعره المنثور ... ان الريحاني شاعر وقد شهد له بذلك رجالات الادب في الشرق والغرب » (٨) . ولا شك أن هذا الرد لواحد من مؤيدي هذه الطريقة الجديدة في الشعر .

وكانت مجلة الحرية البغدادية التي يحرر فيها الاستاذ روفائيل بطي تلاحق الريحاني في حفلاته . وتذكر ان الريحاني هو الذي نقل هذه الطريقة الى الادب العربي وتأثر به كثير من الادباء العرب ومنهم ادباء المهجر « لقد احتذى الاستاذ أمين الريحاني طريقة (ولتويتمان) الامريكي في اطلاق الشعر من قيود الوزن والقافية فابتدع طريقة الشعر المنثور في العربية وتبعه كثيرون ولا سيما ادباء المهجر » (٩) .

ومن قصائده التي نشرها في العراق هذه القصيدة التي تحمل عنوان (رب العراق) ننقل منها :

« أصافحه والقلب في يدي

احييه والروح على لساني

---

(٨) الناشئة الجديدة عدد ٢ سنة ١٩٢٣ .

(٩) مجلة الحرية عدد ١ . ٢ سنة ١٩٢٤ .

أكبره وكلي كلمــة اكبــار
اقف امامه فننكشف امامي اعاجيب الزمان .
ألمس ردنه فيرتعش جسمي ثم ينتعش ثم يهتز ابتهاجا
ولا عجب فهو كثير الاطوار غريبها .
يكلل رأسه السنديان ويجثو عند قدميه النخيل ... » [١٠] .

وقد جمع الاستاذ روفائيل بطي كل ما قاله الريحاني في الصحافة العراقية في كتاب يحمل عنوان (أمين الريحاني في العراق) ولهذا الكتاب قيمة تاريخيه وسياسيه بالاضافه الى أهميه الادبيه يستطيع أن يستفيد منه الباحث في دراسة هذه الحقبة من تاريخ العراق .

وعلى كل حال فلم تحدث هذه الطريقة الجديدة ضجة كبيرة في حينها فأدباء هذه الفترة ــ على ما يبدو ــ لم ينظروا اليها نظرة جادة ، بل حسبوا انها فترة عابرة تمر وتختفي . أو ربما نظروا اليها نظرة أخرى واعتبروها من النثر مع أن اصحابها كانوا يطلقون عليها اصطلاح الشعر المنثور .

أما المؤيدون فكانوا ينظرون اليها على أنها شعر تحرر من قيود الوزن والقافية . وأن معيار الشعر هو في افكاره وأخيلته لا في اشكاله الظاهرة . ولعل الملاحظة التي أوردتها مجلة الناشئة الجديدة خير ما يعكس لنا رأي هؤلاء في هذه الطريقة الجديدة .

(١٠) أمين الريحاني ــ قلب العراق ــ بطي ــ ص ٨٠ .

ومن الادباء العراقيين الذين تأثروا بطريقة الريحاني الاستاذ روفائيل بطي [١١] . الذي كان يرافق الريحاني في حله وترحاله داخل العراق • وقد بدأ ينشر شعره المنثور هذا في مجلة الزنبقة . ومن ذلك قوله تحت

(١١) الاستاذ روفائيل بطي أديب واكب تطورات النهضه العراقية خلال النصف الاول من هذا القرن . فكان بحق من روادها الاوائل حرر في عدة صحف قبل ان تصدر جريدة البلاد سنة ١٩٢٩ والتي استمرت تصدر الى الستينات رغم وفاته سنة ١٩٥٦ اذ استمر ورثته بديرون سياستها . وتاريخ جريدة البلاد حافل بالتطورات السياسية والاجتماعية والادبية في العراق رغم العقبات التي كانت تلازمها من غلق او حجز . وهو كاتب نشط كتب في اكثر الصحف العراقية . ولعل أهم ما يمتاز به العقد روح الاثارة حينما تجد ركود الحركة الادبية في البلاد فتراه يمدح هذا ليغيض ذاك وينتقد الزهاوي لسيره وسير مؤيديه . قال فيه الاستاذ ابراهيم حلمي العمر الصحفي المشهور « واني لاحسبك مرتاح الضمير مسرورا باستئناف المساعي لتحقيق فكرة أدبية سامية أول من فكر فيها وأيدها . . . انما اعرفك من أولئك الذين يعملون في خدمة النهضة الادبية من دون جلبة وضوضاء » .

وطريقتك المثلى حب العمل للعمل نفسه لا للمباهات والتفاخر . هذه كلمني اليك كلمة معترف بمالك من اياد بيضاء باعثة لك على استئناف الجهاد القديم لانشاء عصبة أدبية تكون في مأمن من تلاعب المتلاعبين بالعقول المنيرة » ورغم انشغال الرجل بالسياسة فانه لم ينس الادب في جريدته فكانت ملتقي الادباء والمفكرين في العراق وله آثار مهمة تعكس لنا التطورات الفكرية في العراق منها الشعر العصري والربيعات وامين الريحاني في العراق والصحافة العراقية وغيرها .

عنوان (الزنبقه) ننقل منها ما يلي :

« هي بنت الحقول ربيبة الخلاء

باتت على الأرض فحكت ربيباتها من دراري القبة الزرقاء

فلله منها أميرة في دولتي الأرض والسماء

قامت على ساق أخضر وبدت بمحيا أنور

فرمزت بساقها الى الخصب ووفره الثراء

واستهوت بطلعتها أبناء النور وعبدة الجمال .

تنال منها الشمس ملمساً فتداعبها بأناملها الذهبية

ويحسدها على ذلك الغمام لكنه يعز عليه موافاتها

هي درة الغبراء . هي كوكب السماء .

هي الزنبقه رمز العفاف والطهر والصفاء .... » (١٢)

ويلاحظ على هذه المقطوعة شبهها من مقطوعات الريحاني ، فأشطرها تختلف طولاً وقصراً واهتمامها بالقافية . لم تكن على نسق واحد . ولا على نظام معين . الأمر الذي يدلنا على أنهم ينظرون الى هـــذه الطريقة الجديدة بأعتبارها تحرراً كلياً من الوزن والقافية ، وان جمالها يكمن في الافكار والمعاني لا في الاشكال الظاهرة . ولم يكن الاستاذ روفائيل بطي هو الوحيد الذي تأثر بطريقة الريحاني هذه، بل تعاطاها آخرون ساروا في نفس هذا الاتجاه . نذكر منهم الاستاذ عبد الاحد

(١٢) مجلة الزنبقة عدد ١ سنة ١٩٢٢ ص ٩ .

حبوش (١٣) الذي كان ينشر انتاجه هذا في مجلة الزنبقة . كقوله من قصيده طويله تحت عنوان (وقفه على قبر حبيبي) نأخذ منها :

« قد كان لي حبيب أجد قربه النعيم

كان خلي الودود الحميم . وأنيسي الوحيد الوسيم •

اغتالته يد المنون في شرخ الشباب وتركتني اقاسي العذاب لفراقه الوسيم •

ويا ليتها قصفت حياتي معه . كي أكون مقترنة معه في الرميم •

ففي احدى الليالي المقمرة ذهبت لزيارة ضريحه كي اناجيه في الخلوة وأناغيه في سكون الليل البهيم •

أخذت له معي زهوراً كي أفرشها على لحده فتذكرني بزهو شبابه وأريج عرفه الكريم •

* * *

وصلت القبر فحييت الساكن فيه تحية فاضت لها دمعتي

قلت له : السلام . ايها الراقد بسلام . سلام على مهجتي •

كن اليفي في وحدتي . كن جليسي في وحشتي •

كن عزائي في كربتي ، كن هنائي في نعمتي •• » (١٤)

وهي طويلة متعددة المقاطع ، كل مقطع بقافية تختلف عن قافية

(١٣) اديب عراقي عمل في الصحافة خلال العقد الثالث من هـذا القرن اصدر مجلة الزنبقة سنه ١٩٢٢ التي اهتمت بالادب الحديث ،كما انها اول مجلة دافعت عن حقوق المراة في العراق .

(١٤) الزنبقة عدد ٤ سنة ١٩٢٢ ص ١٠٨ .

المقطع الذي يليه . وهي بمجموعها متكلفة لا يبدو عليها أن صاحبها استفاد من الحرية التي أتاحتها له هذه الطريقة .

وبعد غياب مجلة الزنبقة اهتمت مجلة الحربة التي صدرت بعدها بقليل بهذا الشعر المنثور فكثرت نماذجه وكلها على هذا النسق الذي تعرفنا عليه وكان بعضهم يذكر اسمه الصريح في حين كان الآخرون يلمحون او يكنون . ولكن مع هذا ومع كثرة النماذج فان هذا الشعر لم يثر ضجة ولم ينتقده أحد في حينه .

وفي هذه الفترة بالذات يأتي دور الزهاوي ويأخذ المهمة على عاتقه تحت اصطلاح جديد هو الشعر المرسل وهو اصطلاح يطلق على الشعر الموزون والذي لا يراعي القافية في حين يكون الشعر المنثور حر الوزن وخال من القافية كذلك .

ويكفي أن يأخذ الزهاوي المهمة على عاتقه ليحدث ذلك الأثر وتلك الضجة ، فللرجل مكانته وخطورته في عصره . وهنا تظهر المعركة العملية بين انصار هذا الفن ومخالفيه لتصل الى حد السب والشتم تعكسها صحف هذه الفترة حيث وقعت .

لقد دافع الزهاوي عن رأيه في الشعر المرسل — كما كان يسميه — في جريدة السياسة البغدادية . وأتبع هذا الرأي بقصيدة من هذا الشعر ، وقد قدمت الجريدة المذكورة لهـدا الرأي وتلك القصيدة بما يلي :

« الزهاوي يدعو الى التجديد في الشعر ويحمل على الأسلوب

القديم . القافية علة تأخر الشعر العربي ـ القضاء عليها ـ قصيدة له من هذا النوع » وهي مقدمه تمهيديه لرأي الزهاوي والذي جاء تحت عنوان (الشعر المرسل) . ونظراً لما لهذا الرأي من أهمية ننقله بالنص من جريدة السياسه : « القوافي قيود ثقيـلة في أرجل الشعر العربي يرسف فيها ولا يكاد يمشي حراً وكـم من شاعر خسر المعنى لانصرافه الى القافية أو نبده لما يكابد من صعوبتها . وآخر رصف القوافي رصفاً وأخذ يستخرج المعاني منها كأنها الحجر الاساسي لبناء ابياته . وما التزام شعرائنا للقافية إلا جموداً منهم على القديم الذي ألفوه جيلاً بعد جيل . وتهيباً منهم للجديد وان كان غض الشباب جميلاً . القافية وحدها سبب تقصير الشعر العربي عن اللحاق بالشعر الغربي وهي سبب فقدان الشعر القصصي عند العرب . هي سبب قلة الابتكار وتفاهة المعاني والموضوعات عند الشعراء العرب . وهي آفة الشعر العربي وعقبة الشاعر ... » .

وبعد هذه الثورة على القافية في الشعر العربي يبدأ الزهاوي بالتعليق على قصيدته هذه فيقول : « نظمت قصيدتي التالية مهملاً فيها القافية إلا في البيتين الأخيرين من كل حلقة منها وابقائي لها ، لأتدرج في نزعها من الاذهان بالتمام . وهي نموذج لما أستحسنه في القصيد من الارسال ، واني متحمل ما عسى أن يرد عليَّ أعداء الجديد مستعد لأن أرد على كل من يتحفز لنقده بالباطل ، ولا أحصر الشعر في بحور الخليل ، بل أترك للشاعر الخيار كل الخيار في ان ينظمه بأوزان الخليل

وغير الخليل مراعياً في انضباقه على الألحان الموسيقية فحسب » .

والزهاوي هنا يتوقع سلفا ما قد تحدثه هذه الآراء من ضجة لقوة المحافظين حينذاك وخطورة الآراء التي جاء بها ، فهو في الوقت الذي يستبعد القافية فانه يدعو الى الخروج على أوزان الخليل والاهتمام بالموسيقى فحسب خارج بحور الخليل . وقد يجد هذه الموسيقى في الأوزان التي تنظم عليها العامة أشعارهم . وقد يكون فيها من جمال الموسيقى ما لا يكون في الأوزان المعتادة للشعر العربي . وبعد الرأي المذكور يأتي الزهاوي بالقصيدة التالية :

في الصباح

قد شجتني حمامــة تتغنى — فوق غصن غض من الليمون

سجعت في الصباح اذ يثب النو — ر على النهر والربى والبطـاح

ورأتني أدنو فكفت عن السجع كمن خاف طارئاً قــد يضير

* * *

انما نحن يا حمــام سواء — فكلانا قد أبعد الدهر الفـه

وكلانا يرى الحياة شقــاء — وكلانا قد بات يرقب حتفــه

* * *

ياليلـــــى

أنت ياليــل كــل ما أتمنى — في حيــاتي وما تريــد الحياة

حلمي أنت في منامي وذكــرى — كلــه عند يقظتي من منامي

انني عنــك راحل وبرغمي — انني عنك راحــل فارحميني

* * *

كنت ألقى سعادة في دنـوي ‌ ‌ ‌ وسألقى في البعد عنك شقاءا
عانقيني فانـني لست أدري ‌ ‌ ‌ هـل اذا ما رحلت عنك أعود
وعسى أن يعود نحوك روحي ‌ ‌ ‌ يوم روحي تفك عنه القيود (١٥)

* * *

هذه هي قصيدة الزهاوي أربعه أبيات لا تلتزم بالقافية ، في حين نأتي بعدها ببيتين بهما قافيه . وقصده من هذا أن يتدرج الى انتزاع القافية دون أن يهجم عليها هجوماً مباشراً .

اننا لا ننظر الى هذه القصيدة من الناحيه الفنية اد ليس فيهـا ما يختلف عن شعر الزهاوي المقفى والموزون . تلك هي طبيعة الزهاوي وافكاره وشاعريته ونظمه . إنما ننظر اليها من الناحية التاريخية فحسب، وننظر اليها من حيث انها كانت مثار جدل شديد بين مؤيدي هذه الدعوة ومخالفيها . اذ يبدو من خلال هذه المعركة أن المحافظين كانت لهم قوتهم التي يستطيعون بها اسكات كل دعوه تخالف الشعر العربي المألوف ، حتى ان الزهاوي نفسه اضطر أن يتراجع الى حد ما أمام هذا التيار الجارف فقال « يسرني أن أرى ادباء العاصمـة يرهفون أقـلامهم ، ويخوضون عجاجة حرب قلمية تتعلق بحياة الأدب ، وباعث هذا النضال الذي أخذ يعلو ضجيجه هو القافية يغار عليها الاكثرون ويريدون بقاءها، ويدلون بالحجج ابتغاء تفنيد ما أوردته من الدلائل على كونها ليست من

---

(١٥) جريدة السياسه عدد ٧٤ سنة ١٩٢٥ .

الشعر وانما عقبه كأداء في سبيل نهضتنا الأدبيه .... قلت في السياسه اني لا أريد أن انتزع من الشعر ما يكون به الشعر شعراً وهو الوزن بل غايتي هي أن أنزع ما لصق به بحكم العادة من القافيه كذنب يجره وراءه أو كقيد ثقيل يرسف فيه . ونزعي للذنب لا يستلزم نزع سلسلته الفقريه . ونزعي للقيد لا يستوجب نزع الرجل نفسها معه . واني لأغار على الوزن اكثر من غيري لأن الشعر لا يتم إلا به . فالاحرى ان تطابق الاوزان عصرنا من الالحان الجديده . فكم من معنى جليل القدر اضطر الشاعر الى تركه لعدم وجود قافية تناسبه ، وهذا هو سر تأخر الشعر العربي عندنا » (١٦) .

ولم يقف الامر عند هذا الحد اذ يبدو أن الامر وصل الى حد المهاترات . فالمحافظون من القوة بحيث يستطيعون ان يألبوا الرأي العام على الزهاوي ويرمونه بالشعوبيه والحط من التراث العربي . فخرج الزهاوي عن طوره ووضع حداً فاصلاً لهذا الجدل وطلب من الجميع مؤيديه ومعارضيه ان ينسوا كل ما قاله الزهاوي في الشـــعر المرسل فقد نشر تحت عنوان (الى المتخاصمين حولي) جاء فيه : «كنت أحسب أن هناك نقداً نزيهاً تراد به خدمة الحقيقة ورفع شأن الأدب . واذا النقد تشويه لسمعة العراق . فاذا كانت هذه الشتائم من أجل ان المتشوقين قد فضلوا شعري على شعر غيري لحسن ظنهم بي ، فاني ممتن لهذه الطريقة . طريقة السب والقذف من المخالفين . الملتجئين اليها لأثبات

(١٦) جريدة العالم العربي عدد ٣٧٤ سنة ١٩٢٥ .

مدعاهم أعلن (مسالمة) آني أصغر الشعراء على الارض ذات العرض ، بل اني لست شاعرا . فليكف السبابون عن المفضلين اياي ، وليكف المفضلون عن محاربة السبابين . وعسى ان يكون في قولي هذا ردع لمقترفين ذنب الاساءة الى الادب في العصر العشرين » (١٧) . هذه اللهجة المتطرفة تدل دلالة واضحة على عنف الجدل الذي أثير بين الجماعتين .

ومن الذين أيدوا الزهاوي وساروا على طريقته في الشعر المرسل أي الاهتمام بالوزن دون القافية الاستاذ شكري الفضلي ، فقد دافع عن هذه الطريقة وجاء بقصيده لا تختلف عن تلك التي رأيناها عند الزهاوي فقد كتب في جريدة العراق تحت عنوان (الشعر المرسل) جاء فيه : « نشر شاعر العرب وفيلسوف الشرق الزهاوي الامام منذ سنتين بهذا العنوان قصيدة بلا قافية في صحيفة المؤيد المصرية فكان لها دوي استحسان في الاندية الادبية غير ان أعماله العلمية والادبية لم تسعه عن المواظبة في نشر مثل تلك القصائد العصماء التي تطلق الشاعر من قيد القافية فتتركه حرا في بيان شعوره واحساسه لا أسيرا لما يناسب القوافي من المعاني . ومبتكرا يترجم عن الطبيعة لا مقلدا لما تكرر من الافكار المبتذلة التي يمجها الادب العصري ويعافها العلم الصحيح وان الاستاذ عاد ونشر في صحيفة السياسة البغدادية مقالة في وجوب الاستئناس بالشعر المرسل وترك القافية لأنه يريد أن يمهد الطريق للشعور بالاحساس . وترك الشعراء مختارين في قول الشعر على أوزان

---

(١٧) جريدة العالم العربي عدد ٤٦١ سنة ١٩٢٥ .

الخليل المعروفة وعلى ما يرونه مناسبا في الالحان الموسيقية وعلى هذا فوجود القافية وعدمها سواء بالنظر لاستقامة الوزن . وهذا هو المطلوب لتخليص الشعراء من مصيبة القافيه التي أخرت الادب العربي • فاذا أنعمت النظر في دواوين الادباء المتقدمين تجد القصائد المتشابهة القوافي كأنها مسروقة بعضها من بعض . وها آنذا أقـدم الى القراء قطعة من الشعر المرسل تحت عنوان حمامة وهو :

كانت تنوح حمامة   والصبح مرآة ادكار
فتريك حاجتها الى   ألم التآلف والمعاش
حنت الى الف لها   ثم أتبعت أكلا وشربا
شر الطبيعة كامن   في قلبها الحر الصغير
فهوت اليها هره   في سرعة السهم المصيب
فتخبطتها بين أنياب   وأظفار حداد
وكأنما قتل الحمامة   لم يشرها بقتل
هذي الحياة وسيلة   للموت ليتك لم تكنها (١٨)

وهي كما ترى لا تختلف عن قصيدة الزهاوي من حيث اهتمامها بالوزن وعدم مراعاتها القافية ومن حيث ترتيب الاشطر ، كما أنه ليس فيها ما يدل على ان صاحبها استطاع ان يستفيد من الحرية التي منحتها له هذه الطريقة الجديدة . وربما كانت هذه النماذج سببا في تطرف مخالفي هذه الطريقة والحط من قيمتها وعندهم ان الفنان الموهوب

(١٨) جريدة العراق عدد ١٥٤٦ سنة ١٩٢٥ .

لا يمكن أن تقف امامه عقبة كالقافية لأنه بموهبته يستطيع أن يتخطى القيود فيبتكر ويبدع ليثير اعجاب الآخرين ومن ناحيتنا فلا نستطيع أن نستعرض آراء كل مخالفي هذا الشعر الجديد لكثرتها وتشابهها ،

وانما نكتفي برأي الشاعر المعروف الرصافي والذي جاء ردا على سؤال لمحرر جريدة الحريه « ما تقول في الشعر المنثور الذي ابتدعه اريحاني والشعر الذي سماه صاحبه بالشعر المرسل [١٩] ؟ — ج : الشعر لا يقال الا ليشد وبعبارة أخرى ليتغنى به فلا بد فيه من الوزن والقافية لان الغناء نغم وايقاع وهما لا يكونان الا على تقاطيع موازنة من الكلام . ولم نعهد أمة من الامم الغابرة ولا الحاضرة تغنت بشعر لا وزن فيه وغاية ما نراه من شعراء أوربا اليوم هو انهم يبعدون في القوافي ويتجوزون فيها ولا يهملونها بتاتا ، وكما يتجوزون في القوافي يتجوزون في الورن ايضا فلا يلتزمون في القصيدة الواحدة وزنا واحدا وهي تشبه الموشحات عند العرب . وأنا لم أطلع على الشعر الافرنجي لكني اطلعت على المتفرنجين من شعراء الاتراك الذين قلدوا الغرب تقليدا مطلقا فلم أر شعرهم خاليا من الوزن ومن القافية ولكنهم يبعدون فيها ويتجوزون . وجل ما يتجلى لي من هذا الشعر الذي يسميه صاحبه بالمرسل انما هو اقتران الرعونة بالشعر وخلط السخافة بالظرافة وادغام التفاهة بالنباهة وطلب السمعة من وراء البدعة ...

(١٩) المقصود هنا الزهاوي ، والشائع ان علاقة الزهاوي بالرصافي لم تكن على ما يرام .

اما الشعر المنثور العاري من الوزن والقافية فهو شعر بالمعنى الاعمأي هو شعر بمعانيه التي تفعل بالنفس ما يفعـــله الانشاد المقترن بالنغم والايقاع الا انه لا يتغنى به فعلا فهو اذن تقليد للشعر المنظوم منجهة الغاية ؛ وحبذا لو سمي الشعر المنثور بالشعر الصامت لعدم اقترانه بالغناء والرقص وسمي المنظوم بالناطق لاقترانه بذالك ... وأنا استحسن الشعر المنثور لأنه خير واسطه لاثارة القرائح والعواطف لكني لا أفضله على الشعر المنظوم » [٢٠] .

وهـــذه التفرقة يطغى عليهــا الجانب الشخصي على الاكثر لان ارصافي يخالف الزهاوي على طول الخط . ولكنه رأي يعبر عن آراء كثير من مخالفي هذه الطريقة الجديدة .

وبعد هذه الضجة الكبيرة لم نعد نعثر على نمـــادج من الشعر المرسل في الصحافة العراقية . كل ما هنالك شعر مترجم عن اللغـــات الاجنبية وبخاصة من الانكليزيه والفرنسيه . وكان يرافق هدا الشعر المنثور والمرسل ، لون آخر فيه الكثير من الطرافه والتجديد تنقـــله الصحافة العراقية لشعراء مصر وسوريا وبلاد المهجر . فلفت اتنباه القراء لما فيهمن رقة ظاهرة وافكار جديدة لم يعهدها الشعر العراقي من قبل.

من هذا الشعر ما كانت تنقله مجلة الحرية البغدادية للأستاد ابراهيم المازني . وكانت تسمي هدا الشعر وامثاله بالطريقة الجديدة في الشعر العربي .

(٢٠) مجلة الحرية عدد ١ ٢٠ سنة ١٩٢٥ ص ٥ .

ومن ذلك قول المازني تحت عنوان (محاورة صغيرة مع ابن لي بعد وفاة أمه) . ومنها :

لم أكلمه ولكن نظرتي
سألته أين أمك ؟
أين أمك ؟

وهو يهدي لي على عاداته
مد تولت كل يوم
كل يوم

فانثنى يبسط في وجهي الغصون
ولعمري كيف ذاك ؟
كيف ذاك ؟

قلت لما أمسكت وجهي يداه
أترى تملك حيلة ؟
أي حيلة

قال ما نعني بهذا يا أبتاه
قلت لا شيء أردته
ولثمته (٢١)

والذي لا شك فيه ان في هذه المقطوعة وأمثالها أفكاراً جديدة لا عهد للشعر العراقي بها . ذلك الشعر الذي يغلب عليه الجانب

---

(٢١) مجلة الحرية عدد ٣ سنة ١٩٢٤ ص ١٤١ .

انخطابي . والانغماس في الاحداث العامة . ولهدا فانه لا يمكن أن يمر من غير أن يحدث أثراً على القراء . وبخاصة حينما نعلم ان الصحف التي اهتمت بهدا الجديد في الادب والشعر كانت سوقها رائجة من أمثال مجلة الحريه والناشئة الجديده وجريده المفيد وغيرها الكثير .

وقريب من هذا ما كانت تنقله الصحف العراقية لشعراء المهجر امثال جبران ونعيمه وأبي ماضي وغيرهم . من ذلك هـذه القصيـدة لجبران :

سكن الليل وفي ثوب السكون — تختبي الاحـلام
وسعى البدر وللبـدر عيون — ترصـد الايام
فتعالي يا ابنـة الحقل نزور — كرمـة العشاق
علنـا نطفي بـذياك العصير — حرقـة الاشـواق
اسمعي البلبل مابـين الحقول — يسكب الالحـان
في فضاء نفضت فيـه التلول — نسمة الريحـان
لا تخافي يا فتاتي فالنجـوم — تكتـم الاخبـار
وضباب الليل في تلك الكروم — يحجب الاسـرار
لا تخافي فعروس الجن في — كهفهـا المسحور
هجعت سكرى وكادت تختفي — عن عيـون الحور (٢٢)

هذا الشعر لم يكن مجال تعليق المحافظـين في صحفهم لأنهم لا يستطيعون ان يجدوا اليه سبيلاً يحطون من قيمته ، موزون رغم

---

(٢٢) جريدة المفيـد عدد ١ سنه ١٩٢٢ .

اختلاف عدد التفعيلات الأمر الذي يكسب القصيدة ايقاعاً موسيقياً خاصاً . مقفى وان تعددت هذه القوافي وتنوعت ، فاذا تركنا الشكل وانتقلنا الى المضمون رأينا فيه كل الطرافه والابداع في خلق افكار جديدة لم تكن شائعة في شعرنا العراقي . لغة شعرية هامسة تتداعى فيها الافكار لتكون وحدة ظاهرة في التفكير .

وعلى اساس من هذا كله نستطيع القول : بأن حركة الشعر المنثور وحركه الشعر المرسل التي ظهرت في بدايه العقد الثالث من هذا القرن ، وحركة التجديد في الشعر العربي في مصر وسوريا وبلاد المهجر ، جميعها كانت أساساً لهذه الحركة التي ظهرت قوية بعد الحرب العالمية الثانية يضاف الى هذا كله انفتاح العراق على العالم العربي وتطلع الشباب على آدابهم واتقانهم للغاتهم كل هذا كون شعورا بالتغيير فلم يعودوا يهتمون بالاشكال القديمة . وصاروا يتطلعون الى طريقة جديدة يستطيعون معها ان ينشروا افكارهم بحرية ويسر .

ان كثيراً ممن تعاطوا الشعر الحر في العراق كانوا يعرفون لغات أجنبية تأثروا بها وبأدبها . وبخاصة رواد هذه الطريقة فالسياب كان يعرف الانكليزية جيداً . ويذكر الاستاذ لويس عوض « ان السياب قد عرف طريقه واضحا الى الادب الرومانسي والاوربي ولاسيما عند شيلي وكيتس ... حتى لقد دفعه التغلغل في التجربة الرومانسية الى محاولة معارضة هذين الشاعرين معارضة جريئة سافرة ، انظر الى قصيدة السياب (اتبعيني) وقصيـــدة شيلي المشهورة (اتبعيني اتبعيني)

فقصيدة السياب بمثابة تنويعات على قصيدة شيلي »[٢٣] .

وقل مثل هذا في الشاعرة نازك الملائكة والبياتي وغيرهم ، ممن توخوا هذه الطريقة التي تخلصهم من قيود اللغة وقيود الشعر العربي المتمثلة في الوزن والقافية . يدلنا على ذلك ان هؤلاء الرواد بدءوا حياتهم الشعرية وهم ينظمون على الطريقة الشعرية القديمة . وقد حفلت الصحافة العراقية بنماذج كثيرة من قصائد للسياب ونازك والبياتي وكلها تسير على عمود الشعر العربي قبل أن يتعاطوا هذه الطريقة الجديدة .

يصرح غير واحد من هؤلاء الرواد أن العصر الحديث بما فيه من قيم ومعايير حضارية جديدة أوجب بأن يكون لها عديل فني في الشكل والمضمون وأن القالب القديم للقصيدة العربية لم يعد يواكب كل هذه التطورات الهائلة في حياتنا الحديثة . ولهذا فلابد من طريقة جديدة تستطيع أن تتسع لهذه الافكار .

والشعر العربي بما فيه من قيود لا يمكن إلا ان يكون حاجزاً صناعياً يحول دون تحول هذه الافكار الى لغة يسهل التعبير بها وبهذا يصبح الشاعر أسير هذه القيود المصطنعة . ويفقد تبعاً لذلك الحرية التي لا يمكن لأديب ان يحيا بدونها . وعندهم ان القافية كثيراً ماتضطرهم الى الابتعاد عما فكروا به أصلاً . ففي الوقت الذي ينهمك فيه الشاعر في اقتناص اللفظة الملائمة للقافية يكون قد نسى الفكرة التي أرادها أن

(٢٣) لويس عوض — الثورة والادب — ص ٤١ .

تسكن للغة . وبهذا نضيع الفائدة المتوخاه . بل ربما وضع الشاعر قلمه بعد ضياع فكرته بفعل هذا القيد الصناعي . وفي حالة استمراره فانه سيقضي حتماً على الوحده الفنية في القصيدة فيضطر الى الدخول في متاهات لم يكن ليريدها لو سارت المسألة بصورة طبيعية • ومن هنا تتعدد الموضوعات في القصيدة الواحدة ولم تعد تملك ذلك التأثير القوي على القارىء والسامع وفي هذا كله ايقاف لنسو الأدب ونضوب الفكر •

وهذا ما نراه واضحاً في حجج انصار هذه الطريقة يقول السياب « لقد أصبح الشاعر الحديث يطمح الى ان يجعل القصيدة وحدة متماسكة الاجزاء بحيث لو قدمت أو أخرت في ابياتها لأختلت القصيدة وفقدت جزءاً من تأثيرها فهل يسمح الشاعر الحديث للقافية الموحدة بأن تكون حجرة عثرة في سبيله هذا . لقد شبعنا من تلك القوالب التي تفرضهاالقافيه » (٢٤) •

وفي هذا تعميم قد لا يصدق على نماذج كثيرة في أدبنا العربي ، وقد اثبت بعض المحدثين ومنهم الاستاذ الدكتور لطفي عبد البديع خطل الرأي القائل بوحدة البيت لا وحدة القصيدة في شعرنا العربي (٢٥) الذي يسير على نظام البحر الموحد والقافية الموحدة ، ولهذا فان القافية قد لا تملك كل تلك السطوة عند الشعراء الموهوبين ، وربما تكون

(٢٤) عبد الجبار البصري ــ بدر شاكر السياب رائد الشعر الحر ــ ص ٨٧ .

(٢٥) انظر كتاب الشعر واللغة .

اضحة الأثر لدى كثير من الشعراء دوي المواهب المتوسطة والضعيفة .
ـدين لم تمكنهم ثروتهم اللغويه والادبية من التعبير بحرية تامة عن
ـكارهم . وربما يجدون صعوبة في ايجاد عديل لفظي يتسع للفكرة التي
ريدون ان يطوعوها للغه . وليس المقصود هنا بالالفاظ التي تحتويها
ـعاجم اللغه . انما نعني بها الالفاظ التي تحمل لغة شاعريه فيها شحنات
لا تعطي نفسها إلا حيث وضعت في مكانها الملائم . فثروة الاديب اللغوية
هي معيار فكره وثقافته وكلما كانت هذه المفردات كثيرة كان حظه في
التعبير أكثر . وحينئذ قد لا تقف في وجهه عقبه معينه كالقافية مثلاً ،
ولسنا هنا بصدد الدفاع عن رأى بعينه لأن كثيراً ممن تعاطوا هذا الفن
ظهر أنهم لم يستطيعوا أن يستفيدوا من هذه الحريه التي هيؤها لأنفسهم .

وعلى كل حال فان أصحاب هذه الطريقة الجديده وجهوا أكثر
هجومهم الى القافيه واعتبروها مشكلة عويصة تقف امام افكارهم وانها
كانت سبباً مهماً في تعاطي هذه الطريقه الجديدة ، تقول نازك الملائكة
« ... نحن مازلنا اسرى تسيرنا القواعد التي وضعها أسلافنا في الجاهلية
والاسلام ، ما زلنا نلهث في قصائدنا ونجر عواطفنا المقيدة بسلاسل
الاوزان القديمة وفرقعة الالفاظ الميتة وسدى يحاول أفراد منـــا أن
يخالفوا فاذ ذاك يتصدى لهم الف غيور على اللغة وألف حريص على
التقاليد الشعرية التي ابتكرها واحد قديم أدرك ما يناسب زمانه فجمدنا
نحن ما ابتكر واتخذناه سنة . كأن سلامة اللغة لا تتم إلا ان هي
جمدت على ما كانت عليه منذ الف عام .... أما القافية ذلك الحجر

الذي تلقمه الطريقه القديمه كل بيت فكانت سبباً في خلو الادب العربي من الملاحم . وليس هذا مكان الحديث عن الخسائر الفادحة التي أنزلتها القافيه بالشعر العربي طيلة عصوره بل هي تفضي على القصيدة لوناً رتيبا على السامع فضلا عما تثير في نفسه من شعور بتكلف الشاعر وقصيدته للقافيه . ومن المؤكد ان القافيه الموحده قد خنقت أحاسيس كثيرة ووأدت معاني لا حصر لها في صدور الشعراء . وهذه الفورة قابلة للخمود لدى أول عائق يعترض سبيلها . والقافيه الموحدة هي العائق ... ولذلك فلما نجد في أدبنا القديم قصائد موحدة الفكرة » [٢٦] .

والذي نراه من هذا الهجوم على القافيه . انه ينطبق الى حد بعيد على أولئك الشعراء الذين يجدون انفسهم أكثر مما يضيقون بغية اصطياد القافية الملائمه . عبثاً يحاول أمثال هؤلاء أن يكونوا من الشعراء لأنهم سيجدون أنفسهم في مدى تجربه واحدة او تجربتين أن هنالك حواجز تمنعهم من أن يكونوا شعراء . اما اذا واصلوا السير فلن يكون شعرهم غير نظم متكلف لا أثر فيه للشاعرية او خلق افكار جديدة فيها من الخلق الشيء الكثير . وربما كانت هذه الزمرة من الشعراء هم الذين حولوا الشعر الى مجرد نظم . وربما كان المعجبون بهذا الشعر هم الذين عناهم الاستاذ عبد الوهاب البياتي في هجومه الكاسح على الشعر التقليدي واصحابه وقرائه حين قال : « هؤلاء الشعراء المساكين الذين لا يزالون يجلسون مزجر الكلب من مائدة الشنفرى والبحتري والحارث

(٢٦) نازك الملائكه — ديوان شظايا ورماد — ص ٨ .

ابن حلزة وعيونهم جاحظة ولعابهم يسيل ولا يزالون يتصيدون أوزانهم وقوافيهم لينالوا اعجاب بائع باذنجان خائب أو حبيبة وهمية أو ممدوح عاهر بطين في عصر مليء بالبطولات والانقلابات وفي أرضنا الطيبة وفي شرقنا العربي وفي القرن العشرين أيضا لا يزال مئات ومئات من صيادي الذباب ينظمون ويهرفون فمن لنا باحراقهم واحراق شعرهم وذبابهم . وأعود الى رعش الذباب القافية والى الوزن والايقاع فأقول انه آن لنا ان نقضي عليهما قدر الامكان لأنهما لم يعودا مواتيين لتجاربنا الحديثه ولأزمه ضميرنا وحريتنا وان الاكتشافات أو الاصقاع الباهرة المجهولة العسيقة المضيئة التي زنادها الفنان اليوناني أو الصيني القديم انطفأ على ابواب مستحيلها أغلب أجدادنا . وكل الجنايه في هذا تقع على رقبة عمود الشعر » (٢٧) .

تحامل غريب على الشعر العربي مع أنه يعبر عن مرحلة فكريه وثقافية معينة . واذا كان في هذا التحامل ما ينطبق على النظامين في شعرنا الحديث أولئك الذين يعجبون بائع الباذنجان ومن هم على شاكلته ، هؤلاء الذين ما زالت ثقافتهم واحدة لم تتبدل . فتحولوا الى معلمين وخطباء ينصحون ويعظون . ومع هذا فانهم يجدون من يسمع هذه النصيحة وذلك الوعظ ويعجبون بهذا كله . وعندهم ان من العبث أن يشغل المرء نفسه بقراءة كتـــاب في الفلسفة أو أن يتلهى بقـــراءة كتاب في علم النفس أو في السياسة والقصة أو أي أدب اجنبي مستورد.

(٢٧) مجلة النجف عدد ٢ سنة ١٩٥٦ .

هم قانعون بهذا التراث فحسب فجسدوه وجمدوا عنده .

والنقطة الثانية التي كثر الجدل حولها بين مؤيدي ومخالفي هذه الطريقة الجديدة هي مسألة الوزن . فأصحاب هذه الطريقة يذكرون غير مرة أنهم سئموا الرتابة المملة التي يحدثها الوزن في القصيدة الواحدة . ولهذا فلا بد من تعبير في بعض التفعيلات داخل البحر الواحد مع الابقاء على البحر في قصيدة بعينها . والحقيقة التي يلاحظها المدقق حول هذه النقطة بالذات هي ان شعراء هذه الطريقة لم يتفقوا حتى الآن حول هذه المسألة . وان النماذج التي بين أيدينا لا تدل في اكثرها على ان هناك منهجاً او نظرية معينة طبقت بصورة عملية ، فبينما نرى أن أكثرهم لا يهتمون بالوزن . ويفهمون هذا الشعر على أنه تحرر في كل شيء وثورة على كل قيد ونظام . وأنه من غير المعقول ان ندعو للحرية ومن ثم نكبل انفسنا بقيود نحن الذين دعونا لازالتها ، نرى الاخرين وهم رواد هذا الفن قد وضعوا لانفسهم نظرية طبقوها بصورة عملية على شعرهم .

ولهذا صرنا نجد فريقين ، الفريق الاول ويمثله الكثيرون من الشباب ينظرون الى هذا الفن على أنه حرية مطلقة فكانت نماذجهم مثالا سيئا لهذا الفن الجديد ، كقول أحدهم :

زعيمنا عبقري

جسر عظيم

فيا مدعي القومية

كنت عبدا أو شبيها بالعبد

وأنت اليوم حـر

فمـاذا تريـد

تدعي القوميـــة

وأنت من أيتـام

نوري السعيد (٣٨)

أمثال هذا الشعر كثير لا يمكن أن نأتي عليه . الامر الذي يجعلنا نعتقد ان الكثيرين ممن تعاطوا هذا الشعر كانوا ينظرون الى شـكله الهندسي . مقاطع قصيرة قد تكون كلمة واحده . ومقاطع طويلة قـد تكون عـدة كلمات مرتبة بعضها مـع بعض ولا شيء بعـد ذلك . هكذا كان ينظر اليه البعض حتى لقد تعاطاه طلبة المدارس في المرحـله الاعداديه والمتوسطه فامتلأت الصحافه بهذا الشعر . في وقت لا تملك فيه هؤلاء أية خبرة تؤهلهم حتى لمجرد القول فكانوا سببا في الاساءة اليه . بل ان رواده اضطروا غير مره لاستنكار هذه النماذج باعتبارها ليست من الشعر الحر . مجـرد اندفاع لا يستند على أساس . قال جريدة اليقظة وهي تعلق على هذه النماذج وأصحابها « الظاهرة البارزه أن معظم المندفعين بتيار هذه الحركه الجـديدة هم من الشباب الذين لم تتمزق أقدامهم في دروب الشعر الشائكة . وفي مثل هذه السن الغضه تبدو القمة من السفح على مدى قفزة واحدة . ومن خصائص الفتوه

(٣٨) جريدة البلاد عدد ٥٤٤١ سنة ١٩٥٩ .

أنها تضيق بالطريق الصويله . وفي حسها تبدو عمليــة الاختصار امرا سهلا وواجبا . ولست اجد أقرب من هذا تفسيرا لهذه الاندفاعة وراء حركة الشعر الحر ... ولسنا نعرف حركة تجــديديه بدأت بتطبيق واسع قبل أن تبدأ بنظريه » (٢٩) .

هذه الاندفاعة أوجدت فيضا عزيرا قد لا يبشر بمستقبل باهر لهذا الشعر اذا استمر كما هي عليه الان ذكرت نازك الملائكة في مجـــلة الآداب البيروتيه وهي تعلق على هذه البلبله التي احدثها هؤلاء الطارئون فقالت « ان أكثر الشعراء الذين أقدموا عــلى الشعر الحر بحماسة . لا يعرفون حتى الآن الغرض منها ... والحق يقال انه اذا كانت ثمان سنوات من الشعر الحر لم تصح شعراءنا من الســكرة الاولى التي جاءت بها فرحة الحريه فان الامر لا يبشر بالخير الكثير ... لقد نظرت في قصائد عدد ديسمبر من مجلة الآداب فوجدت تسع قصائد حـرة الاوزان من مجموع عشر ... » (٣٠) .

ولم تكن هذه الصرخة الا صدى لهذا الفيض الغزير من الشعر الحديث الذي لا يدل على ان اصــحابه يعرفون ماذا يقولون ، تسعة قصائد من مجموع عشرة حرة الاوزان ، ومع هــــذا فانهم يعتبرونه شعرا حرا .

والحقيقة التي لا يستطيع الباحث في هذا الشعر ان يتناساهــا ،

(٢٩) جريدة اليقظة عدد ١٩٥٥ سنة ١٩٥٤ .

(٣٠) مجلة الاداب عدد ٢ سنة ١٩٥٨ .

هي ان نازك الملائكة كانت خير من وضع أصول هـذا الفن من حيث الوزن وطبقته تطبيقا عمليا على شعرها . ففي الوقت الذي التزم فيـه السياب بالوزن لكنه مع هذا لم يشرح في يوم من الايام طريقته هـذه بل اكتفى بالقول : ان هذا الشعر يمضي على الاوزان الطويلة ويستعيض عنها بالبحور القصيرة دون أن يدعو الى تعـدد الاوزان في القصيدة الواحدة (٣١) . في حين كانت نازك الملائكة موفقة في شرح طريقتهـا التي سارت عليها وفي تحديد ابعاد هذا الشعر ونظامه الذي يقوم عليه وبهذا تكون أول من فسر هذه النظرية بصورة عملية ووضعت لذلك كله قواعد واصولا . تقوم على الحرية في التلاعب بعـدد التفعيلات في القصيدة الواحدة داخل البحر الواحد . فالمعروف أن الخليـل بن أحمد وضع لكل بحر تفعيلات معينة . لا يجوز تخطيها بحال من الاحوال اما هذا الشعر فانه يعطي الحرية للشاعر في نطاق البحر الواحد ، وهي حرية لا تقضي على نظام البحر في الشعر العربي او على ابدال التفعيلة بأخرى . بل تتـلاعب بها وتجعلها داخله ضمن اطار ذلك البحـر . وبمعنى أدق فبدلا من أن يتكون الشطر من ثلاث تفعيلات أو أربع قد يتكون من تفعيلة واحدة او تفعيلتين . ولكي نكون أكثر دقة ننقـل ما قالته نازك الملائكة بالنص في مقـدمة ديوانها شظايا ورماد « انني احسست أن هذا الاسلوب الجديد في ترتيب تفاعيل الخليل يطلق جناح الشاعر من ألف قيد . فالابيات التالية من المتقارب وهي ترتكز عـلى

---

(٣١) انظر مقدمة ديوان اساطير .

تفعيله واحده وهي (فعولن) :

يداك للمس النجــوم
ونسج الغيـــوم
يداك لجســع الظــلام
وتشييد يوتوبيــا في الرمال

تراني لو كنت استعمل أسلوب الخليل كنت استطيع التعبير عن المعنى بهذا الايجاز وهذه السهولة ؟ ألف لا . فأنا مضطرة أن اتمم اذ ذاك بيتا له شطران . فأتكلف معاني أخرى أملأ بها المكان وربمـا جاء البيت الاول بعد ذلك كما يلي :

يداك للمس النجوم الوضاء   ونسج الغمـام ملئ السماء

وهي صورة جنى عليها نظام الشطرين جنايه كبيرة، هذا اذا أخذنا المتقارب . اما الطويل فالبليه أعمق وأمر . اذ ذاك تطــول العكازات وتتسع الرقع ويتكسر المعنى انكسارا مهينا فنقول :

يداك للمس النجم او نسج غيمـة   يسيرها الاعصار في كل مشرق

هذا الاسلوب الجديد ليس فيه خروج على طريقة الخليل ، وانما هو تعديل لها يتطلبه تطور المعاني والاساليب خـــلال العصور التي تفصلنا عن الخليل . فالخليل جعل الكامــل متفاعلن متفاعلن متفاعلن ثلاث في الشطر الاول وثلاث في الشطر الثاني . وكل ما نستطيع نحن الان . ان نتلاعب بعدد التفاعيل وترتيبها فتجيء القصيدة من هـــذا البحر أحيانا كقصيدة (جدران وظلال) وهذا مقطع منها :

وهناك في الاعماق شيء جامـد
حجزت بلادته المساء عن النهـار
شـيء رهيب بارد
يدعي جدار
أواه لو هـدم الجـدار

« ولو قطعناه لجاءت تفعيلاته كما يلي : ثلاث ، ثلاث ، اثنتان ، واحدة ، اثنتان . وميزة هذه الطريقة انها تحرر الشاعر من عبودية الشطرين » [٣٢] .

وقد نشرت نازك الكثير من هذه التطبيقات في الصحف وبخاصة في مجلة الآداب اللبنانية ولم نعثر على مثل هذه التطبيقات لشاعر آخر يسير على هـذه الطريقة .

يدعي أكثر شعراء هذه الطريقة ان قيود الوزن والقافية هي التي منعت الشعراء العرب من الاتيان بأعمال خالدة . ويستدلون على ذلك بخلو الادب العربي من الملاحم او الشعر المسرحي وغيرهمـا ، وربما أوحى هـذا الادعاء أنهم بصـدد خلق نماذج عن طريق هـذه الحرية التي تهيأت لهم في الشعر الحر ، ولكن مع هذا وحتى الآن فليس في انتاجهم ما يدل على وجود شيء من ذلك بل اننا لو جمعنا كل ماقيل في الشعر الحر لرأينا أن أكثره لا يخرج عن مقطعات لا يربو متوسطها

(٣٢) انظر مقدمة ديوان شظايا ورماد لنازك الملائكة .

عن الثلاثين شطرا أقل أو اكثر [٣٣] تطغى عليها العنصر الذاتي • كما كان كثير منهم يموه ويلغز بحجـة أنـه رمزي حتى تعذر على كثير من القراء فك هذه الطلاسم . واذا ما رفعوا أصواتهم مطالبين بالايضاح جوبهوا بهجوم مرير من أصحابه بحجة انهم سطحيون جامدون ومن ذلك ما نشرته مجلة النشاط الثقافي :

اليها مزقت أهابي
وسرت
عليهـا زرعت نيابي
وفيها وراء الحصا والتراب
عندي ومصيري بذرب
اليهـا انتف نفسي
وأمشي •
عليها •• لاصنع مهدي
ونعشي
وأحفر رمسي

(٣٣) لقد شذ عن هؤلاء الاستاذ بدر شاكر السياب فقد نشرت له مجلة البيان النجفية قصيدتين الاولى فى العدد ٦٥ تحت عنوان (ستار) تتكون من سبعة مقاطع كل مقطع بأكثر من عشرة اشطر ، والثانيـة في العدد ٧٣ تتكون من احد عشر مقطعا لا تزيد فى اشطرها عن الاولى ، وهو فى كلتا القصيدتين يتعرض لاوضاع العراق فى العهد الملكي .

وأبقى بلا ريشة حرة

تسلخ جــلدي (٣٤)

ولا شك أن القاريء سيجد أن الفاظا بعينها قد حشرت حشرا مع ما فيها من نبو على السمع لوضع الكلمة في غير موضعها الملائم . مزقت أهابي . زرعت ثيابي . تسلخ جلدي ... اننا في كثير من الاحيان ننظر الى الغموض الذي يأتي في اشعار بعضهم لا على أنه ناشيء من عمق الفكرة بل من سوء تصرفهم في اللغة واستعمال المفردات في غير مكانها الصحيح . حتى ان بعضهم كان يبتدع اشتقاقات لا وجود لها في اللغة أصلا . وهذا يجعلنا نعتقد ان الحرية تعدت حــدود الوزن والقافية لتصل الى صميم اللغه ذاتها يتلاعبون بها حيث أرادوا وان خرجت عن الاستعمال الصحيح في لغتنا العربية كقول أحدهم :

غدا يعــود سيدي

شراعه كغيمة بيضاء عند الشفق

أعرفه متى يلوح ، كيف لا ؟

خيوطه أنا الغزلتها أصابعي

سيعود أهــلا

من المجاهل الوراء قبرص الحبيبة .

وقد علق على هذه القصيدة احد اللغويين المعروفين وهو الاستاذ

(٣٤) مجلة النشاط الثقافي عدد ٦ ـ ٧ سنه ١٩٥٨ ص ٣٥٤ وانظر تعليق الشيخ عبد الهادي العصامي على هذه القصيدة بالذات .

ابراهيم السامرائي فذكر قائلا « ولا ندري من أين جاء بهذه (الغزلتها يدي) ولا هذه المجاهل الوراء قبرص الحبيبة » (٣٥) .

حسنا فاذا كانت المسألة على طريقة يجوز للشاعر مالا يجوز لغيره ففي هذه الحالة تنتفي أهمية هذا الشعر لانتفاء الحاجة اليه .

ومع هـــذا فقد أغرق أكثر شعراء هذه الطريقة في الالتزام . وجعلوا من شعرهم وسيله لخدمة فكره سياسية معينة كما هو الحال في القصيدة العربية التي تعرفنا على نماذج منها في الفصل السابق . لقد ادخلوا شعرهم في حياة السياسه وراحوا يعالجون موضوعات يغلب عليها طابع التشابه والفرق بين هذا الشعر وذلك أن القصيدة العربية تغلب عليها الخطابية والاسلوب التقريري الذي يحمل طابع الهجوم المباشر ، في حين هيأت الحرية الجديدة لصاحبها ان ينساب هامسا الى نفوسنا ويجعلنا اكثر ايمانا ورسوخا فيما نقرأ ، وهنـاك فرق بين ثورة تأتي من الخارج وأخرى تنبع من الاعماق كقول البياتي:

الا يا قطار الشمال البعيـد
الى شرق برلين عجـل بنـا
فعما قليل يشق السـماء
هتاف الجماهير (أنا هنـا)
وغاب رفيق القطـار
ومنديلها لم يزل في يدي

---

(٣٥) مجلة المعلم الجديد عدد ٣ ، ٤ سنة ١٩٦٠ ص ٢٠٤ .

وسروتها تصنع الاغنيــــات
عصافيرها بانتظار الغــد
وأفات أخـــوتي الجائعين
وشعبي الحزين
تلاحقني
يا رفيق النضال
طوال الليال
وفي وطني يقتلون الرجال (٣٦)

ان المكاسب التي حققها هذا الشعر . اذا نظرنا اليها من خلال انتاج رواده من آمثال السياب ونازك والبياتي لا يمكن التقليل من آثرها ، فقد منحوا الالفاظ الكثير من الافكار والمعاني بفعل استعمالاتها الجديدة . كما قضي على الرتابة المملة التي تحدثها القافية الموحدة والوزن الموحد . كالذي نراه في قصيدة السياب : (السوق القديم) :

« الليل والسوق القديم
خفتت به الاصوات الاغمغمات العابرين
وخطى الغريب وما تبث الريح من نغم حزين .
في ذلك الليل البهيم
الليل والسوق القديم وغمغمات العابرين
والنور تعصره المصابيح الحزانى في شحوب

(٣٦) الثقافة الجديدة عدد ٣ سنة ١٩٥٨ ص ١٢٥ .

مثل الضباب على الطريق
في كل حانوت عتيق
بين الوجوه الشاحبات كأنه نغم يذوب .
في ذلك السوق القديم » (٣٧)

مشهد بالغ الكآبة في منظر هذا السوق الذي يحكي لنا مأساة انسانية تكمن وراء ظواهر الأمور . ولغة شاعرة تنطق بالحركة وتشعر بأن تغييراً ما سيحدث . يتمثل في هذه الغمغمات العابرة التي حرمت الحرية فصار عابها ان تهمس حتى لا يفتضح أمرها قبل أن تصل الى ما تريد . وهذا النغم الحزين الذي نبته الريح . وهذا البصيص من النور الذي تعصره المصابيح الناحبة فى الطريق . كلها نذير حدوث شيء ما . لم يعد التشبيه الحسي الراكد والاستعارة المتكلفة هي كل ما يركض اليه بعض رواد هذا الفن . بل صور حية ناطقة يلفها احساس إنساني عميق . ق

أما حجج محالفي هذه الطريقة . فالظاهر أنهم متفقون على رأي واحد يكررونه ويلهجون به حيثما كانوا . وعندهم أن هذا الشعر لا يمت الى التراث بصلة . وأن اصحابه يريدون القضاء على التراث العربي والثقافة العربية . وهم شعوبيون يحملون فكرة غريبة تشبعوا بها ودعوا اليها . يستوردون جل بضاعتهم من أوربا التي تريد أن تقضي على مثاننا ومقدساتنا . وأن ما جاء به المجددون لم يكن غير تعبير مائع يحمل روح

٣٧) مجلة البيان عدد ٧٣ سنة ١٩٥٠ ص ٨١ .

الفرنجه والتخنث : « وفريق احتكوا بالغرب فراحوا ينادون بالتجديد ونبذ كل قديم واستبدال الاثواب القديمة باثواب جديدة يستوردونها من مصانع أوربا . ونحوا بالكلام الى اللفظ الرقيق والتعبير المائع والفرنجة اللغوية والباس المعاني الغربية بأثواب عربية مهلهلة ولو كان في ذلك شذوذ في التعبير وركاكة الاسلوب وتحميل الالفاظ فوق طاقتها والخروج على كثير من قواعد اللغة ومألوف العرب في الاستعمال ... » [٣٨] . وهو كلام عام غير مستند على النصوص ولا مطبق عليها. وأكثر الذين انتقدوا هذه الطريقة . هم على الاغلب شعراء يسيرون على الطريقة التقليدية القديمة والذين يؤثرون هذه الاشكال على ما سواها .

لقد وقف هؤلاء بصلابة أمام الاتجاه الجديد وراحوا يحطون من قيمته ولا يعترفون به كشعر . من ذلك ما قال الشاعر العراقي حافظ جميل « ان ما قرأته في الشعر الحر غير ملتزم بالقافية الواحدة بل يجمع عدة قواف في القصيدة الواحدة . كما لا يلتزم بوزن واحد بل بعدة أوزان ولا أدرى كيف يصح ان نسميه شعرا . والشعر هو ما التزم بالتفعيلة والقافية وما شذ عنه فلا يسمى شعرا . ولا أدري لماذا نصر على أن نسميه شعراً ولا نسميه نثراً فليس النثر أقل درجة من الشعر في تأدية الاغراض » [٣٩] .

---

(٣٨) مجلة المعلم الجديد عدد ٢ سنه ١٩٤٨ .

(٣٩) مجلة الفكر عــدد ٢ سـنه ١٩٥٨ .

تلك هي أهم حججهم . الوزن والقافية وإلا تحول الشعر الى نثر .
ويذكر آخرون ومنهم الشاعر محسود الحبوبي أن جل الذين تعاطوا هذا الشعر هم من الشباب الذين يجهلون العربية نحوا وصرفاً وتركيباً ولهذا جاء شعرهم مشحونا بالأخطاء « أظن ان السبب الذي حدا ببعض الشباب الناشئين الى مزاولة هذا اللون الجديد من الادب هو سهولة تعاطيه لأنه لا يلزمهم بسعة الاطلاع على اللغه ومفرداتها والوقوف على أصولها وقواعدها فهو مشحون بالاخطاء الفاضحة » وقد يكون في ذلك شيء من الصحه اذا نظرنا الى هذا الشعر من خلال هذا الفيض الغزير الذي تعاطاه شباب لا يعرفون من أصوله إلا هذه الحريه المطلقة فأساءوا الى الفن اساءة بالغة الأمر الذي أوجدوا ورقة رابحة بيد أعداءه .

وذهب بعض مخالفي هذا الشعر الى انه ظاهرة عابرة تزول بزوال أسبابها ولا يمكن ان تدوم على المدى البعيد لانتفاء الحاجة اليها « لعل مبعث هذا الشعر هو الفوضى الاجتماعيه والاضطراب النفسي الذي يأتي بعد الرجات الاجتماعيه او العالمية فلا يتحمل المرء وطأة الصبر والجلاد لضعف في النفس المضطربة القلقة وهذا سبب تراه جديراً بالبحث ، لأن أكثر شعراء المرسل من ضعاف التعبير لا يقدر على مجاراة الاقوياء ، فيزمجر ويثور ، فضعيف الثقافة يشعر بالنقص اذا لم يستطع مسايرة الركب الادبي السريع » (٤٠) ومحاولة ارجاع هذه الظاهرة الى الفوضى الاجتماعية والاضطراب النفسي الذي يأتي بعد الرجات ، قد

---

٤٠. جريدة لواء الاستقلال عدد ١٩٥٦ .

لا يكون بعيدا عن الصواب فالنظرة الى التغيير في القيم كثيراً ما تصاحب
الظواهر الانقلابية والثورات التي تريد تغيير أوضاع معتادة ضجر
منها الناس ولم يعودوا يألفونها لأنهم لم يجدوا ما يغريهم بها . فيلتجئون
الى تجربة معايير جديدة تلائم الحياة المتجددة . فالحرية التي أتاحتها
ظروف عصرنا الحديث أوجدت قلقاً فكرياً في كثير من البلاد النامية
تصاحب فترات التحول تلك . فينشأ من هذا كله جيل قلق . بعضه يرى
في هذا التحول صورة قاتمة تقضي على المثل والمقدسات التي ألفوها
أجيالا طويلة . وبعضه يرى أن هذا التحول أمر حتمي تقتضيه طبيعة
الحياة لكنه من ناحية أخرى محافظ بكثير من العقبات التي تحد من
نشاطه واندفاعه وتحاول ايقافه حيث هو .

وهذا ما نلاحظه في أدبنا الحديث خلال محاولة التعبير . يذكر
الاستاذ يوسف الخال في محاضرة له عن الادب العربي الحديث
والصعوبات التي يلاقيها بعض الادباء المتحررين في هذه الفترة بالذات
فيقول « فاجأنا العالم الحديث بعد الحرب الكونية الاولى . على ان
العالم الحديث لم يصبح عالمنا بالفعل إلا بزوال السلطة العثمانية عن
ربوعنا . ولكن أن يصبح العالم الحديث عالمنا أي لا يقوم بيننا وبينه
حاجز لا يعني تماماً اننا أصبحنا فيه ... هذا التناقض بين كوننا شكلاً
في العالم الحديث وكوننا جوهراً خارجه يضطرنا نحن الادباء العرب
الى معاناة قضايا مجتمع قديم في عالم حديث . في التعبير عن معاناتنا
الاولى نعرض أنفسنا لانتاج أدب يجده القاريء الحديث بعيداً عن

قضاياه ومشاكله • وفي التعبير عن معاناتنا الثانية نعرض أنفسنا من جهة أخرى لأنتاج أدب يجده القاريء العربي مستورداً غريباً »[٤١] •

أما النقطة الثانية التي آثارتها جريدة لواء الاستقلال بالنسبةللشعر الحر وأصحابه حيسما وصفتهم الجريدة بضعاف التعبير الذين لا يقدرون على مجاراة الاقوياء . ففيه تحامل لا مبرر له . فليس كل شعراءالقصيدة التقليدية من الاقوياء الذين لا يجارون . كما انه ليس كل أصحاب الطريقة الجديدة من ضعاف التعبير وناقصي الثقافة . ففي انتاج رواد هذا الفن ما يدل على وجود افكار عميقة لم يعهدها الشعر العراقي من قبل . وهم فوق هذا متمتعون ثقافة عصرية ويعرفون لغة أخرى بالاضافة الى لغتهم التي اتقنوها دراسة واختصاصاً . الأمر الذي أضفى على شعرهم صفة العمق والخلق ونفخوا الشعر لغة خاصة به يستطيع أن يجدها القاريء في اكثر آثارهم •

وأخيرا وبعد هذا كله نستطيع ان نقول أن الصحافة هي التي احتضنت هذا الشعر . وذلك منذ أول قصيدة قيلت فيه ، فكانت الوعاء الطبيعي لكل ما قيل فيه من آراء . مؤيدة ومخالفة ، نظراً لما له من علاقة بالقضايا العامة والتي هي مهمة الصحافة الاولى ، وأن الباحث الذي يتناسى دورها سيكون حكمه ناقصاً الى حد بعيد •

---

(٤١) منشورات اضواء — الاديب العربي المعاصر — ص ٧ •

الخــــلاصة

ان دراسه الظواهر الأدبيه من خلال الصحافة . آمر يقتضي دراسة الظروف التي نشأت فيها . وما قد يلاقيه الباحث من صعوبات وهو بعرف هده الدوريات . دلك آن كثيرا من هده الصحف اودى به الزمن بفعل الاهمال الذي اصابها . حتى صرنا لا نعثر على مجرد ثبت يضم أسماءها ، أما البحوث التي تناولت الصحافه . فهي على قلتها . يغلب عليها الطابع التاريخي . وينقصها الكثير من التمحيص . أزاء هذا كله يضطر الباحث للاهتمام بهذه الصحف نفسها ليكون قريباً من الحوادث والظواهر التي تقع في حينها . رغم أن هذه الدوريات لا يجمعها مكان واحد أو بلد واحد .

ولما كانت الصحافة حركة ثقافية واسعة فلابد من التعرف على الظروف الثقافية التي سبقت ظهورها . وقد رأينا أن العراق في القرن الماضي كان على صلة بالتيارات الثقافية الحديثة . وأنه تأثر بالدول العربية التي سبقته الى النهضة الحديثة كسوريا ومصر . كما كان على صلة بعاصمة الخلافة العثمانية . وظهر لنا من خلال هذا كله أن كثيراً من العراقيين كانوا يرسلون بانتاجهم الفكري الى هذه الأقطار ، وأن كثيراً من الصحف العربية كانت تصل الى العراق بعد النصف الثاني من القرن الماضي ، وهنا يظهر خطل الرأي القائل بانعزال العراق عن العالم

الخارجي الى الحرب العالمية الاولى . وكان بالاضافة الى هذا المصدر الثقافي الحديث ، مصدر آخر قديم . يتمثل بما كان يجري في حلقات المساجد والجوامع من ثقافة عربية صرفة .

لقد مرت الصحافة العراقية بادوار متعدده لا يمكن فصل بعضها عن بعض لأن كثيراً من الصحفيين عاصروا أكثر من دور واحد . وأول جريدة صدرت في العراق . هي جريدة الزوراء . أنشأها الوالي المصلح مدحت باشا سنة ١٨٦٩ واستمرت تصدر حتى الحرب العالمية الاولى . ولم نعثر إلا على الاعداد الأولى منها . تغلب عليها الركاكة . حتى اننا لا نستطيع أن نفهم الكثير مما كانت تكتبه . وبعد اعلان الدستور العثماني ظهر فيض غزير من الصحف . مات أكثرها . لأن العراقيين لم يكونوا قد تهيئوا بعد لكل هذا العدد من الصحف . ومن أهم الصحف التي صدرت في هذه الفترة ، جريدة الرقيب . وجريدة صدى بابل . ومجلة العلم ، ومجلة لغة العرب ؛ وقد اهتمت هذه الصحف بمعالجة القضايا العامة التي تشغل بال الرأي العام حينذاك . وأهمها استعمال العربية في المدارس والمحاكم والمعاملات الرسمية .

وتنغمس الصحافة في السياسة . طيلة فترة الحكم الأهلي وتتغلب النزعة السياسية على كثير من الأدباء في مختلف الفنون الادبية . لتتحول بعد ثورة تموز (يوليه) الى واجهة اعلامية لخدمة افكار معينة ؛ حتى ظهور ما يسمى بالمؤسسة الصحفية أخيراً .

لقد كانت الصحافة عاملاً مهما في اشاعة كثير من الاصطلاحات

اللغوية الحديثة ، وبخاصة الصحف العربية الرائدة التي كانت تصدر في النصف الثاني من القرن الماضي ، قام بها لغويون معروفون ، اتخذوا من اللغة وسيلة لخدمة القومية العربية ابان حكم الاتراك ، لقد وجد هؤلاء اللغويون أن خير وسيلة لبعث هذه الأمة من ظلامها الذي كانت تعيش فيه طيلة قرون عديدة ، يكمن في خدمة اللغة العربية وجعلها لغة متطورة مع العصر ، تتسع لكل ما هو جديد ، وهذا ما وجدناه في جريدة الجوائب لصاحبها أحمد فارس الشدياق ومجلة الجنان لسليم وبطرس البستانيين ومجلة المقتطف وغيرها من الصحف . اما في العراق فقد تحملت مجلة لغة العرب الجهد الأكبر في خدمة اللغة العربية . كما ساعدت هذه الصحف على تطوير الأساليب الكتابية ، وخلصتها من التعقيد اللفظي الذي كان شائعاً قبل ظهور الصحافة .

فالصحافة على هذا حركة ثقافية واسعة . يحتل الأدب فيها مكان الصدارة . رافقت نهضتنا الأدبية الحديثة منذ ظهورها ، وقامت على أكتاف الأدباء في مراحلها الاولى . اذ يندر أن تجد أديباً إلا وله في الصحافة انتاج يذكر . فكانت بمثابة البوق الذي يفخم أصوات الأدباء ، وينشر أدبهم بين جماهير القراء ، فالجيل الاول من هؤلاء الادباء ، كانوا موهوبين ، يحملون فكرة جديدة عن الأدب والحياة ، ولهذا جاءت صحفهم عبارة عن لوحات فنية يغلب عليها الجانب الفني ، رفعت الجماهير الى مستوى الأدب ، وشغلت نفسها بكل ما يرتفع بالثقافة العربية ، وأولتها عنايتها . باعتبارها وسيلة ثقافية مهمة .

ولم تدم هذه الحال . اذ سرعان ما طغت الناحية الخبرية على ما سواها بفعل الأتصال السريع بين دول العالم المختلفة التي بدت وكأنها مجتمع واحد . ووقوع الصحافه بين مراسيم السلطة التي أرادت توجيه الأدب الوجهة التي تريدها . وبين الاحزاب التي أرادت هي الاخرى توجيه الأدب وجهة معينه . فانحسر هذا الجيل ليأتي جيل آخر . تحول الأدب معه الى وسيلة من وسائل الاعلام وطغت عليه الناحية الخبرية ، وأصبح العنصر المميز لأدب هذا الجيل هو عنصر السرعة . فلم يعد يملك الأديب وقتاً لكي يفكر فيه . لأن المطبعة وسرعة ظهور الصحف قضت على كثير من قيم الفن والجمال . وأثرت على الكتاب . بعد أن عودت الناس على كل سهل ميسور . ازاء هذا كله صار الأدباء ينظرون الى الصحافة نظرة استخفاف مما أعاد للكتاب بعض قيمته في الأيام الاخيرة .

لقد كان ظهور الصحافة ايذانا بميلاد فنون أدبية جديدة . اهمها المقالة والقصة القصيرة. فالصحف الرائدة كانت تشتري بناء على مافيها من مقالات لهذا الكاتب أو ذاك . ومع هذا فقد انغمس كتابها في الاحداث الجارية ، ولهذا غلب عليها الطابع السياسي فعالجت موضوعات ذات صلة مباشرة بحياة الجماهير كالمسألة الوطنية والوحدة العربية والدفاع عن الحريات الدمقراطيـــة .

أما القصة فقد بدأت مترجمة كما هو الحال في مصر وسوريا ، تغلب عليها الناحية الخلقية والتعليمية وبها أثر من الحكايات العربيـــة

التي نجدها في كتب السير . ولم تظهر القصة المؤلفة الا في بداية العقد الثالث من هذا القرن على يد رائدها محمود أحمد السيد الذي وضع الخطوط العامة للفن القصصي في العراق . عالجت القصة الموضوعات العامة التي رآياها في المقال دون الاهتمام بالناحية الفنية ، ولهذا غلب عليها الطابع الصحفي كالذي نجده في القصص التي كانت تنشرها جريدة الهاتف النجفية .

وتركت الصحافة أثرها على القصيدة العربية ، فكان الشعراء كاخوانهم من الكتاب رواة حوادث واخبار ، وصار همّ الشاعر هو أن يعبر عما يجيش في صدره . فكان أن غلب عليها الطابع السياسي، وارتفع كثير من الشعراء لا على أساس فني . وانما لأنهم كانوا يملكون الجرأة لانتقاد الأوضاع السياسية المضطربة في البلاد .

ثم ظهرت حركة الشعر الحر . فكانت الصحافة مجاله الاول ، احتضنته . ودافعت عنه . ولم تضن عليه بالدراسات التي قيلت فيه ، وقد ظهر من خلال هذا كله خطل الرأي الذي يذهب الى ان هذا الشعر وجد بعد الحرب العالمية الاخيرة .

المراجــع

ـ احمد ابو سعيد ـ الشعر والشعراء في العراق ـ بيروت سنة ١٩٥٩ •

ـ ابراهيم اليازجي ـ لغة الجرائد ـ القاهرة •

ـ أنور الجندي ـ الصحافة السياسية ـ القاهرة ط ٢ سنة ١٩٦٣ •

ـ انور الجندي ـ المعارك الادبية ـ القاهرة سنة ١٩٥٠ •

ـ أنور الجندي ـ اللغة العربية بين حماتها وخصومها ـ القاهــرة ١٩٦٥ •

ـ أحمد أمين ـ زعماء الاصلاح في العصر الحديث القاهره ١٩٥٠ •

ـ أمين الريحاني ـ قلب العراق ـ بيروت سنه ١٩٣٥ •

ـ أنيس صايغ ـ فن الصحافة ـ بيروت سنة ١٩٥٨ •

ـ ابراهيم عبده ـ تطور الصحافة المصرية ـ ط ٣ القاهرة سنة ١٩٥١ •

ـ ابراهيم عبده ـ اعلام الصحافة العربية ـ ط ٢ القاهرة سنة ١٩٤٨ •

ـ بدر شاكر ـ أساطير ـ القاهرة سنة ١٩٥٠ •

ـ توماس بيري ـ ترجمة الجابري ـ الصحافه اليوم ـ بيروت سنة ١٩٦٤ •

ـ جرجي زيدان ـ بناة النهضة العربية ـ القاهرة سنة ١٩٢٤ •

ـ جرجي زيدان ـ تاريخ آداب اللغة العربية ـ القاهرة سنة ١٩٢٤ •

ـ جرجي زيدان ـ تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر ـ القاهرة ١٩٢٢ •

ـ جرجي زيدان ـ اللغة كائن حي ـ القاهرة ١٩٦٠ ٠
ـ د ٠ داود سلوم ـ الادب العراقي المعاصر ـ بغداد ـ سنة ١٩٦٢٠
ـ رفيق المقدسي ـ فن الصحافة ـ دمشق سنة ١٩٦٤ ٠
ـ روفائيل بطي ـ الربيعيات ـ بغداد سنة ١٩٢٣ ٠
ـ روفائيل بطي ـ الادب العصري ـ بغداد سنة ١٩٢٣ ٠
ـ روفائيل بطي ـ الصحافة في العراق ـ القاهرة سنة ١٩٥٥ ٠
ـ روفائيل بطي ـ أمين الريحاني في العراق ـ بغداد ٠
ـ رسول الكركوكلي ـ دوحة الوزراء في تاريخ الزوراء ـ بغداد سنة ١٩٦٢ ٠
ـ سارتر ـ ترجمة جورج طرابيشي ـ الادب الملتزم ـ بيروت سنة ١٩٦٥ ٠
ـ سارتر ـ ترجمة محمد غنيمي هلال ـ ما الأدب ؟ ـ القاهرة سنة ١٩٦١ ٠
ـ سلامة موسى ـ الصحافة حرفة ورسالة ـ القاهرة ١٩٥١ ٠
ـ شكري فيصل ـ الصحافة الادبية ـ القاهرة سنة ١٩٦٠ ٠
ـ شوقي ضيف ـ الادب العربي المعاصر ـ القاهرة سنة ١٩٦١ ٠
ـ الشدياق ـ كنز الرغائب في منتخبات الجوائب ـ الاستانة سنة ١٢٩٢ هـ ٠
ـ طه حسين ـ الوان ـ القاهرة سنة ١٩٥٢ ٠
ـ عبد الجبار البصري ـ بدر رائد الشعر الحر ـ بغداد سنة ١٩٦٦ ؛

— عبد الرزاق الحسني — تاريخ الوزارات العراقية — لبنان سنة ١٩٦٥ .

— عبد الرزاق الحسني — الثورة العراقية الكبرى — لبنان سنة ١٩٥٢ .

— عبد الرزاق الحسني — تاريخ الصحافة في العراق — بغداد ط ٢ — سنة ١٩٥٧ .

— عبد الرزاق الحسني — العراق في دوري الاحتلال والانتداب — لبنان ١٩٣٥ .

— عبد الله الفياض — الثورة العراقية الكبرى — بغداد سنة ١٩٦٣ .

— عبد الرحمن البزاز — العراق من الاحتلال حتى الاستقلال — القاهرة سنة ١٩٥٤ .

— علي البزركان — الوقائع الحقيقية في الثورة العراقية — بغداد سنة ١٩٥٤ .

— د . عبد الله البستاني — حرية الصحافة في العراق — بغداد سنة ١٩٥١ .

— د . عبد اللطيف حمزة — الصحافة والادب في مصر — القاهرة سنة ١٩٥٥ .

— د . عبد اللطيف حمزة — أدب المقالة الصحفية — القاهرة سنة ١٩٦٤ .

— د . عبد اللطيف حمزة — مستقبل الصحافة القاهرة سنة ١٩٦١ .

ـ د • عبد اللطيف حمزة ـ أزمة الضمير الصحفي ـ القاهرة سنة ١٩٦٠ •

ـ عباس محمود العقاد ـ المراجعات سنة ١٩٣٨ •

ـ فيليب دي طرزي ـ تاريخ الصحافة العربية ـ بيروت ـ سنة ١٩١٣ •

ـ فائق بطي ـ الصحافة العراقية ميلادها وتطورها ـ بغداد سنة ١٩٦١ •

ـ فائق بطي ـ صحافة العراق تاريخها وكفاح أجيالها ـ بغداد ١٩٦١ •

ـ فوستر ـ تكوين العراق الحديث ـ ترجمة عبد المسيح جويدة ـ بغداد ط ٢ سنة ١٩٤٥ •

ـ لونكرك ـ أربعة قرون من تاريخ العراق ـ ترجمة جعفر خياط ـ بغداد سنة ١٩٤١ •

ـ د • لطفي عبد البديع ـ الشعر واللغة ـ القاهرة ١٩٦٩ •

ـ د • لطفي عبد البديع ـ التركيب اللغوي للأدب ـ القاهرة ١٩٧٠ •

ـ لويس عوض ـ بلوتولاند وقصائد أخرى ـ القاهرة ١٩٦٧ •

ـ لويس عوض ـ الثورة والادب ـ القاهرة سنة ١٩٦٧ •

ـ مصطفى صادق الرافعي ـ وحي القلم ـ القاهرة سنة ١٩٥٤ •

ـ منشورات أضواء ـ الادب العربي المعاصر ـ بيروت سنة ١٩٦١ •

ـ محمد حسين هيكل ـ ثورة الأدب ـ القاهرة ط ٣ سنة ١٩٦٥ •

ـ محمود تيمور ـ فن القصة ـ القاهرة ١٩٦٤ .

ـ مختار الوكيل ـ بين الادب والصحافة ـ القاهرة ١٩٥٤ .

ـ منير بكر ـ الاتجاهات السياسية والثقافية والاجتماعية في الصحافة العراقية ـ بغداد ـ سنة ١٩٦٩ .

ـ محمد مهدي البصير ـ تاريخ القضية العراقية ـ بغداد سنة ١٩٢٤

ـ محمد طاهر العمري ـ تاريخ مقدرات العراق السياسية ـ بغداد سنة ١٩٢٥ .

ـ محمود أحمد السيد ـ الطلائع ـ بغداد سنة ١٩٢٩ .

ـ نازك الملائكة ـ شظايا ورماد ـ بغداد سنة ١٩٤٩ .

ـ يوهان فيك ـ دراسات في اللغة واللهجات ـ ترجمة النجار ـ القاهرة ١٩٥١ .

ـ يحيى حقي ـ فجر القصة ـ القاهرة سنة ١٩٦٠ .

ـ د . يوسف عز الدين ـ الشعر العراقي الحديث ـ القاهرة ١٩٦٢ .

(المجـــلات)

ـ الأديب العراقي	بغداد سنة ١٩٦١
ـ الاتحاد النسائي	بغداد سنة ١٩٥٠
ـ الأخوة الاسلامية	بغداد سنة ١٩٥٣
ـ ١٤ تموز	بغداد سنة ١٩٥٨
ـ الاسبوع	بغداد سنة ١٩٥٣
ـ الاستاذ	بغداد سنة ١٩٥٥
ـ الافكار	بغداد سنة ١٣٤٩ هـ
ـ الاعتدال	النجف سنة ١٩٣٥
ـ الاقـلام	بغداد سنة ١٩٢٨
ـ البيـان	النجف سنة ١٩٤٧
ـ التربية والتعليم	بغداد سنة ١٩٢٨
ـ التراث الشعبي	بغداد سنة ١٩٦٣
ـ الثقافـة	بغداد سنة ١٩٢٧
ـ الثقافة الجديدة	بغداد سنة ١٩٥٨
ـ الجزيرة	الموصل سنة ١٩٤٧
ـ الحاصد	بغداد سنة ١٩٢٩
ـ دار المعلمين	بغداد سنة ١٩٢١

ـ الزنبقة	بغداد سنة ١٩٢٢
ـ عالم الغد	بغداد سنة ١٩٤٦
ـ العالم المصور	بغداد سنة ١٩٢٥
ـ العلم	النجف سنة ١٩١٠
ـ الغري	النجف سنة ١٩٣٩
ـ الفكر	بغداد سنة ١٩٥٨
ـ عطارد	بغداد سنة ١٩٣٤
ـ قرندل	بغداد سنة ١٩٤٩
ـ الكفاح	بغداد سنة ١٩٤٧
ـ كلية الآداب والعلوم	بغداد سنة ١٩٥٦
ـ لغة العرب	بغداد سنة ١٩١١
ـ ليلى	بغداد سنة ١٩٢٣
ـ المثقف	بغداد سنة ١٩٥٤
ـ المجلة	بغداد سنة ١٩٣٨
ـ المجمع العلمي العراقي	بغداد سنة ١٩٥٠
ـ مرآة العراق	بغداد سنة ١٩١٩
ـ المعارف	بغداد سنة ١٩٥٨
ـ المعرض	بغداد سنة ١٩٢٥
ـ المقاصد	بغداد سنة ١٩٤٨
ـ منبر الاثير	بغداد سنة ١٩٤٥

ـ الناشئة الاسلامية	بغداد سنة ١٩٣٥
ـ النجف	النجف سنة ١٩٥٧
ـ الوميض	بغداد سنة ١٩٣٠
ـ الآداب	لبنان سنة ١٩٥٨
ـ المقتطف	القاهرة سنة ١٨٩١
ـ المقتبس	القاهرة سنة ١٩١٠
ـ المشرق	بيروت سنة ١٨٩٨
ـ الرسالة	القاهرة سنة ١٩٣٦
ـ الجنان	بيروت سنة ١٨٧٠

(الجرائـد)

ـ دجلـة	بغداد سنة ١٩٢١
ـ الاخاء	بغداد سنة ١٩٢٦
ـ الاخاء الوطني	بغداد سنة ١٩٣١
ـ الاستقلال	بغداد سنة ١٩٢٦
ـ صدى الاستقلال	بغداد سنة ١٩٣٠
ـ صدى الوطن	بغداد سنة ١٩٣٠
ـ الرقيب	بغداد سنة ١٣٢٧ هـ
ـ شط العرب	البصرة سنة ١٩٢٤
ـ الموصل	الموصل سنة ١٩١٩
ـ البلاد	بغداد سنة ١٩٣٠
ـ الزمان	بغداد سنة ١٩٣٠
ـ صوت الاهالي	بغداد سنة ١٩٣٥
ـ الاهالي	بغداد سنة ١٩٣٤
ـ لواء الاستقلال	بغداد سنة ١٩٤٧
ـ الاتحاد الدستوري	بغداد سنة ١٩٥٠
ـ العاصمة	بغداد سنة ١٩٢٢.
ـ العراق	بغداد سنة ١٩٢٠.

ـ العالم العربي	بغداد سنة ١٩٢٤
ـ الانقلاب	بغداد سنة ١٩٣٦
ـ لسان العرب	بغداد سنة ١٩٢١
ـ التقـدم	بغداد سنة ١٩٢٨
ـ النهضة العراقية	بغداد سنة ١٩٢٧
ـ الناشئة الجديدة	بغداد سنة ١٩٢١
ـ الهاتـف	النجف سنة ١٩٣٦
ـ اتحاد الشعب	بغداد سنة ١٩٥٩
ـ الزمان للسمعاني	بغداد سنة ١٩٣٧
ـ الراعي	النجف سنة ١٩٣٤
ـ اليقظة	بغداد سنة ١٩٤٧
ـ العـرب	بغداد سنة ١٩١٧
ـ صدى بابل	بغداد سنة ١٩٠٩
ـ الزوراء	بغداد سنة ١٨٦٩
ـ النجف	النجف سنة ١٩٢٦
ـ الاخـلاق	بغداد سنة ١٩٢٦
ـ المفيـد	بغداد سنة ١٩٢٢
ـ السياسة	بغداد سنة ١٩٢٥
ـ الجوائب	الاستانة سنة ١٨٦٣
ـ المؤيـد	القاهرة سنة ١٩١٠

Jorrnalism is a widespread cultrral movement in which literature occupies a primt position and which was built up on the shiulders if the writers in its first stoges ind went on hond in hand with our cultural moyement as an ifportant factor in the evolution of this cultural movement . Any researcher wro wants to study our modern literature cannot overlook this important factor because it was and it will be the nafural and vital origin of many cultural features that have a close conne - ction with our life . Journalism was a revolution aganist many literary principles which existtd qears ahead and which has effected the language and caused it to hold all the modern developments trot occompanied the non cultural movemenf . At tht same time it is a vital factor in spreading many idiomafic expression and made thtm as cofmon sxprtssions and it facilitated the styles of writing and apolishtd all vtrbal trops which oll the old writers were fond of .

Journaliam caustd tht edistence of many new literal featlres as the essay and the novel and it helped the developmtnt of many arts as poetry though the divergen of these different orts lost many principles of arts and btauty .

The desertation has been devided into crapters among which there are good correlations .

Part I : This part includes three chapters . The first chapter includes all the difficulties which encounter the writer wrile studying the periodicals because of loss of great part of these because of the carelessness . The second chapter deals with the sources of cultural movement in Iraq in the 19th century . We have seen the Iraq depended upon two

5.12.

chief sources the one of which is modern and it is represe - nted in the connectiin between Iraq and other Arab countries whicr were years ahead in progress .

Though many peiple say that there was not any relation between Iraq and the other Arab countries till the First World War . The second source is tht classical teaching which were carritd on in circlts in mosques . The third chapter deals with journalism in Iraq ' in its different stages witr i strtss on the papers issued in Turkish Impire.

Part II : This inciudes tht tffect caused by journalism especially in idiomatic expressions and studying the most important papers which brought up these expressions .

The second chapter of this chapter deols with the study of poth the writer and journolism and how journalisf devel - oped by these who got new thoughts and were real revolutionists in the modern movement .

Part III : It studies tht different types of lireral orts in journalism in Iraq .

In the first chapter studied the article and the reasons which made the article writers in first close . The second chapter deals with the story and tht story develpment from story translotion up to story writing .

Part IV : It deals with poetry through journalism .

That is in tre first chapter .

The second chapter we studied the free poetry as a new movement which built on getting rid of the rythem and journalism is the notural environment for this art .

فهرست الكتـاب

ملاحظـــة : وقعت بعض الاخطاء المطبعية لاتخفى على القاريء الكريم

LITERATURE IN THE IRAQI JOWRNALISM

By

INAD ISMAIL AL — KUBAISY PH . D

AL — NA'MAN PRINTING PRESS

NAJAF , IRAQ 1972

١٩٧٢ سنة الكتاب الدولية

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٢٣٠ لسنة ١٩٧٢
١٠٠٠ / ٢٠ / ٤ / ١٩٧٢

مطابع النعمان ــ النجف الاشرف